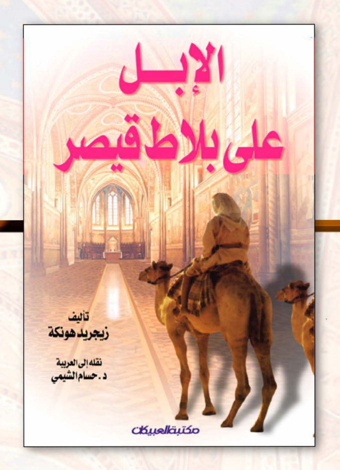
الإبـــل على بلاط قيصر

تأليف
زيجريد هونكة

نقله إلى العربية
د. حسام الشيمي

مكتبة العبيكان



يعيش العالم الآن عصر الترابط الوثيق، والاتصال المتين، ولا شك أن العرب يشكلون حلقة مهمة في هذه السلسلة العالمية، ولم يكن العرب غرباء عن هذه العلاقات، حيث بدأت علاقتهم بأوربا منذ أمد بعيد، علاقة تثقيف وتعليم وتحضر، حينما نهل الغرب من ينابيع الثقافة العربية الإسلامية.

وقد تحدث كثير من الباحثين عن هذه العلاقات، على حين تبرز من بينها علاقة خاصة بين العرب وألمانيا تميزت بالتقارب، ولعل ذلك يعود إلى ما تميز به كل منهما من خصال.

ولقد سعت الكاتبة الألمانية «زيغرد هونكة» في كتابها الذي بين أيدينا إلى إلقاء الضوء على هذه العلاقة، مُبْرِزَةً العلاقات الإنسانية المتعددة، والتأثيرات الحضارية والثقافية والعلمية، التي تمت نتيجة اللقاءات التي جرت منذ عهد شارلمان، حيث مَثَّلَتْ هذه اللقاءات قمة حقيقية للتفاعل الحضاري.

ويسر مكتبة العبيكان - كما هو دأبها - أن تمد جسور الثقافة والحضارة بين العرب وغيرهم من شعوب العالم لمزيد من التواصل. ومن ذلك نشر الترجمة العربية لهذا الكتاب المنشور قبلاً باللغة الألمانية، والذي نتمنى أن يعم نفعه الجميع.

والله من وراء القصد.

الناشر



الإبل على بلاط قيصر

تأليف

زيجريد هونكة

ترجمة

د. حسام الشيمي

مكتبة العبيكان

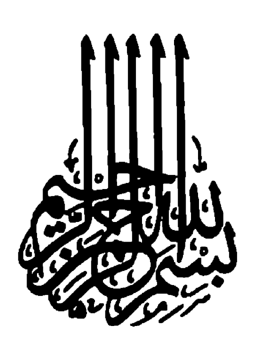
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



مقدمة كتــاب
«الإبـل على بــلاط قيصـر»
تأليف: «زيجريد هونكة»

بدأت الكاتبة الألمانية «زيجريد هونكة» تكتب في بداية الخمسينيات لكنها لم تحظ بشهرة حقيقية إلا عندما نشرت كتابها «شمس الله على الغرب» في عام ١٩٦٠م بعد سنوات مثمرة قضتها في المغرب العربي . وكانت دعوتها لتوثيق الروابط بين أوروبا والعالم العربي سبباً في أن تحظى بتقدير دولي واسع في الدول العربية والإسلامية» .

ومن أعمال الكاتبة الأخرى : «في البدء كانا رجلاً وامرأة» [١٩٥٥م]، «الرايخ وأوروبا المتطورة» [١٩٧١م]، «المنشور بعد الشيوعي» [١٩٧٤م]، كذلك شاركت الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر وآخرين من كتّاب ألمانيا والعالم العربي بمقال واسع أسمته «أنهار من الشرق تسقي حقول الثقافة الألمانية» [١٩٧٤م]، وأخيراً صدر كتابها «جمال على معطف القيصر» [١٩٧٦م] .

وإذا كانت زيجريد هونكة قد تعرضت في كتابها «شمس الله» لأوروبا كلها ، فإننا نجدها في هذا الكتاب الأخير تقتصر على علاقات العرب والألمان ، حيث كانت تلك العلاقات منذ بداياتها الأولى ذات طبيعة خاصة : فهناك نوع معين من التعاطف يميز تلك العلاقة إلى حد أنها لم تتحول إلى علاقة عدائية حتى في أثناء الحروب الصليبية ، بل إنها كثيراً ما كانت تتسم بالود ، وتعود تلك العلاقة الخاصة إلى نوع التشابه في شخصية وفلسفة كلا الشعبين ، وهو موضوع أثار اهتمام الباحثين منذ وقت بعيد .

وتعمد هونكة في كتابها إلى إجراء مقارنة تهدف إلى إلقاء الضوء على تلك الصلات الفريدة في نوعها، كما أنها تشير إلى العلاقات الإنسانية المتعددة والتأثيرات الحضارية المختلفة التي تمت نتيجة اللقاءات التي جرت منذ عهد شارلمان بين الألمان والعرب، ولقد كانت تلك اللقاءات تمثل قمة حقيقية للتفاعل الحضاري وتتجاوز بتأثيراتها المتعددة والمثيرة الأمور الظاهرية.

يضم الكتاب الذي يقع في ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط ثمانية أبواب ومقدمة وخاتمة وثبتاً بالمراجع والبيانات المبوبة، وبياناً بالصور. وتقسم الأبواب إلى فصول متفاوتة في الطول. ولنلق نظرة على محتويات الكتاب بصورة عامة.

الباب الأول: لقاءات عربية ألمانية.

الباب الثاني: الفروسية العربية والفروسية الألمانية.

الباب الثالث: الحروب الصليبية، صراع بين الغرب والشرق.

الباب الرابع: الشهامة العربية والشهامة الألمانية.

الباب الخامس: المؤثرات العربية تصنع حياة من نوع جديد.

الباب السادس: المؤثرات العربية تصنع أسلوب حياة جديد.

الباب السابع: حوافز فنية عربية.

الباب الثامن: الحكمة العربية والألمانية.

وبذلك فإن الكاتبة تفتح أمام القراء الألمان طريقاً جديداً لتفهم العرب، وهو أمر أصبح اليوم من ضروريات العصر. وتقول زيجريد هونكة عن كتابها [ويمكن لكتاب «شمس الله على الغرب» أن يسهم بقدر متواضع في ذلك التحول الفكري بصورة كانت مفاجئة لمؤلفته لم تكن تهدف من ورائه إلا تنوير الألمان فحسب.

فهاهم أولاء رؤساء الدول العربية الممتدة من الرباط حتى بغداد يصرحون بأن كاتب «شمس الله » جاء بعد قرون من التأثير الثقافي الأجنبي الاستعماري المخطط ومن تدمير الشخصية العربية، جاء ليساعد العرب أنفسهم على استعادة هويتهم من جديد] .

مقدمة المؤلفة

حين ظهر كتاب «شمس الله على الغرب» عام ١٩٦٠م كتبت في مقدمته: «من المحتمل أن يرتبط مصيرنا قريباً بصورة وثيقة بمصير العالم العربي الذي قام ذات مرة من قبل بتغيير معالم دنيانا تغييراً حاسماً، ثم أليس من الواجب علينا أن نتساءل اليوم عن الأمور التي تربطنا متجاوزين تلك التي تفصل بعضنا عن البعض الآخر؟» ولقد تحققت في الفترة الأخيرة النبوءة التي ظلت خلال السنوات الخمس عشرة التالية على ذلك تبدو غريبة وخيالية، ووعتها أوروبا على نحو عنيف وكأنها تلقت صدمة عنيفة، واتضح أمام ناظريها بما لا يدع مجالاً للشك في أن العرب والأوروبيين يحتاج بعضهم لبعض، بل يعتمدون مصيرياً بعضهم على بعض بصفتهم جيرانًا يطلون على البحر المتوسط.

وهكذا دخل العرب في خضم أحداث العالم للمرة الثانية بصورة مؤثرة، كانت المرة الأولى حين خلق العرب في القرن السابع وضعاً سياسياً عالمياً جديداً كل الجدة على أثر إقامة دولتهم الكبرى والسيطرة على الجزء الأكبر من حوض البحر المتوسط، فتحطم عالم البحر المتوسط القديم، مما أوجد سبباً لنشوء العالم الغربي على أكتاف الجرمان والفرنجة الذين آل مركز الثقل إليهم.

أما دخول العرب اليوم إلى مسرح السياسة الدولية فإنه أدى إلى تغيير أوضاع القوى في العالم تغييراً كبيراً، ولم يعد البحر المتوسط يقوم بدور الحاجز الفاصل بين شعوب تعادي بعضها بعضاً، ولم يعد بمنزلة الجرف العميق الذي حفرته هجمات العرب على سواحله الشمالية والمواجهات الدموية إبان الحروب

الصليبية، كذلك فقد تحطم الحاجز الداخلي الذي بناه الاستعمار الأوروبي، لذلك فإن الدلائل تشير اليوم إلى قيام تعاون بين شريكين على قدم المساواة.

والحق أن ألمانيا بالذات لم تشارك سواء في حملة الكراهية الدينية المنظمة ولا في الحركة الاستعمارية، بل إن العرب والألمان كانوا على مر القرون شهوداً على لحظات مصيرية حقيقية ربطت صداقتهم معاً.

ولقد بدأ العالم العربي بعد أن نَفَضَ عن كاهله الآثار الخطيرة للاستعمارين التركي والأوروبي يخطو منذ وقت طويل في طريق النهضة الشاملة التي شملت الإسلام فيما شملت، كما بدأ يخطو في طريق ميلاد داخلي جديد، وبدأ يطور نفسه استناداً إلى يقظة وعيه الذاتي من جديد ليصبح أحد عوامل القوة السياسية، وهو أمر لم تدركه أوروبا لأنها صبت جل اهتمامها على التعامل التجاري.

ويمكن لكتاب «شمس الله على الغرب» أن يدعي أنه أسهم بقدر متواضع في ذلك التحول الفكري بصورة كانت مفاجئة لمؤلفته؛ لأنها كانت تهدف من ورائه إلى تنوير الألمان فحسب. فهاهم أولاء رؤساء الدول العربية الممتدة من الرباط حتى بغداد يصرحون بأن كتاب «شمس الله» جاء بعد قرون من التأثير الثقافي الأجنبي الاستعماري المخطط ومن تدمير الشخصية العربية، جاء ليساعد العرب أنفسهم على استعادة هويتهم الذاتية من جديد.

كذلك لم يغفل أي من رؤساء الجمهورية الألمانية، ولا أي سياسي وهو يلقي خطبة من خطب المائدة تحية لضيف عربي كبير، أن ينوه بالمآثر التي بثتها شمس الله في بلادنا، كما قررت وزارة الخارجية الألمانية أن الكتاب ظل خلال فترة قطع العلاقات بمنزلة الجسر الوحيد الذي يربطنا بالعرب، فمنذ ظهوره بدأ يتأكد اعتراف الناس في المدارس أو لدى الرأي العام أو في الكتب بالإنجاز الحضاري

الضخم المستقل الذي أنجزه العرب - مشيرين أو غير مشيرين إلى المصدر - وكانت أوروبا تعتبرهم في الماضي مجرد ساعي البريد الذي نقل الحضارة اليونانية .

على أننا لا نزال نلاحظ جهلاً يؤسف له يسود حتى اليوم، جهلاً بالشعب العربي وشخصيته وطبيعته وتفكيره . وقد تناولنا في «شمس الله» بالدرجة الأولى الكتب والأدوات التي كانت الوسيط بين العرب وبيننا، أما في كتابنا هذا فنحن نسأل عن الإنسان نفسه أو نسأل متى التقت شعوبنا مع بعضها في اتصال مباشر دون وسيط، لقاء إنسان بأخيه الإنسان .

لقد شهد الماضي - للأسف - فترة واحدة تحقق فيها الاتصال المباشر، فترة تحددت صورتها على نحو مأسوي خلال الحروب الصليبية : ولذلك كان من الواجب أن نسلط عليها الضوء في هذه الدراسة . إلا أن ذلك الموقف الحساس يوضح العلاقات الخاصة بين الألمان والعرب، تلك العلاقة التي تغلغلت بعمق في الجوانب الإنسانية وكشفت الملامح الجوهرية التي تميز شخصيتهم وشخصيتنا، وأصبحت الآن أساساً لعلاقة التفاهم الحالية بيننا وللتعاون المُدرك بيننا على الساحة الدولية المعاصرة .

لم يكن الدافع إلى علاقات الصداقة بين العرب والألمان البترول العربي أولاً ، إنما هي ذات جذور قديمة ترجع إلى فترة الحروب الصليبية التي كثيراً ما تحولت فيها لقاءات القتال إلى صلات صداقة نتيجة لنوع من التعاطف الفريد الذى له مبرراته النفسية الداخلية، وهذا هو الذي يعطي لعلاقتنا مع العرب تلك النوعية الخاصة ويقربنا من صديق وشريك المستقبل على الصعيد الإنساني .

الباب الأول
الصلات العربية - الألمانية

- عربيٌّ يهرب إلى ألمانيا.

- روابط الصداقة بين شارلمان والعرب .

- الصداقة التي تأخرت بين والي قرطبة والإمبراطور أوتو الأول.

«لقد جئت إلى ألمانيا وأحسست بأن في وسع المرء العيش في حرية أكبر، ذلك أن الألمان لا يتدخلون في شؤون الآخرين، وكل إنسان يعيش وفقاً لإرادته وينعم غالبية السكان بحرية العقيدة».

لأول مرة في تاريخ الغرب المسيحي يستخدم تعبير «حرية العقيدة» ولم تكن صدفة أن يأتي ذلك التعبير على لسان رجل عربي ينتمي إلى شعب يتميز - خلافاً لكلّ الدعايات الزائفة- بالتسامح- الذي هو نتاج طبيعته وقناعاته الدينية - إنه العربي الأندلسي الذي يلتقي هنا بسانسوبانشا Sancho Panza «أحد العرب الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا منذ ثمانمئة عام وأجبروا على أن يتنصروا بعد استعادة المسيحيين لإسبانيا خوفاً من سيوف محاكم التفتيش المتعصبة، وقد ذكر ذلك العربي بعد أن طرد ملك إسبانيا المسيحي فيليب الثالث العرب من البلاد نهائياً: «إلا أننا تحملنا في عام ١٦٠٩ أقصى عقوبة يمكن أن تفرض علينا».

ولكن الحنين الطاغي دفع العربي الأندلسي ريكوته "Ricote" إلى أن يتسلل متخفياً في زي الحجيج عائداً إلى الوطن الضائع لكي يحضر زوجته وابنته إلى أوجسبورج التي اشترى منزلاً قريباً منها، ولقد كانت تلك الأحداث الرهيبة باقية حية في مخيلة "سرفانتس" الذي ترك بعدها بثلاث سنوات فقط في عام ١٦١٢ - في الجزء الثاني من روايته "دون كيشوت" العربي الأندلسي السيء الطالع يروي حكاية هروبه. وقد شكا العربي الهارب لسانشو بانشا الذي ينتمي إلى

القرية نفسها من أنه وأمثاله لم يجدوا من يقبلهم في أي مكان، ولكن حتى إذا كانت حدود الاستقلال الرسمية والقانونية في ألمانيا من جانب الكنيسة ورجال الدولة- أي منح حرية اختيار الديانة والعقيدة- حتى إذا كانت تلك الحدود لا تزال جامدة لوقت طويل كما كانت في ذلك الحين، إلا أن العربي وجد بين الشعب في ألمانيا روحاً أكثر تحرراً ونبلاً مما عرف في فرنسا وإيطاليا، تلك الروح التي تتيح للغرباء أن يعيشوا في خصوصيتهم.

وبعد أن كانت إسبانيا التي فتحها العرب منذ عام ٧١١ م وظلوا طوال ثمانية قرون يحكمونها، بروح الإسلام، والحكم المتسامح الذي لا مثيل له ورضيت بوجود المسيحيين واليهود، بل وفوق ذلك أتاحت لهم حق ممارسة وحماية ديانتهم، وأقامت بالاتفاق السلمي، بل وبالتعاون في مختلف الوجوه، أقامت معهم أكثر نظم الحكم ثراءً وازدهاراً في القارة الأوروبية، ثم جاءت محاكم التفتيش الدموية مع الغزاة المسيحيين وأحرقت أتباع محمد ﷺ بالآلاف، بل واضطهدت وطردت حتى أولئك الذين تنصَّروا بالعشرات، وهكذا تحرك في نفوس المطرودين الحنين إلى الوطن والإحساس بالمعاملة النزيهة، واحترام الغريب.

ولم يكن الأندلسيون العرب في الحقيقة غرباء عن الألمان بشكل كامل وهذا ما تؤكده أعمال الحفر على النحاس والخشب وغيرها، تلك الأعمال التي نشأت منذ عدة مئات من السنين وتمثل راقصين ماهرين، يقومون برقصاتهم العنيفة بحركات تعبيرية وخطوات واسعة هي "رقصة المورسيك" ولا بد أن مجموعات أخرى من الراقصين العرب قد وصلت إلى ألمانيا منذ القرن الرابع عشر، حين أخذت الممالك العربية في إسبانيا تنهار الواحدة بعد الأخرى وتعرض سكانها المسلمون للاضطهاد أو التنصير الإجباري وغير ذلك من المتاعب. فلما قامت علاقات

زواج بين البيت الإمبراطوري الألماني [مثل القيصر ماكسيميليان الأول وابنه فيليب وابنته مارجريت] والبيوت الملكية الأيبرية، نشأت جسور عبرت من فوقها التأثيرات العربية، خاصة في بلاد آل هابسبورج.

ولم يكن في وسع أي من أسر الأمراء الإسبانية المسيحية أن تنجو من التأثر بأسلوب الحياة الممتاز والتقاليد الملكية والفنون الخلابة التي برع فيها العدو المتفوق الذي كانوا يعجبون به سراً، ولقد أحضروا إلى بلادهم مغنيات عربيات وراقصين وراقصات عرب بصفتهم من غنائم الحرب الغالية القيمة، وأصبح هؤلاء يعدون هناك من مستلزمات حياة القصور حتى بعد أن كان الخناق قد ضيق على عرب الأندلس منذ القرن العاشر. وحين قام بارون بوهيما "روتسيمثال" بزيارة قسطلة في منتصف القرن الخامس عشر، فإنه كما يسجل كاتب مذكرات رحلته، وجد لدى الكونت القوي في بورجو "فتيات حسناوات، وسيدات يلبسن الكثير من الحلي حسب التقاليد العربية الأندلسية، يسرن على بالتقاليد نفسها في المأكل والمشرب وفي كل سلوكهن، وكان الراقصون والراقصات يؤدون رقصات جميلة على النمط العربي الأندلسي، وكانو جميعاً ذوي بشرة سمراء وعيون سوداء وكانوا يأكلون ويشربون النزر اليسير، وقد حيوا سيدي البارون تحية مفعمة بالود وأظهروا للألمان الصداقة والمودة".

كذلك أحضرت ابنة الملك بيدروس ملك قسطلة عام ١٣٧٢ بعد زواجها من أحد أبناء الملك أدوارد الثالث عن طريق أتباعها رقصة الموريسك معها إلى إنجلترا، فدخلت رقصة موريس "Morris - dance" في التراث الإنجليزي حتى اليوم رقصة تؤدى في القصور ورقصة شعبية، وكانت كتابات شكسبير عنها سبباً في تخليدها عبر الزمن. وحتى بعد سقوط غرناطة فإن "د. يوهانس لانجة"

طبيب الكونت البغالسي فريدريك الثاني، شهد بأم عينه في إسبانيا عام ١٥٢٦م "رقصة الموريسك" حيث كان الراقصون يتزينون بلآلئ جميلة خلابة وأحجار كريمة تزّين الأذنين والجبهة والذراعين. كانوا يرقصون حسب طريقة بلادهم على أنغام الآلات الوترية والكمان والطبول، التي كانت النساء تعزف عليها، وكان البعض الآخر يصفق طرباً". إن تلك الرقصة الموريسكية التي أدهشت كذلك الرحالة الألماني "كريستوف فايدنيس" عام ١٥٢٩م في إسبانيا هي رقصة يقوم بها الرجال ويحركون أصابعهم التي علقت فيها الصاجات حركات إيقاعية ويصيحون كما تصيح المها. ولقد أخذت هذه الرقصة في الأصل عن رقصات القتال بالسيوف.

كيف إذن لا تؤثر تلك القفزات وحركات دق الأرض بالأرجل حسب إيقاع سريع ٣/ ٢ أو ٣/ ٤ بقوة الرجال الذين يرتدون ملابس غريبة، كيف لا تؤثر على الألمان حينما كان راقصو الموريسك يعرضون فنونهم في حفلات القصر ومهرجانات الرقص وأعياد الربيع، واحتفالات الشعب في الميادين والقرى والمدن أو في صالات الرقص الجديدة بمجالس المدن؟ لقد كانت تلك الرقصة هي أكثر الرقصات شيوعاً في القرن الخامس عشر.

لقد كانت هناك بالتأكيد موجة من الحماس للأندلسيين تعد صدى لمعارك الإبادة البعيدة في إسبانيا أدت إلى دخولهم جنوب ألمانيا، وإلا فكيف نفسر أن عرباً يلبسون العمامة ويمسكون بالصاجات دخلوا في مختلف الأعمال الفنية: هنالك رسم بالحفر على النحاس "لاسراهيل فان ميكنيم" [١٤٤٠م - ١٥٠٣م] وكذلك هناك رسم لتلميذ دورر "Dürr" هانس زويس فون كولم باخ [١٤٨٠م - ١٥٢٢م] وتماثيل خشبية محفورة ذات طابع باروكي من صنع " هانز لينبرجر"

الذي أقام في "لاندسبورت" في الفترة من [١٥١٣م] إلى [١٥٣٠م] - كلها تظهر مجموعة الراقصين المعبرة ترافقها أحياناً سيدة أو عروس الربيع، وأحد المهرجين بالإضافة إلى الموسيقيين. بل إنه لم يكن من المتصور على الإطلاق أن تقام حفلات زواج أمراء" لاندسهوت" - تلك التي أقيمت عام ١٤٧٥م - بدون رقصات الموريسك. ثم عاد أهل "لاندسهوت" فأحيوا تلك الرقصات بعد خمسمئة عام في أثناء احتفالات اليوبيل الضخمة عام ,١٩٧٥م كذلك هناك من الدلائل ما يصل بنا إلى مدينة نيرنبرج وغيرها التي عرفت أيضاً رقصات الموريسك في احتفالات الكرنفال أو "Morischgntans" حيث يقوم كل واحد من المهرجين الراقصين في مباراة قوامها الحركات الفنية الرائعة بمحاولة كسب ود إحدى السيدات التي يقدم لها تفاحة:

أين منا صاحب البراعة

مهرج الحفل الكبير

فهذه التفاحة هدية مني

لمن فاق الجميع

وشهد القيصر ماكسيمليان بنفسه عام ١٥٠٠م في مقر إقامته في إنسبروك رقصة المهرجين المدهشة، وأمر أحد كبار فناني الحفر على الخشب بإبداع رسوم بالحفر تمثل راقصيها في قفزاتهم الغريبة الساحرة، وزين بها "السقف الذهبي" الذي ظل باقياً حتى اليوم.

إلا أن أعظم تخليد حظي به راقصو الموريسك كان من نصيب مدينة ميونيخ، ففي صالة الرقص بدار البلدية القديمة التي تسمى اليوم "صالة البلدية القديمة" قام

النحات العبقري "أراسموس جراسر" عام ١٤٨٠م بتكليف من البلدية بتصوير ستة عشر راقصاً يؤدون حركات رشيقة مليئة بالقوة والتعبير، على الأكتاف التي يرتكز عليها السقف المنيف، وظلت تطل من هناك طيلة ما يقرب من ٤٥٠ عاماً على أهل ميونيخ، حتى تم نقلها عام ١٩٢٧م إلى متحف مدينة ميونيخ، ومن يزر المتحف اليوم ير عشرة منهم يؤدون رقصاتهم الصامتة حتى اليوم.

لقد بقيت رومانسية الموريسك تعمُّ مجالس السرور والبهجة في ذلك العهد ويمثل بوضوح هنا ولأول مرة في تاريخ العلاقات العربية - الألمانية تذوّقاً ظاهراً لما كان يسمى "العدو الملعون للكنيسة" وكما أسلفنا فإن قصور أمراء إسبانيا والبرتغال كانت هي الجسر الذي انتقلت عن طريقه هذه المؤثرات، فلم يكن أصحاب تلك القصور يتخلون عن فنون العرب الأندلسيين الاجتماعية، فبقيت تلك الفنون عبر القصور الفرنسية التي كانت الفنون الأندلسية تسلك إليها طرقاً مباشرة عبر جبال البرانس.

وهكذا فإن رقصة "الجالاردا" على إيقاع ٣ / ٤ ، أو رقصة الديوك التي انتشرت في إسبانيا وفرنسا وأصبحت تسمى "الجيلاردا" أو " الرقصة البهيجة" بعد أن تحورت عن صورتها الأصلية، ورقصة الطاووس ذات الخطوات الجميلة المحددة، فقد بدأت تحتل مكانها في ألمانيا وخاصة في النمسا ومعهما أيضاً رقصة "السارابندا" الشعبية المأخوذة عن عرب الأندلس أيضاً على إيقاع ٣ / ٤ ورقصة الألمون "almon" التي امتازت بالحيوية الدافقة، أو رقصة "الألمين" "almeyn" أي الرقصة الألمانية التي أخذت هذه الصفة حين انتقلت إلى فرنسا ومنها إلى ألمانيا، وهنا فقط بدأت تأخذ طابع الخطوات الهادئة البطيئة التي بقيت حتى اليوم في الأصل الألماني دون أن ندري.

وخلال هذا العصر انتقلت فنون الفروسية العربية التي كانت تسمى "بالمدرسة العليا" إلى وسط أوروبا، فقلد المقلدون معظم أساليب سير الحصان وحركاته، مثل رفع الرجلين الأماميتين والوقوف على الخلفيتين، والسير مع مبادلة الأرجل، والقفز على الواقف وغيرها من الحركات التي كانت من بين الأساليب الحربية المهمة لدى الفرسان العرب خلال القتال، وإذا كانت مدرسة الفروسية في ڤيينا تحمل إلى يومنا هذا اسم "مدرسة الفروسية الملكية الإسبانية" وكان الأحرى بها أن تسمى "مدرسة الفروسية العربية" فإن هذا الاسم وحده يشير إلى مصدرها.

ولقد كان كارل الخامس هو الذي أرسل من قصره في إسبانيا بعض مدرسي فنون الفروسية العرب إلى النمسا، ومن الطبيعي أن الخيول العربية كانت تحتل مكاناً خاصاً خلال احتفالات البلاد الضخمة، وهكذا فإن حفل زواج القيصر ليوبولد الأول والأميرة الإسبانية مارجريتا تيريزا تضمن "الباليه الشهير" الذي يعتمد على الخيول، وكان هذا الباليه يمثل الذروة التي خلبت الألباب كما تضمن الاحتفال عروض الألعاب النارية التي أطلقت إلى عنان السماء، فبددت الظلام ونشرت أمام الناس طائفة من الألوان البديعة، وقد تم التدريب عليها هي الأخرى في القصور الشرقية، وكان عرض الخيول عبارة عن رقصة ضمن العديد من الفصول والمناظر المنوعة وقد صاحبها عزف من ٢٤ عازف بوق، وأربعة من طبول الجيش. ودخل الفرسان والخيول موزعين على فصائل رباعية في مباراة رائعة وهم يرتدون أبهى الحلي ويستعرضون فنونهم على هيئة "معارك وهمية" والأصل في تلك الفصائل الرباعية، وحدات الفرسان الصغيرة التي عرفها العرب في إسبانيا.

وهكذا انتهت المباريات الفرسانية التي كانت سائدة في أوروبا قبل العرب، والتي راح ضحيتها عام ١٥٥٩م الملك الفرنسي هنري الثاني، وحلت محلها

بالتدريج ألعاب الفروسية المأخوذة عن العرب ومنها أيضاً ألعاب الجياد الخشبية الدوارة "كاروسيل" التي تسمى بالعربية "كرج" وكانت عبارة عن مجموعة من الفرسان يقفون في مضمار ويوجهون طعناتهم لإسقاط هدف معين .

وقد وصفها جوته في "الأقصوصة" وظلت باقية لاتخلو منها المهرجانات وأسواق العبيد التي تقام كل عام، كذلك فإن إحدى ألعاب الفروسية الخاصة بالعرب المحبين للهو والتي كان يفضلها [الفرسان] الأندلسيون، انتشرت عام ١٥٦٠م من أحد قصور ڤيينا، وهو قصر الكونت موريتيس الهيسي، كلون محبب من ألوان اللعب والمسامرة، كانت تلك اللعبة تحمل طابع مصدرها الأصلي في اسمها نفسه: "اللعبة الأندلسية" أو "الابتكارات الموسيقية" حيث يتكون فريق الفرسان الذي يقوم بعرض موضوع أو قضية "جحود العذارى" ويدافع عنها، ويتكون فريق آخر هو فريق المغامرين الذي يدافع عن عكس تلك القضية حيث يسدد ضربات بالرماح، إلى أن يصدر حكم من قاضي التحكيم .

وقد أدى التراث الأندلسي الذي بقي في أشعار وموشحات العرب الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي إلى ظهور نوع جديد من الأدب هو "الرواية الحديثة" ولذلك فليس عجيباً أن يؤدي اتحاد إسبانيا وألمانيا تحت راية كارل الخامس إلى زيادةتَقَبّل الألمان للحضارة الإسبانية التي كانت تتمتع بقوة جذب خاصة بصفتها العربية الواضحة وتفردها الشرقي .

وكان مهرجان اجتماع مجلس الرايخ في ١٥ يونية ١٥٣٠م واحداً من أعظم مهرجانات ذلك العصر، فقد سار فيه موكب القيصر على نحو رائع يخلب الألباب، وكان في الوقت نفسه استعراضاً لفنون إسبانيا التي غرس العرب بذورها وجعلوها فتنة للناظرين، ولم تكن دهشة الناس قاصرة على ما يمثل

السلطة القيصرية القاهرة وحدها ، ولكنها كانت تشكل كذلك كل ما هو أندلسي أو إسباني أو أجنبي في كل ما جاء به هذا القيصر إلى ألمانيا . وبدأت المسيرة باثنين من العبيد يحملان الرايات وعدد من أتباع وحاشيته ، يتبعهم عدة مئات من فرسان الأمراء والطبقات النبيلة والأوساط الرفيعة ، وجاء موكب القيصر نفسه وعلى رأسه ثلة من الفتيان النبلاء فوق ظهور الجياد العربية ، ثم رجال البلاط والمقربون من القيصر يرتدون الملابس القطنية ذات اللونين الأحمر والأصفر ، ويمتطون صهوة خمسمئة جواد زينت بأجلال مذهبة ، يتبعهم السفراء والملوك والأمراء ، وكبار رجال الكنيسة ، وكان الموسيقيون العرب يسيرون خلفهم ، يقرعون الطبول وينفخون في الأبواق . ثم ظهر القيصر نفسه فوق جواد عربي أبيض مرتدياً سترة عسكرية إسبانية مذهبة ، وقبعته من الساتان الإسباني ، تظله مظلة بغدادية من الحرير الدمشقي الأحمر وشيت بنسر الإمبراطورية .

كل هذه الأشياء ابتداءً من المظلة البغدادية والأقمشة الحريرية والساتان والمنسوجات والموسيقيين الذين يدقون الطبول وينفخون الأبواق ، كلها جاءت من الشرق ومنها ما ظل يحمل اسمه العربي . . . إنها ميراث حضاري ونفحات من عصور مبكرة : عصور الفروسية والحروب الصليبية وازدهار القوطية .

تعود الروابط بين العرب والألمان إلى وقت بعيد وتتسم كلها بلا استثناء بطابع الصداقة حتى خلال تلك الفترات التي كانت بقية دول الغرب في أثنائها مشتبكة في صراع حياة أو موت ضد العرب .

جرى أول لقاء بين الطرفين في التاريخ القديم للشعبين قبل ١٢٠٠ عام على وجه التحديد، ولقد كان لقاء صداقة، فبينما كان شارلمان العظيم يشهد جلسة لمجلس أمراء إمبراطوريته في مدينة "بادربورن" ظهر أمامه وفد ذو مظهر غريب وشكل غير مألوف يضم رجالاً يرتدون ملابس لم ير مثلها من قبل، ذلك أن والي [سرقسطة] سليمان العربي، الذي طرده عبدالرحمن أمير قرطبة الأموي، أقبل مع أقارب والي قرطبة السابق يوسف الفكري وكان الأمير الجديد قد طرده هو الآخر من عرشه، جاء هؤلاء من إسبانيا فساروا أياماً عدة وتوغلوا داخل بلاد تدين بغير دينهم، لكي يطلبوا من ملك الفرنجة القوي وقاهر الساكسون، المساعدة المسلحة في مواجهة المغتصب البغيض .

ولكن كيف يطلب المسلمون المؤمنون أتباع محمد ﷺ من رجل مسيحي أن يساعدهم؟ إن ذلك ليعتبر في الحقيقة حدثاً خارقاً للمألوف .

ألم يكن هؤلاء هم الذين انطلقوا قبل ٥٥ عاماً وفي عام ٢٣٢ من إسبانيا المقهورة واجتاحو فرنسا كالإعصار الجارف يزرعون الموت والدمار بهذا تحدث المؤرخون منذ أجيال مضت وهكذا تعلمنا أيضاً في المدرسة . تعلمنا أن كارل مارتل تمكن عن طريق انتصاره الحاسم الذي حدد مصير أوروبا المتأرجحة بين

البقاء والاندثار، تمكن عن طريق انتصاره الذي حققه في معركة تور وبواتتيه من وضع نهاية الفتح العربي الذي استهدف السيطرة على القارة فقتل ٣٧٥٠٠٠ من العرب وفر الناجون تطاردهم فرسانه عبر جبال البرانس، وأنقذ مارتل حاضرة الغرب وتراثه "من سيطرتهم القاهرة" . على أن الفرنجة لم يلحظوا - بعد المعركة غير الحاسمة التي سقط فيها قائد الجيش العربي - أن عدوهم قد أخلى معسكره الحصين قبلهم في أثناء الليل، إلا في اليوم التالي، وهذا يؤكد الاعتقاد بأنهم غالوا في تقدير عدد الجنود بهدف رفع قيمة ذلك النصر، ومن ثم فإن الأمر لا يعدو كونه دعاية عسكرية من طرف واحد. وكانت مثل هذه الدعاية تتم في مواقع أخرى خلال العصر الوسيط في مواجهة أعداء الدين، وذلك خلافاً لما اعتقده المؤرخ البلجيكي هنري بيرين، بصدق أقول بأنه لم يحدث في موقعة "تور وبواتتيه" سوى الحيلولة دون حدوث عملية نهب أكبر" .

لم يكن كارل مارتل نفسه يؤمن بما قيل عنه أنه "منقذ الحضارة الغربية" كما أن ذلك لم يكن رأي من أتوا بعده ولا رأي الكنيسة التي - على العكس من ذلك- طردته من رحمتها .

وهكذا فإن ذلك الوصف يتنافى مع الحقيقة الواقعة؛ فبينما ظل التقدم الحضاري في أوروبا المسيحية يراوُح في مكانه طوال مئات السنين، أو متخلفاً في بعض المجالات المهمة، نجد أنه قد قامت حضارة مزدهرة على الجانب الآخر من جبال البرانس، بلغت في رقيها درجة لم تشهدها أوروبا حينذاك، وكذلك قامت مدنية متطورة وازدهرت مجالات الاقتصاد والزراعة والصناعة والعلوم والهندسة وفنون الشعر والموسيقى بصورة لم يكن لها مثيل في القارة الأوروبية، وظل المسيحيون واليهود يمارسون في ظلها شعائر دينهم في حرية لا تعرف القيود:

ما الذي يمكن الاحتفاظ به إذن من كل الحكم التي تعلمناها في المدارس.

حقيقة إن "دون أو يبدو" فون أكويتانيا قد تمكن من صد هجوم عربي على "غالة" عام ٧٢٠م ولكن العرب تمكنوا على الرغم من ذلك من الاستيلاء على "فاربون" ثم توقف زحفهم الجديد في عام ٧٢٢م بتلك الصورة المفاجئة على مشارف تور بواتتيه ولكن أحداً لم يطرد العرب في الحقيقة مطلقاً عبر جبال البرانس والمؤكد أنهم ظلوا يسيطرون بإحكام طوال مائة عام تقريباً على أجزاء من أكوتيانيا والبروفانس ومنطقة الألب الغربية، كما أن كارل مارتل حاصرهم فعلاً عدة مرات في مدينتي "نيم" و "ناوبون" الحصينتين، ولكن دون جدوى.

وكان العرب يخرجون كل عام من حصونهم المقامة على الحدود التي تسمى "الرباط" من أجل الجهاد وفتح البلاد غير المسلمة؛ ليبلغو دعوة الإسلام إلى أهل هذه البلاد؛ لأن ذلك فرض في الإسلام وضحه النبي ﷺ على الأمة الإسلامية، وهكذا ظل العرب يزحفون المرة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى "بوردو" و "أفينيون" بل إلى سيبتمانيا في اتجاه مصب نهر الرون، كذلك كانت المعارك مع العرب حدثاً يقع يومياً في جنوب فرنسا، على الرغم مما يدعيه كارل مارتل.

ولكن في عام ٧٧٨ م زحف كارل العظيم [شارلمان] متحالفاً مع بعض الأمراء العرب عبر جنوب فرنسا وجبال البرانس واستولى على كل الأراضي التي مر بها حتى بلغ نهر الأبرو.

وكانت سرقسطة وحدها هي التي تصدت بعناء لواليها السابق وقاومت ملك الفرنجة، وفي أثناء حصار سرقسطة الذي طال أمده، جاء نبأ يقول إن فشل شارلمان قد شجع الساكسون في بلاده على التمرد من جديد فتحركوا حتى وصلوا

إلى نهر الراين، وهنا اضطر الملك شارلمان إلى فك الحصار عن سرقسطة والتخلي من جديد عن ضفتي "الأبرو" وأسرع بالانسحاب. وحدثت في أثناء ذلك حادثة ظلت ذكراها عالقة في أذهان من جاؤوا بعد ذلك أكثر مما علقت بأذهانهم ذكرى أحداث تلك الحملة الحربية.

ذلك أن سكان الجبال من قبائل الباسك المسيحيين [الفاسكون] نزلوا إلى وادي البرانس الضيق الذي تكسوه الغابات في "رونسفال" لينتقموا من الفرنجة الذين دمروا عاصمتهم "بامبلونا" ونهبوها، فهاجموا مؤخرة الجيش التي تضم المؤن والمعدات الثقيلة، والتي كان يقودها الكونت البريتاني روتلاند، وتمكنوا من القضاء على مؤخرة الجيش واستولوا على الكنوز التي كان الفرنجة قد غنموها. وسرعان ما نشأت أسطورة من أجل تخليد الصورة البطولية لرجال القيصر. تقول أن روتلاند عندما أيقن بالهلاك نفخ بقوة هائلة في بوق العاج "أوليفانت" فتفجرت شرايين رقبته ووصل الصوت عبر ثمانية أميال إلى آذان الملك الذي كان يتقدم الجيش، ولا شك أن ذلك البوق الشهير "أوليفانت" لم يكن آلة النفخ المعروفة لدى الفرنجة المصنوعة من قرون البقر وغيرها من الحيوانات وإنما كان من قبل مجوفاً جلبه العرب معهم من إفريقيا إلى إسبانيا على سبيل التذكار أو هدية من الخلفاء العرب وقد استخدموه للتحذير.

وبعد ثلاثة عشر عاماً خرج من آخن بعض الدبلوماسيين بتكليف من شارلمان – القيصر الذي قد توج لتوه في روما – متجهين في مهمة سرية إلى بلاط أحد الملوك العرب في شمال إفريقيا. كان الخليفة هارون الرشيد المتربع في بغداد على عرش الخلافة الإسلامية الممتدة من نهر جيحون حتى المحيط الأطلنطي، وقد كافأ الوالي إبراهيم بن غالب بعد أن تمكن في عام ٨٠٠م من إخماد تمرد قام في إفريقيا

[حالياً: تونس والجزائر] وأعاد النظام إليها. فجعل الولاية له ولأولاده من بعده مقابل جزية سنوية. استقبل ابن غالب القادمين من الشمال في مقر حكمه الذي أنشأه حديثاً في العباسة التي تبعد عدة كيلو مترات جنوب العاصمة، القيروان، وعلم منهم أنهم قدموا للمطالبة رسمياً بالمخلفات المقدسة للقديس الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجة، كان هذا هو التبرير الرسمي ولكن رسل شارلمان أرادوا أن يبحثوا تحت ستار هذا التبرير مع والي إفريقية الجديد إمكانية التعاون السياسي لمواجهة إمارة قرطبة.

كان العرب يتعرضون باستمرار للطرد من أكويتانيا وسبتمانيا وكانوا يعاودون الكرة، حيث حققوا فيهما نصراً على الفرنجة عام ٧٩٣ م واستعادوا هذه المناطق الإسبانية، وهنا أصبح على الابن الرابع للقيصر أن يضطلع بمهمة هيأته لها الظروف التي أحاطت بمولده، ذلك أن زوجة شارلمان الثالثة، هيلديجارد، كانت قد استقرت على سفح جبل البرانس، عندما كانت ترافق زوجها خلال حملته الإسبانية وهناك وضعت ابنها، "لودڤيج" وقد ظل الشاب "لودڤيج التقي"، يقود لسنوات طويلة من أكويتانيا الحرب لصد الهجمات العربية القادمة من القلاع، وواصل الحرب من أجل الإمارة الواقعة على الحدود الإسبانية حتى تمكن من ضمها إلى بلاد الفرنجة، وعقد صلحاً سلمياً مع ابن عبدالرحمن أمير قرطبة، وكان ذلك سبباً في أن تصبح تلك الإمارة التي تقع بين عالمين: الشرق والغرب، مفتوحة الأبواب أمام التأثيرات العربية السائدة مع الشعوب التي تعيش مع بعضها.

ولكن الموجات العربية المتفرقة ظلت تتدفق من ذلك العالم الغريب والمدهش حتى بلغت أواسط المملكة، وقدّم اليهودي "إيزاك" فيلاً أبيض يدعى أبو العباس إلى ملك الفرنجة تعبيراً عن رضاء الخليفة العظيم هارون الرشيد، وقد تم نقله عبر

البحار وجبال الألب حتى "آخن" وظل لمدة ثماني سنوات بعد هذا التاريخ يثير دهشة الفرنجة حتى مات في ليبيهام، وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه الهدايا أو الرسل التي بعث بها الخليفة إلى أحد ملوك الفرنجة، إلا أنه ما من شك في أن ما جاء من دول المشرق العجيبة من هدايا تخلب اللب، كان يعد بالنسبة إلى المؤرخ الإفرنجي البسيط الذي ذكر هذه القصة شيئاً بالغ الأهمية، أما المؤرخ العربي الذي كان يعمل في بلاط الخليفة ذلك البلاط الذي يموج بكافة الأجناس والاتجاهات وتتدفق عليه الأخبار من كافة أرجاء المعمورة، فلم يكن يهتم لمثل هذا الحدث العادي، وكتب المؤرخ الإفرنجي يقول: «إن صلات شارلمان مع الملك[1] هارون ملك فارس الذي كان يسيطر على الشرق كله عدا الهند، كانت صلات ودية للغاية إلى حد أنه أسبغ على شارلمان من دون كافة ملوك الأرض وأصحاب السلطان، نعمة صداقته ورأى أنه أحق بالتكريم والهدايا، كذلك فإن شارلمان أرسل الهدايا مع رسله إلى القبر المقدّس وإلى حيث صعد «ربنا ومخلصنا»[2] وحين وقف الرسل أمام هارون لكي يبلغوه تحيات ملكهم فإنه شكرهم كثيراً، ومنح شارلمان حق السيادة على تلك الأماكن المقدسة المباركة.

وأرسل هارون مع المبعوثين العائدين رسلاً يمثلونه وبعث معهم بمفاتيح قبر المسيح والجلجلة تعبيراً عن حمايته للأماكن المقدسة، وكان الوفد يتكون من رجل عربي اسمه عبدالله يرافقه راهبان ألمانيان أرسلهما رئيس الدير الواقع فوق جبل الزيتون، وقام عبدالله بتسليم الإمبراطور - الذي توج في هذه الأثناء ملكاً على الغرب- عدداً من الأشياء العجيبة: سرادق وعدد من السجاجيد الملونة التي آثارت زخارفها وروعتها وجمالها الإعجاب والدهشة».

---

(١) لم يكن هارون ملكًا إنما خليفة المسلمين الذي يحكمهم في الشرق.

(٢) هذه العبارة لا تتفق وعقيدتنا الإسلامية ويمكن أن يستعاض عنها بالأماكن المقدسة.

هذا ما ذكره المؤرخ أينهارت الذي أضاف يقول: إن الهدايا كانت تضم أيضاً أقمشة من الحرير وعطوراً وزيتوناً وبلسماً، ومصباحين من النحاس الأصفر، يثيران الدهشة بعظمتهما وروعة شكليهما. وكان من بين الهدايا آلة عجيبة لم ير أحد في الغرب مثلها من قبل أثارت دهشة لا حد لها كانت تلك الآلة العجيبة ساعة. ويمكننا حتى اليوم أن نستشعر مدى الأثر الرائع الذي أحدثته هذه الساعة عندما نقرأ التقرير الذي وصف فيه أينهارت تلك الآلة المفعمة بالمعاني "كانت ساعة من النحاس الأصفر، أو بالأحرى قطعة فنية بالغة الروعة، ساعة مائية تقيس اثنتي عشرة ساعة فإذا اكتملت الساعة سقطت كرتان صغيرتان على صنج معدني مثبت تحتهما وأحدثتا رنيناً، وخرج عدد من الفرسان مساو للساعة التي دقت من اثني عشر باباً يقفزون قفزة قوية تغلق الأبواب المفتوحة. وكانت الساعة تجمع من العجائب الأخرى الشيء الكثير الذي يضيق المجال عن وصفه كله.

وهنا شعر الغرب المسيحي لأول مرة أن هناك عالماً آخر غير عالمه الخاص به من الكنوز والفنون ما لا يخطر له على بال، ولذلك فإذا حدث أن التقى الغرب بتلك الدول التي على غير دينه أو إذا خفت حدة القيود العازلة بصورة تسمح بإلقاء نظرة على تلك البلاد متجاوزة حدود النظام الجاف الصارم المألوف، كانت العين تنبهر لأنها تبصر المزيد من المفاجآت والأشياء الجديدة المثيرة للدهشة، تماماً كما حدثت الأخت روزيتا راهبة «جاند رسهايم».

الصداقة المؤجلة بين والي قرطبة والإمبراطور أوتو الأول

قاد الأمير عبدالرحمن الثالث أمير قرطبة الذي يعتبر أهم وأقوى حكام الأندلس، «إسبانيا العربية» على مدى خمسين عاماً حيث حكمها حكم رجل الدولة الحقيقي؛ لأنه حقق أكبر قدر من الانتشار والازدهار الثقافي في أوقات السلم، كما حقق ازدهاراً اقتصادياً جعل البلاد تتبوأ مركز الريادة في العالم المتحضر، واتخذ عبدالرحمن لنفسه لقب "الخليفة" وأرسل خطاباً إلى حاكم ألمانيا العظيم " الذي انتصر على المجر، أوتو الأول ولكن هذه الرسالة التي قصد بها أن تعبر عن الصداقة أثارت في بادئ الأمر غضباً واضطراباً عظيمين من غير قصد.

وكان لا بد أن يستمر نهر الوادي الكبير في التدفق طويلاً قبل أن تصفو السماء التي كدرها ذلك الغضب، لتشرق من جديد بالصداقة والحبور على الجميع. وكان السبب في تلك الفجوة عبارة عادية تماماً جرى بها قلم صاحب الرسالة بصورة طبيعية، فدعا من أرسل إليه الخطاب إلى شكر الله الواحد والإيمان به – ذلك هو المعنى الذي لا بد أن يترجم بصورة سليمة– ولكن مثل تلك الدعوة كانت بالنسبة إلى أوتو العظيم سبباً كافياً لترك الرسل العرب تنتظره ثلاث سنوات قبل أن يسمح باستقبالهم.

وأرسل أوتو من جانبه راهبين يتسمان بالشجاعة، هما يوهانس فون جورتز وجارامانوس إلى قرطبة يحملان رسالة تكاد تعتبر –حتى لو تساهلنا في تفسير مضمونها– بمثابة إهانة لنبي الإسلام، فلما عرف الخليفة بمضمون الرسالة السيئ،

أمر بمعاملة الرسل أحسن معاملة وإبلاغهم أنه لن يستقبلهم قبل تسع سنوات، وهكذا أصبح لزاماً عليهم أن يتخلوا عن تسليم الخطاب الذي كان يمكن أن يخلق وضعاً خطيراً. إلا أن يوهانس فون جورتز رفض ذلك، وأصر على الرغم من المحاولات المتكررة من جانب أسقف قرطبة المسيحي لإقناعه بأن عدم تخليه عن موقفه سوف يجلب غضب الخليفة على المسيحيين في قرطبة. وهنا استقر الرأي على إرسال أحد رجال البلاط المسيحيين وهو الأسقف "ريكموندوس" إلى ملك ألمانيا لتقديم رسالة جديدة إليه، وبعد مرور عامين كاملين على وصول يوهانس المتشبث بموقفه إلى البلاد. وصل إلى قرطبة في يونيه/ حزيران ٩٥٩م مبعوث جديد من قبل الملك أوتو برفقة الأسقف ريكموندوس ومعه عرض بعقد اتفاق سلام وصداقة. وطلب أمير المؤمنين في البداية أن يستقبل أولاً الراهب الشجاع الذي استطاع التمسك بموقفه بمثل هذه الجرأة، قبل أن يستقبل من جاؤوا يعرضون الصداقة، واصطحب يوهانس وجرامانوس إلى قصر الصخرة المنيف الذي يخلب الألباب -وكان على بعد خمسة كيلو مترات شرقي قرطبة - فسارا خلال صفوف لا تنتهي من الردهات الجميلة المزدانة بأبهة تفوق الخيال وزخارف من الذهب الخالص والمرمر والبللور والخشب المحفور وسن الفيل والجواهر الحقيقية تتخللها المياه، وتبرد جوها النافورات. ثم استقبله الخليفة وأكد له أنه قد أسبغ عليه عطفه البالغ وأعطاه يده ليقبلها حسب التقاليد العربية. وخلال حديثهما شعر الخليفة بالإعجاب تجاه الراهب الألماني فدعاه لزيارته وزادت الصلة توثيقاً بين الرجلين.

أمضى الرسولان الملكيان في «مدينة المدائن» هذه أكثر من عامين. كانت المدينة تعد أكبر المدن وأكثرها جمالاً بين كل مدن أوروبا، وتمتد بطول شاطئ نهر الوادي

الكبير ولها ٢٨ ضاحية ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة يعيشون في ١١٣٠٠٠ منزل ماعدا مساكن الوزراء والموظفين، وكانت قرطبة تضم ستمئة مسجد، وثلاثمئة حمام ساخن، وثمانين مدرسة عامة، وسبعة عشر معهداً دراسياً، بجانب المدارس العليا الأخرى التي يدرس بها في القرن التاسع طلاب الطب والرياضة، ونحو ٤٠٠٠ طالب من دارسي الفقه. كذلك كانت قرطبة تزخر بعشرين مكتبة عامة مفتوحة أمام طبقات الشعب كله ولم تكن أية مدينة في ألمانيا أو غيرها من بلاد أوروبا تضم على أكثر تقدير سوى بضعة آلاف من الناس، كما لم يكن بها مستشفيات أو مدارس، وبالطبع لم تكن بها مكتبات أو حمامات عامة، بل لقد وصل الأمر إلى حد أن الكتب التي كانت بالأديرة كانت لندرتها تثبت بالسلاسل، وبينما كانت شوارع المدن الواقعة شمال البرانس غير مرصوفة تغطيها أكوام القاذورات والأوحال، فإن الراهبين الألمانيين كانا يسيران هنا في قرطبة على طرق مرصوفة نظيفة، وتقوم على نظافتها عربات تجرها الثيران، بل إنها كانت تضاء ليلاً بواسطة مصابيح مثبتة على جدران المنازل.

وأبدى الألمانيان إعجابهما بتلك الثقافة العالمية التي شاهدا ملامحها في كل مكان، وبالتسامح الذي يبديه الخليفة والتاجر والصانع البسيط، وبقلوبهم الكبيرة وكانت المفاجأة التي أخذت بمجامع قلوبهما هي تلك الحرية التي يتمتع بها المسيحيون هنا في أداء شعائر دينهم، بل لقد كان في وسعهم أن يتقلدوا أعلى مناصب الدولة، كذلك كان الراهبان يبدوان أثناء جولاتهما أشبه بمن خلبت لبه تلك الدقة المتناهية التي تتسم بها أعمال الزخارف العربية المشغولة، ورسومات الجدران الجميلة، وأعمال النحت الرائعة، والسجاجيد الزاهية المشرقة التي تبعث الحياة في الردهات والأبهاء المحمولة على ٤٣٠٠ عمود منحن، والنافورات التي

تعد بمثابة أعمال فنية ممتازة يضمها قصر الخليفة، ولذلك كان من اليسير عليهما أن يصدقا معاصريهما الذين أسموه "أكثر الأبنية التي عرفها العالم العربي إشراقاً وبهاء" ، بل أعظم الأعمال التي صنعتها يد الإنسان على الإطلاق، ويمكن أن نلخص كلامنا فنقول: إنهما قد تنسما عبير ذلك الجو الذي يكتنفه أرق الأحاسيس، الجو الروحي القريب من الحواس، الجو الذي يخلب تلك الحواس يرضي الروح ويشبعها في وقت واحد.

وكان على "يوهانس فون جورتز" أن ينقل لمليكه إعجابه ودهشته بما وجده هناك: لقد وجد أفضل قوة حربية مجهزة ومنظمة في العالم.

إن هذه الصورة الرائعة التي عاد بها إلى وطنه واحد ممن انتشى بخمر ذلك العالم الغريب الذي لا يدين بالمسيحية، قد انعكست على قصيدة المديح التي صاغتها الراهبة «روسفيتا فون جاندرسهايم" باللغة اللاتينية وبإحساس دافق في بلاط القيصر، وهي تشدو بعبارة تمتلىء حماساً بقرطبة البعيدة:

درة الدنيـــــا الناصعـة

المدينة الفتية الرائعة

فخورةٌ بمنَعتها

شهيرةٌ بمباهجها

مشرقة فيما تحوز عليه من كل الأشياء

الباب الثاني
الفروسية العربية والفروسية الألمانية

- الحدود العدائية تصبح ساحة اتصال.
- الفروسية العربية.
- من هو الفارس الألماني.
- الكنيسة تتعلم في مدرسة الإسلام العربية.
- روابط الفرسان محاكاة للفروسية الإسلامية.

لم يكن ذلك الاندفاع الحماسي نحو عدو الدين في مصلحة الكنيسة الرومانية مطلقاً، فقد أدركت الخطر الذي يهدد وجودها، بل وتأثيرها على شعب فشلت حتى ذلك الحين في التغلغل بعمق في نفسه، وكان ذلك الخوف يرجع إلى قوة الجذب التي يتمتع بها الإسلام، ذلك المنافس الخطير الذي انتشر بصورة مثيرة للفزع، ولقد كانت هناك أسباب عديدة دفعت الكنيسة إلى أن تسدل ستاراً حديدياً بين الشرق والغرب، منها القلق إزاء تلك التأثيرات المستمرة غير المباشرة للعرب وإزاء قوة الجذب التي يتمتع بها دينهم - الذي اعتنقه طواعية وبأعداد كبيرة من فتح الإسلام بلادهم - بالإضافة إلى حيرتها إزاء ذلك التعلق الشديد من جانب المسلمين بدينهم واستعدادهم لبذل أنفسهم رخيصة في سبيله، وليس آخراً فإن الكنيسة كانت تخشى من تقاليد العدو المحيرة وثرواته الضخمة وإنجازاته العديدة التي يمكن أن تحدث تأثيراً خطيراً، ولذلك فإن الحجاج واليهود كانوا هم الذين تمكنوا من التسلل عبر تلك الحجب الكثيفة التي أسدلت طوال مئات السنين.

ولم يقتصر الأمر عند حد تلك العزلة المكانية، فقد أسدلت الكنيسة أيضاً ستاراً فكرياً على عقول مواطني الغرب، لأنها كانت تعتبر أن المسيحي وحده هو الإنسان الذي يتمتع بكافة الحقوق الإنسانية، وهو من اختارته العناية الإلهية، مما دفع المسيحيين إلى أن يعتبروا من ليس من دينهم سواء كان كافراً أو مسلماً - إنساناً غير سوي لا ينتمي إلى الجماعة الإنسانية وليست له حقوقها، وبالتالي من حقهم أن يعاملوه بصورة مختلفة عن معاملة المسيحي وأن يشهروا السلاح في

وجهه ويهاجموه ويقتلوه ببساطة - كما قيل من قبل - في حين أن الشيء نفسه يعتبر خطيئة لو ارتكب في حق المسيحي، وهكذا نجد أن تلك التفرقة الدينية تفرق بين من هو إنسان ومن هو غير إنسان تماماً كما تنفصل الحياة عن الموت، والسلام الدائم عن اللعنة الأبدية وتأكيداً لذلك تنشد المسيحية في قصيدة " المسيح الكاذب " :

هذا الدين يهب الناس الحياة

ويغفر ذنوب الموتى

فمن دان بدين غيره

خسر الخلاص أبداً

وينطبق التمييز بين " دولة الرب " ودولة الشيطان، ذلك التمييز الحاد الذي يوجهه أوجستين ضد القيصر الألماني أيضاً، ينطبق أحياناً على كل الملحدين ودول الملحدين، وكانت كتابة التاريخ والتقارير وفنون الكتابة عموماً هي مسؤولية رجال الدين، لذلك فإنهم عملوا على تصوير أعدائهم في صورة شياطين وعبدة شياطين، وكان تشويه الحقائق على هذه الصورة التي بلغت حد الدعاية الظالمة كفيلاً بأن يجعل الناس تصدق ما يلصق بعدوهم من سوء وباستحقاقه للعقاب.

ولم تكن الكنيسة تعتبر الملحدين هم الأعداء الألداء لها، لأن أعداءها هم " من يعتنقون ديناً غير دينها " لأن هؤلاء هم الذين يمكن أن يمثلوا خطراً عليها، ولقد كان ذلك الخوف هو الذي دفع الكنيسة إلى تصوير محمد ﷺ على أنه المسيح الدجال أو أحد الهراطقة والصنم الذي تقدم له الأضاحي البشرية.

كان ذلك الخوف هو الذي استغلته الكنيسة من أجل تأكيد تلك العزلة وإثارة

الكراهية الدينية والتعصب، الأمر الذي مهد المناخ للحروب الصليبية أياً كانت الأهداف الحقيقية لتلك الحروب، وكانت الصيحة الصليبية التي أطلقها البابا أوريانس الثاني من دير كلبر مونت عام ١٠٩٥م - بصياغة عصرية لعدم توافر الأصلية - لإثارة حماس النبلاء الفرنسيين تدعوهم قائلة : "عليكم يا رُسل المسيح أن تطردوا تلك الفئة الملحدة من أرض إخوانكم لأنه من العار علينا أن تنتصر تلك الفئة الكافرة التي تستحق كل احتقار والتي تفتقر إلى الكرامة الإنسانية وانزلقت لتصبح من عبيد الشيطان، من العار أن تنتصر على شعب الله المختار" .

وكانت إثارة المشاعر الدينية بالتحقير من شأن عدو الدين وسيلة وضعت بها الكنيسة حاجزاً خطيراً أمام التعصب الديني، وبالتالي كان ذلك سبباً في هزيمتها فلقد وقع ما كانت تريد الكنيسة الحيلولة دونه .

فلقد ساعدت الكنيسة نفسها - خلافاً لما كانت تريده - على فتح الأبواب التي حرصت على إغلاقها لكي تتدفق مظاهر التفوق الثقافي والفكري من الشرق نحو الغرب، وقد حدث ذلك بسبب دعوتها إلى الحرب المقدسة من أجل تحرير الأراضي المقدسة، في حين أن تلك الحرب كانت تهدف في الأصل إلى خدمة مصالح مختلفة تماماً، واستطاع الشرق العربي الانتقام لنفسه من ذلك الهجوم الشامل من جانب المسيحية الغربية التي أرادت إفناءه تماماً فقد انتصر هو عليها بإنجازاته الثقافية والحضارية وجعل حياتها أكثر ثراء وأحدث تغييراً جذرياً في إحساس الغربي بالحياة في كل مناحيها .

وكان مجرد التوسع الإسلامي وسيطرة العرب على البحر المتوسط ومجرد وجودهم كافياً للتأثير على أقدار الغرب، وكانت تلك التأثيرات بالطبع غير مباشرة، إذا استثنينا ما سببته الهجمات الخاطفة على الحدود والسواحل التي

كانت أشبه بوخزات الإبر، وكان من نتيجة ذلك انتقال مركز الثقل في السياسة العالمية حينذاك بالنسبة إلى الغرب من البحر المتوسط حتى المنطقة الواقعة حول الراين والسين، ونشأ عن ذلك في الوقت نفسه نوع من العزلة سببت بدورها تغييرات سياسية - ثقافية واقتصادية بعيدة الأثر إذا أمعنا النظر فيها ملياً سنجد أنها كانت بمنزلة تخلف بيّن. وقد ساعدت محاولات العزل الكنسية تلك في مواجهة القوة الجديدة الظافرة وهيبتها الموقورة الهائلة، ساعدت على زيادة حدة الذاتية لأوروبا، وكان تفاقم تلك العزلة متفقاً مع نجاح الكنيسة في إثارة التعصب الديني والعقدي ضد من كانت تسميهم "بالكفار" وبشكل منهجي لهذا الغرض، وعلى الرغم من أن ما نورده الآن قد يبدو متناقضاً، إلا أن الذي حدث فعلاً أن ذلك التأثير غير المباشر قد بدأ يتغير الآن بسبب تلك العزلة الحادة ليتحول إلى تأثير مباشر وجهته الكنيسة نفسها نحو مجال بعينه، ذلك هو مجال الحرب والشؤون الحربية، وكل ما يتعلق بها، وبهذا غدت الحدود ساحة للالتقاء.

ولقد حدث ذلك أساساً على الجهة الإسبانية، ذلك أن اللقاءات المتكررة منذ بداية القرن الثامن في المعارك التي دارت بين الفرنجة وعرب الأندلس القادمين من أكويتانيا والبرفانس وغيرها، والاحتكاكات الدائمة بسبب منطقة الحدود المنتزعة من إمارة قرطبة لم تكن أكثر من مناوشات أولية في بداية مواجهة عدائية استمرت طيلة قرون بين الشرق والغرب، لم تتخللها هدنة إلا نادراً. كذلك كانت الممالك المسيحية التي تقهقرت إلى أقصى الشمال في المناطق الجبلية نتيجة لسيطرة العرب على شبه الجزيرة الأيبرية - وكانت تلك الممالك المسيحية متنافرة متعادية كثيرة التنازع فيما بينها ترى في إمارة قرطبة عدوها الطبيعي، حتى بعد أن تفككت هذه الإمارة إلى إمارات مبعثرة داخل الأندلس. وأياً كان الأمر فقد كانت تلك

اللقاءات تأخذ صورة المودة حين تخف حدة المواجهة العدائية بين الطرفين . كذلك كان تداخل الجبهات والمعسكرات بعضها مع بعض من الأمور المميزة لأوضاع شبه الجزيرة الأيبرية وللروح السائدة بين الخصوم خلال تلك القرون الأولى إلى حد أنه كان يمكن أن يحدث تحالف بين ملك مدينة ليون المسيحي وأحد الأمراء المسلمين ضد ملك "نافارا" ، وأن يطلب الوالي العربي الأندلسي الذي تمرد على الخليفة مساعدة عدوه الإسباني . ولقد كانت تلك الخلفية هي التي مهدت لخلق الشخصية النموذجية للفارس "رود ريجود ياس" الذي كان مسيحياً من شمال إسبانيا وعمل حيناً في خدمة إمارة "قشتالة" ، وعمل في أكثر الأحيان مع العرب الذين كرموه ولقبوه "بالسيد" وهو اللقب نفسه الذي اشتهر به بطلاً إسبانياً شهماً . كانت زمالة السلاح القوية قد مكنته من معرفة كلا الجانبين ، لذلك فقد كان يعامل خصومه جميعاً بشهامة ، مسلمين كانوا أم مسيحيين ، ذلك أن التناقضات الدينية لم تكن هي القاعدة السائدة حتى ذلك الحين ، إلى أن بدأت حرب استعادة إسبانيا من العرب تأخذ طابع الحرب الضروس ضد أعداء المسيحية .

وكان بديهياً أن يتعلم الخصوم من بعضهم نتيجة للمواجهات العدائية بينهم التي استمرت طوال ثمانية قرون ، فاقتبس بعضهم من بعض أفضل الأسلحة وأكثر الأساليب التكتيكية فعالية ، وأساليب الحصار ، التي تفي بالغرض أفضل من غيرها ، وتعلموا أن يتقنوا فوق ذلك أنماط السلوك والتنظيم والإدارة وأخلاقيات المقاتل المتفوق وأن يحدثوا فيما بينهم تواؤماً متزايداً . كان تفوق الجيوش العربية المدربة المتمرسة على القتال حتى بداية القرن الحادي عشر شيئاً واضحاً حين قام القائد العظيم "المنصور" بتوسيع حدود الخلافة حتى جبال البرانس ، فحرك اثنتين وخمسين حملة ظافرة ضد شمال إسبانيا ، أما الهجمات الناجحة

التي قام بها الجانب الإسباني فكانت قاصرة على الاستيلاء على مناطق تكاد تخلو من السكان وعلى الحصول على مكاسب عابرة ، ومن هنا كان بديهياً أن تتدفق تأثيرات مهمة في المجالات الحربية من الجانب العربي إلى شمال إسبانيا .

ولقد شملت تلك التأثيرات أيضاً دول أوروبا ، ولم تقتصر على شمال إسبانيا ، وكان المحاربون من الفرنجة يتدخلون دائماً إلى جانب جيوش شمال إسبانيا في المعارك التي تدور ضد العرب منذ أيام كارل مارتل وشارلمان الذي تحالف هو الآخر مع بعض العرب ضد بعضهم الآخر ، ومنذ أيام لودفيج التقي الذي تعاون أحياناً مع الباسك والأستوريين المسيحيين منطلقاً من أكويتانيا وكان الفرسان من كافة الدول الأوروبية ، ومن فرنسا وحدها يشتركون تدريجياً في الحملات العسكرية ضد عرب الأندلس جنوبي جبال البرانس ، تلك الحملات التي بدأت منذ أعوام ١٠٠٣ ، ١٠١٧ ، ١٠٣٣ تأخذ طابع الحروب المسيحية الدينية ، وأعلنت بالفعل كحروب صليبية منذ المعركة التي دارت حول " حصن باربشتر " عام ١٠٦٤ ، كما أن بعض تلك الحملات كانت تُدار بإشراف بابوي .

وتكرر الشيء نفسه في صقلية وجنوب إيطاليا حيث أقام العرب من عام ٨٢٧م إلى عام ١٠٦١م دولة مزدهرة ثقافياً واقتصادياً ، ومن ثم نشأت جبهة جديدة بين الشرق والغرب ، وحدث بالتالي اتصال وثيق تخلله اختلاط الجبهات وتداخل التحالفات بين المسيحيين والمسلمين في بعض الأحيان ، وظل الحال على هذا المنوال حتى بداية القرن الحادي عشر خلال أعوام ١٠٠٣م ، ١٠٠٥م ، ١٠١١م ، ١٠١٥م ، ١٠١٦م - حيث أدت المعارك الدينية المتكررة إلى تفاقم الوضع ، ثم تحولت المواجهة القتالية إلى محاولة للتلاؤم وأصبح المنتصر - عن قصد أو غير قصد - مثالاً يحتذى . ثم لم يكن مصير الناس المتأرجح بين الحياة والموت معلقاً

بتحقيق المساواة مع الخصم، بل والتفوق عليه؟ وكان النورمان وهم أصحاب خبرة في ركوب البر والبحر ومهارة في القتال اكتسبوها من حروبهم مع العرب في إسبانيا وإيطاليا ومع غيرهم، كانوا هم الذين مدوا جبهة القتال حتى الشرق قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بمائة عام. وأياً كان الأمر فإننا نجد أن الاحتكاك - العدائي المستمر مع العرب كانت له آثاره على الفروسية؛ فلقد تحول الفارس الجرماني ليصبح من فرسان العصور الوسطى، في حين أن الفروسية العربية بوصفها فكرة وقدوة كانت أقدم بكثير من الفروسية المسيحية - الأوروبية، ذلك أن الفروسية العربية كانت تعود إلى عصر ما قبل الإسلام.

حددّ شظفُ الصحراء العربية وأخطارها الدائمة صورة لما يجب أن يكون عليه المحارب في جنباتها، شجاعاً في القتال صلباً في وفائه لنداء الثأر، كريماً إلى حد التضحية بالنفس، سخياً مع الضيف الغريب ولو كان هذا الغريب عدواً له.

كان المحارب في الصحراء ينكر ذاته ويضع نفسه رهن عشيرته وقبيلته، ويرعى رفاقه ويبرهن على علو الشيمة في مواجهة الخصم إلى حد الاعتراف به وبقدره، وترسم قصائد البطولة العربية التي ترجع إلى العصر الجاهلي القديم صورة ذلك البطل الشهم بخطوط بارزة مثل الشاعر والفارس الشاب تأبط شراً الذي كان يحمل أيضاً لقب "الشعل" ونراه هنا يطلب ثأر شقيقه:

شامس في القر حتى إذا ما ... ذكت الشعرى فبرد وظلٌّ
يابس الجنبين من غير بوس ... وندى الكفين شهم مُدلٌّ
ظاعن بالحزم حتى إذا ما ... حل حل الحزم حيث يَحُلّْ
غيث مزن غامر حين يجدي ... وإذا يسطو فليث أبَلُّ
يركب الهول وحيداً ولا يصحبه إلا اليماني الأفَلُّ
وفُتُوٍّ هَجَّرُوا ثم أسْرَوْا ... ليلهم حتى إذا انجاب حَلُّوا
كل ماضٍ قد تردى بماض ... كسنا البرق إذا ما يُسَلُّ
فادَّركنا الثأر منهم ولما ... ينج مِلْحَيَّيْ إلا الأقَلُّ[1]

(١) انظر شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (١-٤) نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون- القسم الثاني، الطبعة الأولى - القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١هـ - ١٩٥١م ص ٨٣٠.

تعبر الأبيات عن روح مفعمة بالفروسية تسكن صدر المحارب الذي صقلته الحروب سواء كان مقضياً عليه بالهلاك أو الفوز، إنه يعترف بفضائل عدوه ويمدحها معبراً بذلك عن مثل أعلى للروح النضالية النبيلة. وهذا هو أبو المثلم يرثي خصمه المقهور صخر الغي:

لو كان للدهر مال عند متلـده لكان للدهر صخـر مال قنيان

آبل الهضيمة ناب بالعظيمة متـ لاف الكريمة لا سقط ولا وانى

وهذا النمط العربي القديم لفارس الصحراء الشهم هو ما يطلق عليه اصطلاح " الفتى " الذي بلغت فيه الملامح الأساسية المثالية للعروبة منتهاها. ولم يتبدد هذا النمط بعد ظهور الإسلام، كما حدث لنمط المحارب الجرماني مع ظهور المسيحية بل ظل باقياً في إطار الدين الذي بشر به النبي ﷺ وأحدث تغييراً وتحولاً أساسياً في حياة المؤمنين كلها. وإذا كان "الفتى" في الماضي يقتحم الأهوال بلا تحفظ، بل ويضحي بحياته ذاتها إذا اقتضى الأمر ذلك في سبيل الضيف، صديقاً كان أم عدواً بمجرد أن تطأ قدمه أرض العشيرة، ويعتبر ذلك أمراً طبيعياً لا تحفظ عليه، كما يفعل تماماً مع ذوي قربته فإن التزام العشيرة أو القبيلة بتقديم العون، وبسط الحماية أصبح يتسع في ظل الإسلام ليشمل "جماعة المؤمنين كلهم" "الأمة" التي عهد إلى المقاتلين بمهمة حمايتها، وهكذا ظل الفرسان المحاربون على عهدهم لا يكلون ولا يملون، وكان الولاة يقطعون عليهم الأراضي مستندين في ذلك إلى نظام الإقطاع الفارسي - الساساني.

وأصبح المفتي -المثل الأعلى عموماً هو القدوة التي تحذو حذوها الجماعات الإسلامية. وقد ذكر رجل عربي من أهل ألمرية أنه لم يكن هناك في إسبانيا العربية مقاتلون سوى من يقاتلون في سبيل الله، أو سوى من يختارون الشهادة مرضاة

لله، كذلك تكونت جماعات تضم الشباب ازدهرت في القرن التاسع في مدن العراق بشكل خاص، وعلى الرغم من أن جماعات الفتيان هذه كانت تشبه في بادئ الأمر منتديات الإقطاعيين الراقية في فرنسا للطبقة الأرستقراطية، والتي يستمتع فيها أصحابها بأطايب الطعام والشراب ويمارسون ألعاب الفروسية وغيرها، إلا أنها خرجت في القرن العاشر عن ذلك الأسلوب المنعم في الحياة وقامت بإعادة تنظيم نفسها آخذة بالمبادئ الدينية للصوفية.

كما أن الارتباط بأنموذج الفتى القديم أدى إلى ظهور أنموذج "الفتوة" بشكل واضح، ذلك الذي يعتبر بمنزلة دستور للأخلاق الأرستقراطية[١] التي تدعو إلى التمسك بالشجاعة والتحلي بالكرم والعفو والصفات الإنسانية عموماً التي تشمل خدمة الجماعة وفق التعاليم "الاشتراكية الإسلامية[٢]" ذات الطبيعة الخاصة وكما جاءت في القرآن والتي تنادي بأن يساعد كل إنسان أخاه، كما تشمل الواجبات التي تمليها التقاليد.

وبعد أن قام الخليفة الناصر في القرن الثاني عشر بإعادة تشكيل جماعات الفتوة، أخذت هذه الجماعات تؤدي دوراً أساسياً في الدولة، فقد قامت على مسؤوليتها الخاصة بمحاربة الظواهر الخطيرة في البلاد مثل: محاربة الإرهاب الذي كانت تمارسه جماعات "الحشاشين" المتطرفة التي يقال عنها إنها كانت تمارس القتل مدفوعة بالتخيلات الناشئة عن تدخين الحشيش، وجماعات الحراس الشخصيين من العبيد الذين زادت قوتهم وتجاوزت الحدود كما كان الخلفاء والأمراء أنفسهم يرتدون زي رجال الفتوة ويعتمدون على جماعاتهم في دعم

(١) المراد الاخلاق العالية.

(٢) ليس هناك تعاليم اشتراكية إسلامية فهذا التعبير جانبه الصواب وإنما يوجد نظام التكافل في الإسلام.

نفوذهم، مما أدى في الوقت نفسه إلى تأكيد أخلاقيات تلك الجماعات، والرفع من شأنها لأنها كانت تصدر عنها غالباً بعض التجاوزات في استغلال السلطة. وانتقلت صورة "الفتى" إلى "المرابطين" تلك الجماعات من الفرسان التي برزت في كل المجالات بعد الفتوحات، وقد اشتق اسمهم من كلمة "يرابط" التي كانت تطلق في الأصل على "تربيط" الخيول بواسطة فرقتين متحاربتين تقفان على أهبة الاستعداد للقتال، كذلك استخدمت الكلمة لتدل على "الخروج لمقاتلة الكفار من موقع ثابت"، ثم قصد بها أخيراً "القطعة الثابتة ذاتها وذلك في تعبير "الرباط"، وتعبير الرباط (في صيغة الجمع) يعني تلك القلاع العسكرية المقامة على الحدود التي كان يستخدمها المرابطون في القرنين السابع والثامن لحماية الحدود الواسعة للمملكة وما حولها، أو كانوا يقيمونها فوق قمم الجبال أو على الطرق المؤدية إلى الحدود، وتمكنوا عن طريقها من الدفاع عن "دار الإسلام" أي عن الدولة الإسلامية.

وكما كان الجمع بين البطولة الحربية والتقوى وفقاً للتصور الإسلامي الشامل لشؤون الدين والدنيا هو الذي تقوم عليه شخصية الفارس المسلم، محارباً وصاحب إقطاعية وعضواً في رابطة الفتوة، كذلك كانت هذه الوحدة بين الدين والدنيا هي الجوهر والمضمون الذي يستند إليه هؤلاء الفرسان داخل تلك القلاع الحربية المتاخمة للحدود، وهكذا كان هؤلاء المرابطون أو المتطوعون الصالحون الذين كرسوا أنفسهم مدى الحياة للخدمة العسكرية يجمعون في وقت واحد بين الالتزام بالجهاد لتوفير الحماية للأمة، «أمة المسلمين» والنضال في سبيل الإسلام ضد الكفار، وهو ما يعتبر أفضل واجبات الجماعة الإسلامية بالنسبة إلى المسلم، وبين العزلة المترهبة والقيام بالتدريبات الروحية، وكانت الرابطة بين هذين

الأسلوبين في الحياة وثيقة حقاً . كذلك كان دستور حياتهم ينص على التحلي بالشجاعة التي لا تهاب الموت وعدم الإحجام عن خوض القتال والعزم والتصميم والإصرار على الثبات في مواقعهم حتى الموت ، مع الاستعداد الفعلي للتعاون وبذل العناية بالمرضى ، كذلك جمع هذا الدستور بين صفات الطاعة وكبرياء البطولة ، بين الالتزام بالنظام والمساندة التي لا حد لها لرفيق الجماعة وبين التسامح والكرم في معاملة الناس . ألم تكن كل هذه الصفات في جوهرها هي التقاليد نفسها التي قامت عليها الفروسية العربية القديمة؟

وكان المرابطون يعيشون في قلاع حجرية عالية تحميها الأبراج ، ويضعون جيادهم دائماً على أهبة الاستعداد للهجوم السريع على أي مكان يأتيهم منه خطر اقتحام أراضيهم ، أو مداهمتها من قبل قوات ما ، كما كانوا ينطلقون منها للقتال في سبيل الله ، وكانوا على درجة عالية من التنظيم ، وكانوا بجانب جهادهم في سبيل الدين يقومون بواجبات أخرى - مثل العناية بالمرضى وإيواء حجاج مكة العابرين والاهتمام بالتدريبات الروحية ، وعندما يتقدم بهم العمر ويعجزون عن القتال ، كانوا يقومون بتدريس القرآن في قاعات الصلاة الكبرى بالقلاع . كذلك كان سكان المناطق المحيطة بتلك القلاع ، سواء كانوا من الصناع أو التجار أو أرباب الأسر والفتيان ، وأعضاء جماعات الفتوة والفلاحين يؤلفون فيما بينهم جماعات تتناوب العمل داخل القلاع في أوقات الخطر كنوع من مد يد العون إلى المدافعين عنها .

وكان في مقدور المرابطين تكوين نوع من مركز القوة في بعض الأحيان نتيجة لاستقلالهم عن سلطة الحكومة المركزية ، وكان ذلك يتيح لهم التدخل في الشؤون السياسية الداخلية كما أشرنا من قبل ، ثم أصبحوا يمثلون في القرن الحادي عشر

قوة رسمية تتمتع بتأثير كبير يصعب مواجهته على المستوى الداخلي أو الخارجي، فلقد جاؤوا من الجنوب وسيطروا على المغرب و الجزائر كلها وبعد ذلك استعان بهم الملك المعتمد ملك إشبيلية فاكتسحوا كالإعصار الجارف المضيق البحري وخاضوا الحرب ضد الملك الفونس السادس، وألحقوا بالجيش المسيحي هزيمة ساحقة عام ١٠٨٦م، ذلك الجيش الذي كان الفرنسيون وغيرهم من المحاربين الأوروبيين قد انضموا إليه.

هنا، بالقرب من "سلاكا" وبعد المعركة السابقة بأربع سنوات خلال معركة حصن "اليدو" عام ١٠٩٠م التي لم تحسم نهائياً وقف فرسان الغرب وجهاً لوجه أمام فرسان المسلمين، وكان ذلك قبل سنوات قليلة من انطلاقهم إلى الأرض المقدسة عام ١٠٩٥ حينما نادى البابا بالحرب الصليبية.

من هو الفارس الألماني؟

إن التحول الذي مر به فارس الصحراء قبل الإسلام ليصبح مجاهداً في سبيل الدين في إطار الجماعة الإسلامية، قد مر به العالم العربي قبل الغرب بقرون عدّة، ذلك أن فارس العصر الوسيط الذي أخذ في الظهور في ذلك الحين بهيئته الإسبانية - الأندلسية، قد وجد أمامه أنموذجاً مباشراً شاهده من خلال المعارك أيضاً، كان ذلك الأنموذج بمثابة المدرسة الأساسية التي أسهمت مع غيرها من التطورات الفكرية والاجتماعية المهمة في الغرب في خلق نوع من الفروسية القائمة على أكتاف محاربي الفرنجة الفرسان وعلى أسس حربية معينة. ولقد كانت تلك الفروسية على خلاف الفروسية العربية وطبقة فرسان الحدود المدافعين عن الدين - وعلى خلاف تام للتصورات التي غذتها الأبحاث ذات الاتجاه الرومانسي استناداً إلى أشعار الفروسية وحدها - أبعد ما تكون عن صفات الطبقة المستقلة والمتنافسة التي تمثل مستوى خاصاً داخل المجتمع، وإذا كانت جماعة الفرسان الفرنسية أقرب ما تكون إلى طبقة مختارة من المحاربين الفرسان وضعت حدوداً تفصلها عن الطبقات الأدنى، وسرعان ما تحولت نتيجة لنظام الوراثة إلى طبقة النبلاء، فإن ألمانيا كانت تفتقر إلى مثل تلك الوحدة الشاملة؛ ذلك لأن الحدود بين الطبقات في ألمانيا كانت أكثر مرونة وسلاسة، كما أن أشكال حياة الفرسان وتقاليدهم لم تكن قاصرة على طبقة معينة تتميز بمولدها أو معرفتها، وهكذا كان الفارس صاحب الإقطاعية وخدمه من العبيد، بل وكان الأمراء والقيصر نفسه يخدمون جميعاً بصفتهم فرسان محاربين مدججين بالسلاح في خدمة قضية معينة، بل لقد كانت القضية هي التي تحدد طبيعة الفروسية الألمانية

التي تقوم على الوعي الجماعي الفرساني الذي نشأت عنه فيما بعد الجماعات الاجتماعية على أساس من التقاليد والتجارب المشتركة والمصير الواحد - سواء نتيجة للعمل في خدمة الإمبراطورية أو من خلال الحروب الصليبية .

وبينما كانت سلطة الدولة في فرنسا تنتقل من أيدي الملوك الذين أخذ الضعف يتنابهم إلى أيدي الكنيسة والسادة المحليين وبدأ تأثيرها يتعاظم داخل النظام الإقطاعي المتدرج ، فإن الملوك والأباطرة في ألمانيا كانوا هم الذين يكلفون الفرسان بحماية الإمبراطورية والدفاع عنها ، وكان هذا الفارق جوهرياً إلى حد أنه أثر على التكوينات والتقاليد التي يتسم بها الطرفان وعلى أدائها في الحروب الصليبية ظاهراً وباطناً .

ولكن لم يكن أسلوب الحياة الفرساني ولا أهداف الفرسان في خدمة الإمبراطورية هي العوامل التي تميز الفارس الألماني ولكن روحه ونيته هما اللتان كانتا تميزه ، ويقال إن تلك التقاليد مستمدة من الكنيسة .

بَيْدَ أنّه لا يوجد قولٌ يجافي الحقيقة مثل هذا القول ، ويجب علينا منذ البداية أن نستبعد تفسيرين خاطئين بصفة نهائية ، أولهما ذلك المبدأ المعمول به منذ قرون الذي يقول : إن أخلاقيات الفروسية هي نتاج ما يطلق عليه في المسيحية تعبير "محبة القريب" وأن ما ينادي به هذا المبدأ هو توفير الحماية للضعفاء ومن لا سند لهم ، وسوف نعود إلى هذه المسألة مرة أخرى فيما بعد ، أما التفسير غير الصائب الثاني فهو أيضاً المبدأ الذي ظل سارياً دون أن يحاول المرء أن يمعن فيه الفكر ، والقائل بأنه حدث داخل طائفة الفرسان تزاوج بين الفروسية الدنيوية وبين شكل وروح الرهبانية ، بما يعني حدوث "ارتباط بين المؤسستين" .

وفي الحقيقة لم تكن هناك أية علاقات بين طائفة الفرسان وبين طائفة الرهبان وذلك لأن الكنيسة كانت ترفض رفضاً قاطعاً مهنة الحرب، كذلك فإن الفصل الواضح الذي قام به أوجستين بين الكنيسة بصفتها مملكة الرب وبين الدولة بصفتها مملكة الشيطان، والتي لا يسمح لأحد أن يتجاوز حدودها، كان يمثل واجبين واضحين على الإنسان: من يخدم المسيح ومملكة الرب، عليه أن يقاتل بالصلاة وليس بالسيف وكان على الآخر أن يرفع سيفه في وجه الشر، وعلى الرغم من ذلك فإن المحارب الذي كان "يشارك في المعركة ويرتكب فيها القتل "كان عليه أن يتوقع التعرض للعقاب وهي القاعدة التي جاءت على لسان هارابنوس ماوروس، أحد معاصري لودفيج التقي وظل العمل سارياً بها طوال مئات السنين، فلقد كانت حياة المحارب تعتبر مرادفاً للبعد الخاطئ عن الله ولتعريض خلاص الروح للخطر، ذلك أنه حتى ولو كان القتال الذي يخوضه المحارب من أجل الدفاع فإن تعاليم التكفير كانت تنص على ضرورة أن يقضي فترة تكفير تصل إلى أربعين يوماً، وأحياناً كانت تصل إلى عام كامل.

ولم تكن الكنيسة تغير مواقفها هذه إلا عندما ترى أنها هي المعرضة للخطر، سواء من جانب اللصوص أو من هم على غير دينها، أو من جانب أتباع محمد أو من جانب الإمبراطورية الألمانية عندما لا ترضى عنها الكنيسة أو عندما ترفض الخضوع لسيطرتها؛ وهنا كانت الكنيسة نفسها هي التي تدعو إلى حمل السلاح، وفي كل مكان كانت الكنيسة ترسل إليه جيوشها - بالطبع من أجل الدفاع عن المسيحية فحسب - كما حدث في عام ١٠٦٤م في عملية الاستيلاء على حصن "بريشتر العربي" وقتل كل سكانه، وهنا تبدأ الكنيسة على حين غرة في تبني أفكار وأنماط مسلمة وهي تقاتل العرب.

تمنح الكنيسة في ذلك الوقت وعلى نحو مفاجئ وعداً لمن يسقط في الحرب ضد "الكفار" بأنه سيحظى "بالحياة الأبدية" وكما أن الله يعد في قرآنه (الآيات ٩٥ - ٩٦ من سورة النساء) من يتسابقون للقتال بقوله : ﴿ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً** . . . ﴾ كذلك تكشف الكنيسة عن إرادة الله الممثلة في البابا أوربان الثاني الذي يُعَد "البابا الأكبر للعالم" وذلك حين دعا أمام المجلس الكنسي بكلير مونت في فرنسا يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م من خلال ندائه للناس بالذهاب إلى الحرب الصليبية ضد العصبة الخبيثة ويقصد بها الأتراك والعرب - ما يلي : " إن من يذهبون إلى هناك ويضحون بحياتهم سواء وهم في طريقهم براً أوبحراً أو خلال المعركة ضد الكفار- سوف تغفر خطاياهم في تلك الساعة ، وإني ضامن لذلك بسلطان الرب الذي منحه لي ، وإن الذين كانوا يرتزقون أجوراً مُزرية لهم أن ينعموا الآن بالمكافأة الأبدية» .

وهكذا بدأت الكنيسة فجأة تحذو حذو الإسلام وتعتنق فكرة "الحرب المقدسة" وتتحمس لها ، وكما أن تلك الحرب المقدسة بالنسبة إلى الإسلام وإلى من يخوضونها تعتبر بمنزلة دعائم في الطريق المؤدي إلى السماء وكما قال أحد العرب من مدينة "ألمرية" فإن الكلونيين الأقوياء ذوي المكانة بدؤوا يتلقفون الآن مبدأ الحرب المقدسة ، منهم الذين كانوا يمسكون بأيديهم من وراء الكواليس بخيوط الموقف ، كما أنهم كانوا قد تلقفوا بذكاء داخل أديرتهم العديدة التي أنشؤوها

بامتداد طريق الحج إلى سانتياغو دي كومبو ستيلا في الممالك الإسبانية الشمالية، تلقفوا تلك التأثيرات العربية وكان القساوسة الكلونيين المصلين هم الذين عمدوا في روما إلى إعادة صياغة الأفكار الإسلامية عن الحرب المقدسة - وكما سنرى فيما بعد - إعادة صياغة فكرة الحرب العقدية وصبها في مفاهيم الحرب الصليبية ضد الإسلام وفي فكرة الفارس الصليبي.

ويوضح التناول الصليبي لهذه المسألة أمام المجلس الكنسي في كليرمونت ذلك الاتجاه الجديد الذي كان من شأنه أن يحدث تغييرات جذرية: أي تحقيق الربط - الذي بذلت الجهود بحماس حتى ذلك الحين لتجنبه - بين الخدمة الحربية "الربانية" وتلك "الدنيوية" لدى مجموعة من الفرسان غير المحترفين، وكما هو الحال بالنسبة إلى مسألة روح القتال العقدية لدى المسلمين التي أدت بشكل حماسي دافق لا مثيل له في العالم إلى نقل دار الإسلام من نقطة البداية حتى جبال البرانس، كما أخذ الواجب الديني المسيحي يرتبط منذ تلك اللحظة لدى المحارب الصليبي بالواجب الحربي، وكان هذا هو الذي قدح زناد ذلك الحماس العقدي الذي ارتفع شاهقاً بشكل مفاجئ.

وطالما أن الكنيسة كانت تقف موقف الرفض من صناعة الحرب، فمن الطبيعي أنها لم تستطع رفع أي من المحاربين لينال شرف "القديس المحارب" ولكن بالقدر نفسه من التغيير الذي انتاب هذه الأمور كلها كان لزاماً على الكنيسة أن تعود إلى استلهام شهداء روما الشرقية الذين كانوا جنوداً حقيقين أو وفقاً للأسطورة التي تسرد بهذا الخصوص - كانوا جنوداً مصادفةً، ولكن لم يكن مسموحاً هنا بالقدر الكبير من التملق. وعموماً فقد انطبق الأمر على موريتسيوس وسباستيان، وهناك أيضاً الشهيد الشرقي جورج، الفلسطيني المنبت الذي دفن في الرملة وكان

قد قام بأروع وأقوى الأعمال التي تشبه المعجزة، حيث وقف ذات مرة يقاتل إلى جانب أحد الفرسان.

وبدأ التساؤل يثور الآن حول من يمكنه الادعاء بأنه أحق بأن يكون "قدْيس الفرسان" الذي يحمل الراية وينصرهم في الحرب، ويرافق منذ هذه -اللحظة- محاربي العقيدة المسيحية في أول حملة صليبية، ويكون قائدًا لهم في صورة الفارس فوق صهوة جواده الأبيض، حاملاً راية بيضاء مرفوعة فوق رأس رمحه لمواجهة الشرقيين الكفار.

لقد أحدثت فكرة الحرب المقدسة مفعولها؛ وهكذا أخذ القديس جورج راية وجواداً، ذلك القديس الذي أرادت إسبانيا المسيحية أن ترد عن طريقه على تلك المهابة الآسرة للمقاتل[١] محمد ﷺ.

لقد أصبح القديس جورج يماثل في أدق تفاصيله وأوضحها الصورة التامة للقديس جاكوب الذي يحظى بالتبجيل في كومبوستيلا التي تعد أكبر مركز للحجيج في القارة الأوروبية، وهي تقع على الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة إيبريا، وكان القديس جاكوب فارساً، وقد أوضح كاسترو بشكل مقنع تماماً أن إسبانيا المسيحية جعلت منه الصورة المجسدّة للعقيدة والمعادية للموارنة ونبيهم محمد ﷺ[٢]، حتى يتمكنوا بذلك من خوض المعارك تحت حمايته ضد المسلمين الذين تأخذ عقيدتهم القتالية بمجامع قلوبهم[٣].

---

(١) ليس من الصواب وصف النبي عليه السلام بالمقاتل فقط فقد كان رحمة للناس جميعًا. وكان يكره القتال إلا إذا اضطر إليه.

(٢) كلمة الموارنة تعني طائفة من المسيحيين ومن الخطأ غير المقبول إطلاقها على المسلمين وعلى رسول الله ﷺ.

(٣) هنا تناقض في المعنى حيث تقول عن المسلمين مرة موارنة ومرة مسلمين.

والآن فقد حل القديس جورج مكان القديس جاكوب بهيئته وتسليحه وانطلق إلى الأرض المقدسة ليقاتل ضد المسلمين ولم يقتصر الأمر على الحرب المقدسة التي أخذت صورة الحرب الصليبية أو على القديس المحارب في هيئة القديس جورج أو على مارتين أو موريتسيوس وسيلة لجأت إليها الكنيسة لمحاربة العقيدة المقاتلة والفروسية المحاربة المبنية على الإيمان لدى العدو العربي، ولكن كانت هناك أيضاً الراية المقدسة التي ترمز إلى الحرب أو إلى ميدان المعركة، على الرغم من أن الكنيسة كانت قد رفضتها في البداية بقوة رفضها للحرب ذاتها، وذلك لكونها رمزاً وثنياً، أما الآن فقد عادت تلك الراية إلى الظهور فجأة في كل مكان؛ ظهرت أولاً وبشكل خاص على جبهات القتال بين المسيحيين والمسلمين. وكان المحاربون وقادة الجيوش الذين عادوا من حروبهم مع العرب في صقلية أو جنوب إيطاليا أو إسبانيا أو تأهبوا لحملات جديدة ضد المسلمين، كانوا يطلبون دائماً من تلقاء أنفسهم من بابا روما أن يمنحهم الراية المقدسة، وكان الطلب يأتي عادة من جانب المحاربين أنفسهم الذين حمل خصومهم راياتهم وهم يواجهونهم.

وإذا كانت الكنيسة قد اعتادت طوال مئات السنين أن تمنح الصليب للملك ليكون بمنزلة رمز انتصار المسيح يرفعه خلال المعركة ضامناً تحقيق ذلك النصر، فإن النبي محمداً ﷺ والخلفاء من بعده كانوا بالفعل يمنحون قادة جيوشهم رايات مقدسة[١] يربطونها قبل المعركة على رماحهم، وكان النورمانديون هم الذين قاموا بدور الناقل لتلك العادة لأنهم كانوا قد وصلوا في حملاتهم الحربية حتى الشرق البيزنطي والعربي وعادوا ومعهم بعض الممتلكات العربية غنيمة حرب، حتى قبل أن يضم الشرق بين جنباته المحاربين الصليبيين، ويحتفظ بساط بايو بآثار تدل على ذلك.

---

(١) لم توصف الرايات في الإسلام بالقداسة وإنما كانت ترفع الرايات رمزًا وعلامة للجيش المحارب.

وهكذا أرسلت الكنيسة ابتداء من القرن الحادي عشر الراية المقدسة أو ما يطلق عليها "علم بطرس" إلى النورمانديين من أجل السيطرة على صقلية التي يحتلها العرب، وأيضاً لغزو إنجلترا، فُسلّم العلم في عام ١٠٦٦م إلى وليام فون دير نورماندي، وفي عام ١٠٦٣م/ ١٠٦٤م أرسله مع مندوب البابا إلى الحملة الصليبية الإسبانية ضد العرب في باربسترو، حيث كان الجيش الصليبي يقيم بوحشية.

وأرسلت الكنيسة كذلك علم بطرس إلى إيرليمبالد اللانجوباردي العائد من القدس، وفي عام ١٠٨٧م تم إرساله إلى الجيش الذي أقلع بسفنه إلى مهدية بإفريقية - مكان في تونس حالياً - وعلى الرغم من أن بعض رجال الدين كانوا لا يزالون يعترضون على ذلك إلا أن هذه العادة الجديدة بدأت تفرض نفسها سريعاً، وكان ذلك أيضاً بمنزلة تأثر من جانب الغرب بنموذج إسلامي آخر.

ويجدر بنا أن نتمهل قليلاً عند إيرليمبالد اللانجوباردي؛ لأن قصته تؤكد من جديد على عملية الفصل المقصودة التي أرادتها الكنيسة بين الفروسية العقدية وبين الرهبانية. فقد رجع إيرليمبالد من الحج إلى فلسطين عائداً إلى ميلانو وقرر أن يهجر العالم ويذهب للعيش في الدير، وهنا ضغط عليه القس أريالد المقرب من بابا الرهبان الكلونيين (نسبة إلى دير كلونية) لكي لا يتحلل من عهد الرهبنة ذاكراً أنه سوف يحصل على جائزة كبيرة من الرب إذا عاد يحارب بصفته محاربًا غير محترف في سبيل قضية العقيدة، وذلك بأن يضع نفسه على رأس الحركة الشعبية في ميلانو المسماه (باتريا) لكي يخدم بذلك الأهداف الإصلاحية لطائفة رهبان الكلونيين.

إلا أن ذلك كان يعتبر بالنسبة إلى الدوائر الشديدة التحفظ في الكنيسة وبالنسبة

إلى بتروس دامياني وهو أحد الخصوم العتاة لفكرة الحرب المقدسة، بمنزلة خطيئة كبرى في حق المبادئ التقليدية للكنيسة، وذلك لأن تعبيرات العقيدة والسيف، أو الكنيسة والفروسية، كانت تعطي الانطباع بأنها تحمل تناقض تعبيرات: القداسة والخطيئة، أو الانتقاء الإلهي و "الطلاق" ! مثلاً، وفي الحقيقة فإن تبريراته الحادة تلك التي اعتاد عليها كانت تحوي بعض المنطق، فهو يقول: "إذا كان المرء يعارض انشغال البابا "ليو" الدائم بالنشاط الحربي مع كونه شخصاً مقدساً في الوقت نفسه، فإنه يمكننا القول بأن بطرس لم يحصل على لقب "أمير الحواريين" لكونه أنكر الرب، كما أن الملك داود لم يحظ بنعمة النبوة لأنه نام في سرير شخص آخر[1].

إلا أنه لم يكن من الممكن إقناع إيرليمبالد بتلك المقارنة وبما حاولت البرهنة عليه. وبغض النظر عن كافة الاحتجاجات الرجعية، فإنه تولى بصفته -جندياً جديراً- رئاسة الحركة الإصلاحية مثلما كان الفتى العربي يرأس جماعة الفتوة، وقد سقط إيرليمباد في الحرب عام ١٠٧٥م وأصبح شهيداً على شرف المذبح وأول فارس يصير قديساً للكنيسة الإصلاحية.

(١) جميع الأفكار الواردة في هذه الفقرة منافية تماماً للعقيدة الإسلامية.

روابط الفرسان محاكاة

للفروسية الإسلامية العربية

كما أسلفنا القول، فإن المضمون الديني والروحي كان هو الهدف النموذجي، تماماً مثل فكرة "الإمبراطورية" أو تحرير الأماكن المقدسة" التي عملت على بعث الروح في مفهوم الفروسية وميزت شخصية الفارس الحقيقية.

ولقد تطورت الفروسية الصليبية الجديدة إلى شكل خاص بها نتيجة لصراعها ولاتصالها مع العالم العربي في الشرق؛ ذلك هو شكل الفارس الذي ينتمي إلى الرابطة. وكان تشكيل روابط الفرسان يمثل في الحقيقة محاكاة تامة لفروسية طوائف المرابطين التي تشكلت بعد حملات الغزو المبكرة.

وكانت البداية معروفة: فقد انتهت أول حملة صليبية إلى القبر المقدس بقيادة النبلاء الفرنسيين وبتأييد من النورمانديين بعد حوالي ثلاث سنوات من الجهود الشاقة المضنية والمعارك والحصار الطويل القاسي - خاصة حصار قلعة أنطاكية ذات الدفاعات الحصينة - بالاستيلاء على القدس. إلا أن ذلك الانتصار ألقى ظلالاً قاتمة على الفروسية المسيحية بسبب حمامات الدم الفظيعة داخل أسوار المدينة "المقدسة"، كما أن جزءاً من النبلاء الفرنسيين والنورمانديين بقي في البلاد مع جزء آخر من الفرسان وأسسوا مملكة القدس وعدداً من الإمارات الصغيرة.

وفي عام ١١٢٦م انطلق فارسان من القدس إلى فرنسا لمقابلة الأسقف بيرنهارد ذي النفوذ القوي، وهو أسقف كليرفو والزعيم الروحي، والبابا غير المتوج للمسيحية، ونعني بهما الفارسيْن أندرياس فون مونتبري، عم بيرنهارد،

وجونديمار، وقاما بتسليم الأسقف رسالة توصية من ملك القدس يرجوه فيها أن يستغل نفوذه الكبير في مساعدة من سلماه الرسالة وتأييد الطلب الذي يتقدمان به إلى البابا لكي يمدهما بكوكبة من الفرسان تكون نواة لتكوين رابطة، على أن يقوما بأنفسهما بوضع الأسس التي تقوم عليها تلك الرابطة الجديدة. وحتى لا يحيد رجل الدين من طائفة رهبان البنيديكتيين عن الهدف النضالي فإنه (أي ملك القدس) أكد على "أن تلك القواعد لا يجب أن تحيد عن ضجيج المعارك وصخبها".

إلا أن بيرنهارد ترك (عمه) ينتظر، وانقضى عام بدون أن يحصل شيء جديد. وهنا اتخذ مؤسس ومعلم تلك المجموعة من الفرسان، هو جوفون باينس من البروفانس، مع خمسة من رفاقه طريقهم إلى كليرفو. الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عما إذا كان هؤلاء يمثلون بالفعل مجموعة غير محترفة من الهواة! إذ إن ذلك المسلك يحمل في طياته تناقضاً داخلياً. فقد رأى بيرنهارد أن تلك الخطة تثير الشكوك وأن الموافقة عليها ستجلب غضب البابا بالتأكيد، حيث إنها إجراء يتسم بالنزق والخطورة.

يتضح من ذلك أنه كان من الصعب أن يستجيب العالم المسيحي لمطالب فرسان القدس؛ وذلك لأن التعبيرات المستخدمة مثل "الثورية" و "الخطورة" و "عدم الاحتراف" و "الفروسية" إذا امتزجت مع بعضها في إطار رابطة مقدسة للقتال بالسيف و الرمح، ألا تمثل في تلك الحالة تناقضاً مع كافة التقاليد والأخلاقيات المسيحية؟

عموماً لم تكن تلك هي التجربة التي خاض غمارها الفارس البروفانسي، ذلك أن الطوائف الرهبانية المقاتلة التي تراجعت عن حدودها قد خلفت قلاعها

الحدودية حيث كان الفرسان المسيحيون يلتقون بها دائماً على الجانب الآخر من جبال البرانس. وفيما عدا ذلك ألم تقع تعاملات بين جيش الصليبين على امتداد منطقة الحدود البيزنطية - السورية كلها التي زحف عبرها الجيش الصليبي وهو يقاتل ليشق طريقه نحو فلسطين، وبين فرسان الحدود العرب المدربين والمنظمين جيداً؟

أما كون العرب قد استطاعو المواءمة بين حياة تقوم على التقوى والتقشف يخوضون خلالها حروب الفروسية التي تسيل دماؤهم في سبيلها؛ لأنه لم يكن لديهم انفصال بين الجسد والروح، أو بين الدنيا والآخرة، وهذا الأمر أمر لم يكن متاحاً لهؤلاء المسيحيين أن يحاكوه أو يقلدوه لأنهم قد شبوا على التفكير في إطار مفاهيم ومسلمات مطلقة تتسم بازدواجية شديدة. يضاف إلى ذلك أنهم يمزقون الإنسان، بل والوجود الرباني كله إلى جزأين بشكل لا يقبل الإصلاح أو المداواة. كذلك كان عسيراً عليهم تصور إمكانية الجمع بين التقوى والجمال، بين جدية العقيدة والفرح بنعمة الحياة، كما فعل العرب بصورة (منسقّة) لا تجعل جانباً يطغى على الجانب الآخر.

وكان لزاماً على هوجر وفرسانه الإصرار على قضيتهم المرة تلو المرة لكي يدفعوا بيرنهارد إلى تأييد تلك الفكرة الجديدة "التي تتسم بالنزق والخطورة". وفي الحقيقة فإنه لم يكن قادراً على تأييد القواعد التي ستقوم على أساسها تلك الطائفة التي قدمها له المعلم هوجو دون أن يجري عليها تغييرات جوهرية، وفوق ذلك فإن مجلس مدينة ترواه "Troyes" والبطريرك أدخلا أيضاً تعديلاتهما. وأخيراً وبعد مضي ثلاث سنوات تم تحديد تلك القواعد في صياغة بموافقة البابا هوفوريوس الثاني.

---

(١) هذا التعبير غير مقبول عقديا عند المسلمين، وما ترمى إليه المؤلفة أنهم يفصلون بين الروح والمادة فصلا لا تلاحم فيه، أما الإسلام فإنه ينميهما معًا وينسق بينهما.

لكن على الرغم من أن تلك الصياغة حرصت على عدم الإشارة إلى " وطيس المعارك " فإن فرسان المعبد - وهو الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم مستخدمينه من مقر إقامتهم في منطقة القصر بالقدس، فوق أرض معبد سليمان، والتي بني فوقها المسجد الأقصى - نجحوا باستمرار في فرض بعض المبادئ الخاصة إلى جانب التعليمات التي تلزمهم بالتقشف والطهارة والطاعة، وهي المميزات التي كانت وثيقة الصلة بأخلاقيات الفرسان العرب مثل: البساطة الشديدة والنظام. وكانت تلك المتطلبات تعتبر من ضرورات القتال ضد العرب كما كانت تتفق مع ما التزموا به من واجبات باختيارهم. مثل: تقديم الحماية المسلحة اللازمة للحجاج إلى الأماكن المقدسة، والدفاع عن الطرق ذات الأهمية العسكرية، وعن المواقع الرئيسية، والعمل بشكل خاص على توفير الحماية لمملكة القدس الوليدة مستخدمين القلاع والحصون التي تم الاستيلاء عليها نقاطاً للانطلاق، بالإضافة إلى مهمة دعم الجيش المسيحي والجيوش الصليبية التي تصل إلى البلاد.

ولم يسبب نجاح هوجر فون باينس خلال تلك الأثناء في كسب "إخوان جدد" للطائفة في فرنسا وإسبانيا، واضطر -بسبب ضيق مجال الاختيار أمامه- إلى قبول بعض الذين وعدهم بالعفو عما ارتكبوه من آثام إذا هم حاربوا ضد الكفار، لم يحدث ما من شأنه أن يؤثر على الحماس المتنامي تدريجياً لدى رئيس دير كليوفو إزاء هذا السلاح الرباني الجديد في مواجهة الكفار، وإنما حدث العكس تماماً، فلقد امتدح ذلك الراهب الذي يدق طبول الحرب لتحرير الأرض المقدسة في خطاب له عام ١١٤٦م إلى أساقفة كولون وشباير بألمانيا - الذين لم يظهروا حتى ذلك الحين ميلاً كبيراً للنهوض لقتال العرب -امتدح الحرب الصليبية التي تخوضها تلك الطائفة ووصفها بأنها: "فكرة حلت بها البركة تفتق عنها ذهن

الرب لكي يتيح للقتلة واللصوص ومنتهكي الأعراض ومن حنثوا بالقسم وغيرهم من المجرمين أن ينخرطوا في خدمته - أي خدمة الرب- ليتيح لهم فرصة الخلاص[1] . "وبهذا المعنى أيضاً تحدث في موعظته الشهيرة" في تقريظ الفروسية الجديدة التي وجهها إلى المسيحيين وإلى فرسان المعبد وهم في طريقهم إلى الجبهة مباركاً إياهم :

"يجب قبل كل شيء الالتزام بالنظام والطاعة التامة . وعلى الجميع ألا يتحركوا إلا حسب أوامر رئيسهم ، وهم يرتدون الملابس التي منحت لهم . ولا يجب أن يسعى أي شخص لكي يحصل لنفسه على ملبس ، أو مأكل حسب ما تشتهيه نفسه ، كما أن على الجميع أن يرضوا بالطعام ، والكساء ، بالقدر الضروري لهم فقط ، وتجنب كل ما هو زائد عن الحاجة ، لأن فرسان المعبد يعيشون وفق تقاليد معينة داخل الجماعة بدون نساء أوأطفال ، قانعين راضين بذلك ، حتى يستطيعوا الاقتراب قدر طاقتهم من أسلوب معيشة الحواريين ؛ عليهم أن يعيشوا جميعاً تحت الظروف نفسها وفي المكان نفسه ، كما يجب عليهم ألا يدعوا ملكية أي شيء لأنفسهم حتى تتحقق وحدتهم الأخلاقية والمزاجية التي تتيح لهم العيش معاً في وئام .

إنهم يتحاشون إرسال القول على عواهنه ، أو الانشغال بالأمور غير المجدية أو إطلاق الضحكات الرنانة أو اللمز والغمز ، كما أنهم يترفعون عن ألعاب الشطرنج والنرد ، ويكرهون الصيد ، بل لا يميلون حتى إلى تربية الصقور ، ولا يستهويهم الممثلون الهزليون ، والحواة ، والمهرجون ، ومن يثرثرون كثيراً ، أو يتشدقون بأغان لها إيحاءات خاصة ، فهم ينظرون إلى كل تلك الأمور بازدراء ، ويعتبرونها

---

(١) هذا المفهوم عن الحرب في هذه الفقرة وما تلاها لا يتفق ومفهوم الإسلام عنها . فهو مفهوم نصراني بحت .

حماقة لا طائل من ورائها. كذلك فإنهم يقصرون شعورهم، لأنه مما يشين الرجل أن يكون شعره طويلاً. كذلك فإنهم لا يغالون في ملبسهم كثيراً ويستحمون لماماً، فهم قذرون، يكسو الشعر أجسامهم، وتبدو بشرتهم سوداء بسبب تلويح الشمس لها وارتدائهم قمصان الزرد الحديدية.

هل هذا واقع فعلي أم مجرد أمان؟ أم ربما يكون صيحة تحذير مستترة نتيجة للقلق من غلبة الأمور الدنيوية، والتأثر بها، والخوف من الأخذ بالطباع العربية كانت هي التي أملت إعطاء تلك الصورة الشوهاء؟

إذ ما الذي يدفعنا خلاف ذلك إلى أن نستمع إلى ذلك المديح الذي يكتبه بيرنهارد لفرسان الطائفة بسبب امتناعهم عن لعب الشطرنج ورياضة الصقور والاستمتاع بالممثلين ورواة الأساطير والسحرة والمهرجين، وكان الأفضل له أن يمتدح بطولتهم في القتال من أجل رفعة الرب، ثم يمتدح فيهم كذلك عدم الاهتمام بتصفيف شعورهم أو ارتداء الملابس الناعمة أو يمتدح نظافة أجسامهم، في حين أن الإنسان المسلم يؤدي ذلك خمس مرات يومياً كنوع من العبادة!.

وهكذا نرى أن هناك ما يبرر تماماً ذلك الخوف من أن تتأثر الروح المسيحية بالحياة بين "الكفار".

حقاً، لم تكن طائفة فرسان المعبد هي أول ولا آخر طوائف الفرسان التي تكونت كرد فعل على وجود طوائف الفرسان العربية الحدودية في ممالك فلسطين وسوريا الخاضعة للفرنجة، كما كانت في الوقت نفسه بمثابة محاكاة لتلك الطوائف. وكانت تتشكل بناء على مبادرة من فارس، أو مجموعة من الفرسان والتي كانت تلقى الرفض الشديد من رجال الدين، في حين تلقى القبول والاتباع من جانب فرسان الغرب. وأصبح فارس الطائفة هو الأنموذج المثالي للفارس

الصليبي عموماً، لأنه أصبح يجسد الصورة المثلى النقية له.

وخلافاً للوضع بالنسبة إلى فرسان المعبد، فإن فرسان يوحنا والفرسان الألمان ربطوا بين الواجب العسكري مثل حماية حدود البلاد، وبين تقديم المعونة الاجتماعية وتوفير العناية بالمرضى والفقراء. ولم يكن متاحاً التفكير في مثل هذا النموذج لولا وجود الأنموذج الإسلامي الحيّ. فعلى حين كان الغرب قبل الحروب الصليبية وبعدها بعدة قرون لا يعرف أية تقاليد للعناية بالمرضى داخل مستشفيات ومصحات خاصة، كان هناك في القدس مأوى للحجاج المسيحيين، منح هارون الرشيد لشارلمان حق حمايته. وتحول هذا المأوى مع مرور الزمن إلى مستشفى بني على غرار العديد من المستشفيات التي كانت منتشرة في كافة المدن العربية. وكان ذلك المستشفى الجديد الذي أطلق عليه اسم القديس يوحنا تيمناً به، يوجد أثناء الحملة الصليبية الأولى أمام جيرارد من مقاطعة البروفانس، وسرعان ما أسسَّ جيرارد بعد الهجوم على القدس، رابطة حرة للفرسان اهتمَّت باستقبال الجرحى والمرضى والعناية بالجوعى والفقراء الذين يطرقون بابها.

وذلك لأن الفرسان المحاربين الذي اعتادوا القتال كانوا هم الذين يتولْون الأعمال التي تتسم بالرحمة وليس الرهبان، ولقد كانت مهمة تخفيف الآلام، وتحقيق محبة الجار تعني بالنسبة إلى نبلاء الغرب المسيحي عموماً المنح والنظر بنوع من التعالي لا أكثر؛ لذلك جعل الفرسان من بين واجباتهم تقديم المساعدات المؤثرة في إنكار الذات للمرضى والفقراء، وعدوها مهمتهم الأولى في الحياة ولكن دون التخلي عن أداء واجباتهم العسكرية في حماية الحدود ومقاتلة الكفار - على الرغم من سخط روما الشديد، وحتى بالنسبة إلى ذلك العمل الكريم الذي

يرتبط بأداء الخدمة العسكرية والذي ذكره ابن عربي الأندلسي، نجد أن طوائف الفرسان الفرنسية أخذت تتشكل في ذلك الحين في الأراضي المقدسة.

ويدلنا هذا على أن الرهبانية لم تشارك بشكل أساسي في نشأة تلك الروابط ؛ ذلك أن الرهبان حاولوا النفاذ إلى الأسس التي قامت عليها تلك الروابط بصورة أو بأخرى بداية من الرابطتين الأقدم اليوحانية والألمانية التي كان أفرادها يعيشون حتى ذلك الحين دون دستور خاص، وبدون اعتراف الكنيسة بهما، وبصورة بدائية. فلم تكن الرهبانية قد شاركت في نشأتها تلك، ذلك أنه بالنسبة إلى القاعدة التي يسير عليها الفرسان بدرجات متفاوتة الشدة، والتي استقتها من روما طائفة اليوحانيين والفرسان الألمان اللتان ظهرتا بعد طائفة فرسان المعبد بوقت طويل، فقد حاولت الروح الرهبانية التسلل إليها، بل والعمل للحد من نشاط الطوائف العسكرية وذلك بأن غضت الطرف عنها.

الباب الثالث
الحروب الصليبية:
الصراع بين الشرق والغرب

- تباين المواقف من خلال الصراع ضد الإسلام.
- بقعة تلوث الثوب الأوروبي.
- الألمان بمنأى عن الحمى الصليبية.
- سيد عظيم يتخذ سمته نحو الأراضي المقدسة.
- هل كانت حروب آل شتاوفن حملات صليبية.
- صديق العرب.

تباين المواقف من خلال
الصراع ضد الإسلام

على الرغم من أن تطور الفروسية الذي حدث استناداً إلى التطورات الاجتماعية في دول أوروبا خلال عصور القيصر أوتو وعصر الساليين، قد تم تدريجياً، فإنه بعد المعارك التي جرت بشكل متواصل على الجهات الإسبانية والإيطالية، فإن الحروب الصليبية بما اشتملت عليه من معارك مشتركة ضد العدو المشترك، وما نتج عن ذلك بالضرورة من صلات وثيقة على كافة المستويات في الأراضي المقدسة، كانت هي التي بلورت الفروسية الأوروبية حتى مع وجود اختلافات كبيرة على المستوى الوطني في كل دولة، وكما سنرى فيما بعد، لذلك أسهمت تلك الحروب في تهذيب أنماط حياة الفروسية عن طريق النموذج المشترك للفارس، الذي تجاوز هنا الصورة التقليدية للمحاربين، الذين وصفتهم أناشيد "رولاند" والذي وجدَ بشكل جديد.

ولكن هل يصدق حقاً ذلك القول عما يسمى بالحرب المشتركة التي خاضها الغرب؟

سوف نجد على الفور أن هناك تناقضاً لا يمكن أن تخطئه العين، أصبح يتسع بين طوائف الفرسان الألمان وفرسان المعبد وفرسان يوحنا، ويشير ذلك التناقض إلى وجود اختلافات تاريخية وقومية عميقة الجذور، تتمثل في اختلاف النظرة تجاه الحملة الصليبية ومقاتلة "الكفار". كذلك يبدو أن تلك الاختلافات تركت بصماتها في وقت مبكر على ذلك الارتباط القوي الذي قام بين الفروسية الفرنسية وبين البابا والكنيسة من ناحية، وبين الفروسية الألمانية وبين القيصر والإمبراطورية

من ناحية ثانية، وبالمقابل فإن طوائف فرسان المعبد وفرسان يوحنا التي قامت على أسس فرنسية كانت تلتزم بطاعة البابا وحده، ولهذا السبب فإن تعصبها كان يصل إلى حد الكراهية، كما تميزت بقسوة عمياء لا ترحم، ليس فقط فيما يتعلق بمحاربة "الكفار[1]" المسلمين، وإنما أيضاً في مواجهة كل ذي سلطة سواء كان ملك القدس، أو ملك فرنسا، أو القيصر نفسه، أو طوائف الفرسان "الشقيقة" الأخرى. ولذلك نشأت عداوة عنيفة بين هذه الطوائف بعضها مع البعض، وفيما يتعلق بالتحلي بمسوح الفاقة، فكانت قاصرة على الفرد نفسه، وليس على الطائفة ككل، فقد كانت الطائفة تحصل على امتيازات باباوية ضخمة، كما كانت الهبات تنهال عليها، وأدى جشعها ونهمها إلى السلطة إلى أن يتوجه جل تفكيرها إلى مصلحتها الخاصة، ولذلك أصبحت تمتلك قدراً هائلاً من الأراضي والأموال، وكان من شأن ذلك الوضع أن يصبح فخاً مرعباً لفرسان المعبد، ويؤدي من ثم إلى انحسار الطائفة وسقوطها بعنف، بواسطة أحد الملوك الفرنسيين الأقوياء، الذي استطاع أن يؤثر على أحد الباباوات الضعاف، وبعد انتهاء الحروب الصليبية أقامت طائفة يوحنا قواعد جديدة لها في رودس ومالطة، وقد نشأت طائفة يوحنا الألمانية المعاصرة استناداً إلى الميراث البروتستانتي الذي خلفته تلك الطائفة.

وكانت طوائف الفرسان الألمانية ذات وضع مختلف تماماً، فلقد كوَّنها الألمان وكانت تقتصر على منطقة اللغة الألمانية فقط، ولكن ما هو السبب في ذلك؟ لقد رفض أنصار يوحنا استقبال الفرسان الألمان الجرحى في مستشفاهم حين وصلت فلول الصليبيين إلى فلسطين براً وبحراً، بعد أن مات إمبراطورهم فريدريك باربروسا الأول فجأة، وكانت رحى المعركة تدور على أشدها، وقد كانت تلك

---

(١) لفظ «الكفار» كان يطلقه النصارى المتعصبون على المسلمين، وهذا غير صحيح ولكن الصحيح أنهم هم الكفار.

أكثر إنهاكاً وخسائر حول حصن عكا، إلا أن شكوك اليوحانيين تجاه القادمين الجدد، هؤلاء الفرسان الذين اندفعوا للقتال، يضاف إليها العداء الوطني الذي تغذيه كراهية البابا للإمبراطورية الألمانية عموماً، ولأسرة هوهنشتاوفن الحاكمة بشكل خاص، كانت أقوى من مشاعر الود ومحبة الجار، وهنا نشط تجار مدينتي ليبيك وبريمن فانطلقوا بحراً من ميناء بريمن في أسطول صغير وقاموا بنقل فرسان الشمال الألماني متخذين مساراً يدور حول إسبانيا برمتها، ومجتازين البحر المتوسط وعندما وصلوا قريباً من عكا سحبوا سفنهم إلى الشاطئ، وأقاموا بينها مستشفى من الخيام للفرسان الألمان الذين سقطوا جرحى أو مرضى بالأوبئة، واستخدموا في ذلك أشرعة سفنهم وما وجدوه فوق الشاطئ.

وبعد سقوط حصن عكا وجه ابن بارباروسا، فريدريك فون شڤابن، اهتمامه إلى الحصول على قطعة أرض في عكا لكي يقيم عليها مستشفى ثابتاً أسماه "الدار الألمانية" وقد دفن هو أيضاً هناك.

وحين بدأ أخوه هاينريش السادس بعدها بعدة سنوات في تجهيز نفسه لقيادة حملته الصليبية - الأمر الذي كان يعني أن سياسة الإمبراطورية بدأت تهتم ولأول مرّه بالأراضي المقدسة - فإن خطته كانت تشمل أيضاً تلك القاعدة الألمانية هناك، ومن هنا كانت نشأة طائفة الفرسان الألمانية عام ١١٩٨م على أساس جمعية الفرسان التي تعنى بالفرسان والتي أقامها قيصر أسرة هوهنشتاوفن، وقد اعتمدها البابا في العام التالي وكان هذا يعني أن الهدف الذي أنشئت من أجله الطائفة قد تحدد بالفعل: أي العمل في خدمة الإمبراطورية بصفة أساسية، ولكن قامت الطائفة بعد ذلك بوقت قصير بناء على نداء ملك المجر دوق مازوفيا، بنقل مجال عملها الرئيسي من فلسطين إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية. وكانت نُقَطٌ

الخلاف بين الطائفة الألمانية وطائفة المعبد واليوحانيين هي نفسها نقاط الالتقاء بينها وبين روابط المقاتلين المسلمين على الحدود؛ ذلك أنه نتيجة للرابطة الداخلية القوية بين بيت آل شتاوفن الحاكم والتي أكدتها الصداقة القوية بين المعلم الأول الشهير للطائفة هرمان فون سالزا وبين فريدريك الثاني الذي كان صديقه ومستشاره وموضع ثقته - أخذت الطائفة تمارس واجباتها بصورة مستقلة اعتماداً على حصونها التي أقامتها في كل مكان على غرار النمط الرئيسي للقلاع الإسلامية، - وتذكرنا قلعة ومدينة تورن الألمانية بحصن طورون الفلسطيني - تلك المهمة المتمثلة في قيامهم- أي أعضاء الرابطة- بصفتهم من أصحاب الإقطاعيات في الإمبراطورية "بفتح" أراضي الإمبراطورية ناحية الشرق من أجل استعادة الأراضي الجرمانية القديمة، وقد أصبح قادة الرابطة أمراء في الإمبراطورية لأنهم كانوا يتولون إدارة شؤون الطوائف التي أصبحت تتكون منها البلاد.

وقد قامت تلك الطوائف بعمليات استصلاح وصرف للمياه وإقامة سدود رائعة مكنتهم من توسيع رقعة البلاد لتضم ٩٦ مدينة جديدة و ١٤٠٠ قرية على ساحل البلطيق ممتدة حتى جزر ليفلاند، كذلك تمكنت دولة الطوائف عن طريق الاقتصاد الضرائبي المنظم، وطبقة الموظفين ذات التنظيم المتين، والجيش ذي الإعداد الجيد، والجاهز للعمل في كل وقت، وكذا عن طريق نظام للمعلومات يعمل بصورة ممتازة، وهي الأمور التي تعلم المرء كيف يعجب بها في الشرق هي وكثير من التفاصيل المتعلقة بالإدارة وأساليب بناء القلاع، تمكنت هذه الدولة لقرنين قادمين من الزمان - وباستثناء صقلية الواقعة تحت حكم آل شتاوفن - من أن تصبح أكثر الدول تقدماً، وأفضلها إدارة وأقواها دفاعاً داخل الإمبراطورية، وفوق ذلك فقد كانت هي البذرة التي أنبتت بروسيا فيما بعد.

كانت طبيعة الحروب الصليبية تحمل التناقضات نفسها بين طائفة الفرسان ذات الأصل الفرنسي وطوائف الفرسان الألمانية وهي التناقضات التي ظهرت بعدها بمئة عام، وهي الحروب التي خاضتها البابوية مع من يقودون الإمبراطورية الألمانية، فقد كانت وما زالت فرنسا دائماً هي البلد الذي انطلقت منها الحركة الصليبية، ولكن لماذا فرنسا بالذات؟ وما هو تأثير بلد المنشأ على تلك الحركة في الحقيقة؟ وما هي الشرارة التي أشعلت الحماس طوال مئات السنين؟ ذلك الحماس الذي فجر المواجهة العنيفة مع الإسلام؟.

لقد كانت بذرة الإصلاح الكنسي في فرنسا تكمن في دير كلوني، ذلك الذي تمثل في إعلان أن السلطة الدينية هي الوحيدة التي تحمل لواء الربوبية، وأن كل ما له صلة بالدنيا الأرضية هباء، بما في ذلك الملك الذي كان - وفقاً للتقاليد الجرمانية القديمة - صاحب قداسة، وهذا يعني أن أي قسم بالولاء تجاه أي سلطة دنيوية يصبح الآن عديم الجدوى؛ لأن كنيسة المسيح هي التي يعقد لها وحدها لواء القيادة المسيحية، وبعد أن كان البابا يبتهل لطلب المساعدة على أيام "شارلمان العظيم" و "بيبن" لكي تقوم الملوك بحماية الكنيسة، فقد قام الأب المقدس الآن بتكليف الفرسان بتلك المهمة متجاوزاً الملك الفرنسي الضعيف وأصحاب الإقطاعيات. وهكذا دخل الفرسان في خدمة الكنيسة وأصبحوا في نظرها جنود المسيح.

وبذلك فإن البابا جريجور السابع، الذي أصبح الآن أقوى الباباوات، عمل انطلاقاً من إدراكه لسلطته الجديدة على إخضاع القيصر هينريك الرابع وإذلاله

أشد الإذلال ولم يتورع في سبيل بسط سيطرته من جديد على كنيسة روما الشرقية التي انسلخت عن سلطة البابا، عن التفكير في الجمع بين منصب البابا وقائد الجيش لكي يزحف على رأس جيش من الفرسان ويقوم بنفسه بإخضاع الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى التي يتهددها السلاجقة، فلقد كان في وسعه أن يستند إلى فكرة تخليص البلاد من السلاجقة على أنها رغبة مقبولة للقيام بحملته، ولكن انقضت إحدى وعشرون سنة ولم تخرج هذه الخطة إلى حيز التنفيذ.

كانت بيزنطة قد التقطت أنفاسها منذ وقت طويل، وبدأت من جانبها تتأهب لاستعادة آسيا الصغرى، ولكنها كانت بحاجة إلى معونات حربية، وهنا تلقف البابا أوروبان الثاني - ذو الأصل الفرنسي- المشروع الذي بدأه سلفه وأعلن في كليرمونت بأوفران أمام نبلاء فرنسا وفرسانها عن حملته الصليبية من أجل مساعدة الأشقاء المسيحيين الذي زعم أنهم مهددون، ولم تبلغ حالتهم مثل ذلك الحد من الشقاء كما هو حادث الآن، ووعدهم بالخلاص من آثامهم ومنحهم الجزاء الأبدي مقابل تحرير الأماكن المقدسة من "نير الكفار الأشرار" - حسب قوله- والذين لم يسببوا ضرراً لأي كائن في حقيقة الأمر، وهكذا نجد أن كلاًّ من روما وبيزنطة قد أخفيتا خططهما الحقيقية في حين أعلنتا مبادئ دعائية تهدف إلى حشد قدر كاف من الأتباع لتأييد أهدافهما؛ فعلى حين يطالب هذا الجانب بتقديم العون لمواجهة الخطر المميت- في رأيهم - من جانب السلاجقة، نجد أن الجانب الآخر يدعو إلى إنقاذ قبر المسيح الذي وقع في الأيدي العربية التي دنّسته.

ولقد كان من جرّاء الروح الكنسية التي تقسم الإنسانية إلى قسمين، مسيحيين وكفّار، أن نتج عنها عواقب وخيمة باستباحة حرمات هؤلاء الآخرين وسفك دمائهم دونما وازع أو يقظة ضمير.

أثمرت تلك الروح ثماراً ضارة؛ وذلك لأن التعصب العقائدي الذي يثيره مثل ذلك التعسف الذي زاد من حدته المقاومة العنيفة غير المنتظرة التي واجهتها الجيوش الصليبية في زحفها خلال أوروبا وآسيا الصغرى، الذي كان عادة ما يستغرق السنين الطويلة، ثم وصل ذلك التعصب إلى ذروته نتيجة للمشقة والجوع، وحرارة الجو والعقبات التي لم تخطر على بال، وظهر هذا في أفعال مريعة مهولة، ولهذا السبب فإننا لا نشعر بالدهشة لكون تلك الحروب الصليبية التي أخذت بداية فظيعة نتيجة لحمامات الدم البشعة التي قام بها الأوروبيون الغربيون، وبصفة خاصة الفرنسيون وجيوشهم الصليبية (باسم الرب)، تلك الجيوش التي كان العرب يطلقون عليهم اسم «الفرنجة» وقد اقتحمت هذه الجيوش القدس يوم ١٥ يولية ١٠٩٩ بصورة دموية، لا تشعر بالدهشة لكون تلك الحروب الصليبية ما زالت تمثل في الوعي العربي بقعة تلوث الثوب الأوروبي لا يمكن إزالتها.

ولقد تدفقت مشاعر الألم التي سببها ذلك الشقاء على أيدي الغزاة معبرة عن نفسها في أبيات مظفر الله الوردي وتحولت على يديه إلى دعوة للجهاد والحرب المقدسة والتي يجب أن يخوضها العرب:

انسابت دماؤنا غزيرة لتمتزج بدموعنا

فلم يعد منا من هو قادر على دحر العدو الذي يهددنا

إن من يذرف الدمع يشعر بالأسى تجاه قعقعة السلاح

بينما تحرق الحرب كل شيء بسيوفها البراقة

يالهذه الدماء التي تدفقت

والنساء العزل إلا من صفحة أيديهن

يحفظن بها الحياء

وتضرجت نصال السيوف اللامعة باللون القاني

كما غطت الدماء سنان الرماح الذهبية

وبين طعنات الرماح والسيوف تصبح جباه

الأطفال بيضاء من الخوف الشديد

إنها حرب مرعبة تجعل من نجوا من أهوالها

ويأملون في البقاء يصرون على أسنانهم غضباً وحزناً

إنها حرب كالسيف الذي يرتعش في أيدي الكفار

يقطع الرقاب والرؤوس كالنصل الحاد

تحفّظ الألمان حتّى الحروب الصليبية

لم تتوهج الشرارة التي انطلقت من كلير مونت في ألمانيا بل على العكس قوبلت الدعوة الفائقة الحماس بالرفض ولم تجد الدعوة إلى "الأعمال الصالحة" التي تتمثل في قتال الكفار لتحقيق خلاص النفس وغفران الخطايا كما ذكر البابا، لم تجد لها هناك أرضاً خصبة، ولم يجد الناس سوى السخرية يواجهون بها من يتوجهون إلى الحروب الصليبية ناعتين إياهم بالحمقى وعملهم بالحمق.

ولا شك أن الخلاف بين القيصر والبابا كان له دوره في هذا الشأن.. ألم يكن جريجور السابع هو الذي أرسل قبل وقت قصير إلى القيصر وأساقفته لاعناً إياهم؟ بل ألم يتحمس في الدعوة إلى تجهيز حملة صليبية ضد القيصر وضد المملكة؟ وفوق ذلك فإن الادعاء الظالم من جانب "ممثل الرب على الأرض" كان السبب في خلخلة دعائم الإمبراطورية والقضاء على نظامها وأمنها الداخلي وأدى إلى "أن يلف الظلام أركان الأرض جميعاً" حسب ما جاء على لسان أوتو فون فرايزنج، وأدى ذلك أيضاً إلى إلحاق أشد الضرر بمكانة الأب المقدس في روما لدى الشعب البسيط في ألمانيا، كذلك جرؤ المجلس الكنسي للمملكة في فورمس على إعلان أن صاحب الكرسي المقدس ليس جديراً بالمنصب الرفيع..!

ولم تكن الإمبراطورية الألمانية تهتم بقضية الحروب الصليبية التي أصابت فرنسا بشكل خاص، بحالة انتشاء سرعان ما أصابت عدواها كل أوروبا الغربية فارضة عليها ذلك الانفعال الديني الذي كان يصعب السيطرة عليه، بل إن الإمبراطورية الألمانية ظلت طوال خمسين عاماً الدولة الكبرى الوحيدة التي لم يجرفها ذلك التيار العام. حتى عندما كانت شرارة التعصب المذهبي التي استخدمت كافة أساليب الدعاية الجماهيرية لنشرها قد نفذت إلى بعض أجزاء

الإمبراطورية، إلا أنها لم تشملها برّمتها، وذلك لأن الألمان كانو منشغلين بالقبائل الجرمانية الشرقية الوثنية على الجانب الآخر من نهري إلبة وفايكسل حتى يستطيعوا هدايتهم، كما كانوا مهتمين بتعمير ونشر التقدم في بلادهم التي توسعت نتيجة لهجراتهم، ولذلك لم يهتموا كثيراً بمقاتلة المسلمين في أقاصي الأرض، واقتصر الأمر على بعض الحجاج أو الفرسان الصليبيين الذين كانوا ينضمون إلى الأسراب الضخمة الشبيهة بالجراد التي تضمها القوافل الفرنسية والإنجليزية المتجهة إلى هناك.

وأدى ذلك التحفظ الألماني في المشاركة في الحرب الصليبية الأولى إلى أن اعتبره الفرنسيون بداية إساءة تحولت إلى شعور بالريبة والاحتقار تجاههم.

وكانت فرنسا تشعر أنها حاملة لواء المسيح وطليعة جيشه وزعيمته وأن العالم يدين لها: لأنها أنقذته من الإسلام بينما كان الألمان قابعين في سلام في وطنهم، وهذا ما عبر عنه جوبير فون نوجينت في بداية القرن الثاني عشر، الذي ألف كتاب "فرنسا تنفذ أوامر الرب".

بل إن خطب القديس بيرنهارد فون كليرفو الحماسية حول الحروب الصليبية التي ألقاها عام ١١٤٦م لم تستطع إلهاب الحماس في ألمانيا، فما بالك بإشعال نيران جامحة كتلك التي شهدتها فيزلاي في مقاطعة بورجوند، ولكن بدء عمليات اضطهاد اليهود بواسطة دعاة الحروب الصليبية من أنصار راهب رابطة "إلسيسترزين" كانت مبرراً لذهابه إلى فرانكفورت ليحاول إقناع ملك ألمانيا، إلا أن ذلك الراهب الذي تعود على النجاح تلقى رفضاً قاطعاً من الملك كونراد الثالث، ولكن الجولة التي قام بها في جنوب غرب ألمانيا أحيت آمال الشعب الذي أضنته المجاعة، والقحط، ويتوق للخلاص بقوّه لكي يحصل على الثروات

والجزاء الحسن في القدس الجديدة. ولم تفلح المحاولة الثانية التي قام بها ذلك الخطيب المفوه في البرلمان بمدينة شباير؛ لحمل الملك كونراد على رفع راية الصليب إلا أن ذلك الداعية إلى المسيح لم يثنه شيء هذه المرة عن عزمه في الإيقاع بضحيته فكان عليه أن يبذل قصارى جهده مع ذلك الملك الألماني العنيد، فاندفع في محاولته الثالثة إلى الملك موجهاً إليه تحذيراً شخصياً متخذاً مسوح المسيح ذاته في شكله وحديثه شاحذاً كافة مواهبه في الإقناع، وصاح فيه بصوت الرب الجليل: "أيها الرجل. . ماذا كان في وسعي القيام به لك أكثر من ذلك ولم أفعله؟ " وأخيراً أصدر تنهيدة ارتياح تدل على نجاحه في مهمته: "إنها معجزة المعجزات! " وهكذا استطاع أن يستميل الملك الألماني، وفي الحال استخدم بيرنهارد كل ماله من نفوذ على طائفة السيسترزين لكي يبقي على قوة الدفع قائمة في ألمانيا، ولكن ذلك لم يتفق مطلقاً مع حسابات البابا الذي كان يعتبر الحروب الصليبية من شأن فرنسا وحدها - وهو ما اتضح الآن- وأراد الاحتفاظ لملكها لويس السابع بالقيادة عليها، في حين أنه كان يفكر في استخدام الألمان لمساعدته في مشاكله التي كان يعاني منها في إيطاليا.

بيد أنّ مشاعر التشكك والرفض كانت تمتزج على الرغم من ذلك مع الإحساس المتنامي بأهمية الحروب الصليبية، فقد تحدث مؤلف دوريات فيرتزبرج عن "قدوم عدد من مدعي النبوة أو من يدعون بدعوة المسيح الدجال وحاولوا تضليل الناس مستخدمين عبارات بالية"، وكان من نتيجة ذلك فيما قاله: "لقد عم الهوس الناس الذين أخذوا يرمون بأنفسهم في خضم أخطار نفسية وجسمية بعيدة الأثر، وكاد ذلك الهوس يؤدي بهم إلى هلاك شامل!.

رافق الطالع السيئ حملة الملك كونراد منذ بدايتها، وتناقلت الألسن روايات عن وجود محاولات شيطانية من جانب "أتباع الشيطان" الذين استخدموا أساليبهم الملتوية في إقناع الملك بتوجيه حملته إلى القدس، كذلك رفض أمراء شمال ألمانيا أمام الريشتساج (البرلمان) القتال ضد الكفار في تلك الأراضي النائية، في حين أن القتال ضد الكفار على الجانب الآخر من الحدود قضية واجبة، وعلى حين كان هؤلاء المعارضون يوجهون حملتهم الخاصة نحو الشرق الألماني، فإن جيش الملك المتجه إلى الشرق عبر الإمبراطورية البيزنطية والذي كان يزداد عدده باستمرار نتيجة لانضمام الحجاج والنساء والأتباع إليه، كاد يفنى تماماً خلال ذلك الطريق المحفوف بالأخطار بسبب تعرضه لكوارث الفيضانات والسهام المميتة التي أمطره بها السلاجقة، وعاد جزء كبير ممن بقوا على قيد الحياة إلى ألمانيا في حين حاولت القلة الباقية مواصلة طريقها إلى الأراضي المقدسة، وقد نجح البعض في ذلك بعد مشقة مستخدمين طريق البر، كما نجح البعض الآخر الذي سافر بحراً مع الملك، ولكن هؤلاء جميعاً بقوا هناك أربعة أشهر فقط قام خلالها كونراد بحصار دمشق مدة ثلاثة أيام فحسب، ذلك الحصار الذي انتهى سريعاً بسبب التناقضات الوطنية بين المسيحيين، وبسب الخيانة، وحين رفع الملك بعدها مباشرة مرساته للرحيل مرة أخرى كان عزاؤه الوحيد أنه قد صلى عند قبر المسيح بالقدس.

سيد عظيم يغذ السير
نحو الأراضي المقدسة

كان "هاينريش ديس لويفين" أقوى رجل في المملكة بجانب القيصر فريدريك الأول، ولا يمكن تصنيف حملته "الصليبية" الخاصة (عام ١١٧٢م) بأنها كانت حملة صليبية حقيقية ولا حتى رحلة من أجل الحج، لأن مثل ذلك الرجل العظيم الواثق بنفسه والذي ضم إلى المملكة مناطق شاسعة شرق نهر الإلبة مع منطقة ميكلنبورج واستحق من ثم لقب دوق ساكسونيا وباڤاريا، لم تكن طبيعته لتتواءم مع مظهر الحاج التقي الورع، ولا مع طبيعة المناضل من أجل العقيدة، فما بالك بأن يكون متأثراً بعقدة معاداة المسلمين!.

كذلك تميزت حملته عن كل ما عداها بأنه تمكن من العودة إلى وطنه بعد فترة قصيرة مع جيشه المؤلف من ألفي رجل ليس فقط دون إراقة دماء أو أن يصيبهم سوء - إلا إذا كان بسبب المناخ أو الأمراض- ولكنه رجع في بداية عام ١١٧٣م بجيش أكبر من الذي ذهب به قبل أقل من عام وحدث ذلك على الصورة الآتية:

لم تكن محاربة المسلمين في الحقيقة هي الشغل الشاغل لذلك الرجل، كما أن ذلك لم يكن راجعاً - كما يدعي البعض- إلى أنه لم تتح له فرصة القتال بالقرب من طبرية عند بحيرة الناصرة، بل إن ملك القدس وقيصر بيزنطة استقبلا ذلك الدوق الساكسوني استقبال السادة العظام، وبهذه الصفة جاس خلال البلاد وزار الأماكن المقدسة ووهبها الثمين من العطايا وأمر بتزيينها بأضواء تنير دوماً، وكذا بحليات من الفضة وزينات ثمينة أخرى، كذلك قام بتزويد فرسان المعبد وفرسان

يوحنا بالأسلحة والعطايا المالية الضخمة، وحتى يؤمن رحلته خلال العودة بيسر وسهولة فإنه أرسل رسله مقدماً إلى أمير قلقيلية، وهو من الأرمن المسيحيين وكان يشتهر بمكائده وعدوانيته.

وفوجئ بأن هناك جيشاً من خمس مئة فارس ينتظرونه في طرسوس، عبارة عن رسل مدينة قونية وكانت مهمتهم هي استقبال الدوق الألماني وجيشه أثناء عبوره "قلقيلية" حتى يصل في أمان إلى حيث يقيم السلاجقة، وفي قونية اقتيد الدوق على الفور إلى السلطان، ويمكننا أن نقول إن الاستقبال الذي أعده القائد المسلم كان يزدري بكافة الدعايات الغربية البشعة، بل إنه فاق إلى حد بعيد ما كان يتوقعه الدوق القادم الذي كان يعتريه بعض القلق، استقبل السلطان الدوق هنريك في أبهة تخلب الألباب، ولا يرجع ذلك فحسب إلى أنه يستقبل ضيفاً عزيزاً، وإنما لأنه أراد أن يتقدم إلى الدوق ببادرة ودية طيبة، إلا أن المفاجأة عقدت لسان الدوق حين أخبره السلطان أنه يمت إليه بصلة الدم، ذلك أن سيدة ألمانية فاضلة كانت قد تزوجت جده ومن ثم فإن الدم الألماني يجري في عروقه.

وكانت مثل تلك الزيجات قد تمت بالفعل بين أميرات الصليبيين والأمراء العرب، كما حدث مع الكونتيسة النمساوية إيدا التي شاركت في حملة أسقف سالزبورج وأصبحت أماً لزنكي[1] الذي كان عدواً للمسيحيين، ويقال في رواية أخرى إنها أم صلاح الدين ، كما أن تاريخ الإمبراطورية يورد أنباء مشابهة عن أميرة باڤاريا "آجنيس" .

وهكذا أيقظت زيارة الضيف الألماني الكبير لدى السلطان كافة مشاعر الفروسية لدى الضيف، وزيادة في تكريم ضيفه فإنه وهب جميع أسراه من

---

(١) هو عماد الدين زنكي عم صلاح الدين.

المسيحيين حريتهم ولم يكن عددهم بالقليل! .

وهكذا عاد هؤلاء الأسرى مع جيش الدوق إلى القسطنطينية وإلى أوروبا حيث ذهب كل منهم إلى موطنه، كذلك حمَّل السلطان ضيفه بهدايا قيمة تشمل الكثير من الأزياء الفاخرة المصنوعة من الحرير البراق والمرصعة بالأحجار الكريمة واللآلئ، كما منحه فهدين من فهود الصيد المستأنسة، وقد تم سك عملة معدنية تحمل صورة هنريك مع الفهدين.

وكان تمثال الأسد الذي كان مذهباً، وقد أقامه الدوق هنريك -قبل ست سنوات من حملته الصليبية- كرمز لعدالته ولإرادة السيطرة والحكم لديه قد ألهب خيال شعبه، وقد وضعه في ساحة قلعته "دانكفردارودة" بإمارته الواقعة على الحدود والتي مُنحت لآل فيلفن، ذلك أن الوثائق والأوراق التاريخية اللاتينية قد اعتادت من قرون ترجمة اسم الجنس "الفلفن" أي أنثى الحيوان الضاري بكلمة "ليو" أي الأسد، ولذلك فإن أسرته، أبوه وهنريك نفسه كانوا يحملون شعار الأسد كرمز تقليدي فوق عملاتهم وأختامهم، ولذلك غير هنريك التسمية القديمة واستبدلها بالشعار الذي جاء من الشرق واستقر منذ منتصف القرن الثاني عشر.

أما اسمه الآخر "الأسد" فإنه ارتبط بعد وفاته بدوق سكسونيا مأخوذاً عن الأسطورة التي نسجت خيوطها حول ذلك الأمر غير العادي على الإطلاق في ذلك الحين، أي إقامة نصب تذكاري لأحد الحيوانات، فهل في وسعنا أن نجد تفسيراً لذلك في مكان آخر سوى في الشرق؟ إذ كيف وصل ذلك الأسد إلى براونشفايج ليحظى بمثل ذلك التقدير؟ لقد انتشرت أسطورة هنريك في مجموعة كاملة من الملاحم وأشعار الفروسية وأهازيج هانزساكس ومن خلال الأغاني الشعبية، بل وأيضاً ظهرت في إحدى الأعمال الأوبرالية، وقد اتخذت تلك

الحكاية شكلين بصفة أساسية : أحدهما تقول إن هنريك تغلب في معركة شخصية جرت في الشرق على أحد الأمراء العرب ولكنه عفا عنه بشهامة الفرسان فكان أن أهداه الأمير العربي أسده المستأنس تعبيراً عن امتنانه .

أما الرواية الأخرى فتقول : إن هايزيش قد أنقذ حياة الأسد في الصحراء حيث قام بقتل التنين الذي كان يهاجمه ، مما حدا بالأسد إلى أن يسير وراء منقذه أينما ذهب وحيثما أقام، كما ساعده في مواجهة كافة الأخطار والمآزق ، ولكن الروايتين تتفقان في أن الأسد بعد وفاة سيده رقد فوق قبره حتى مات هو الآخر مما حدا بأرملة الدوق إلى إحياء ذكرى رفيق زوجها المخلص القادم من الشرق عن طريق ذلك النصب التذكاري المعدني ، وفي الحقيقة ، فإن مجلس مدنية براونشفايج التي اتخذت الأسد كذلك شعاراً لها احتفظت لوقت طويل بأسد حقيقي داخل "برج الأسد" عند بوابة لاوبن بكولين ماركت ، وهو البرج الذي تهدم عام ١٥٤٤ .

هل كانت حروب آل شتاوفن

حملات صليبية

بدأت الحروب الصليبية تتحول بالتدريج إلى أداة في أيدي البابوية تستخدمها ضد الإمبراطورية وضد النظام القيصري الألماني الذي كان ينافس راعي الكنيسة المسيحية بادعائه القداسة كما يفعل هو، وهو ادعاء له في الحقيقة جذور قديمة في المملكة الجرمانية وهو ما كان على كافة القياصرة الألمان منذ شارلمان العظيم الدفاع عنه ضد كبار رجال الكنيسة في روما، وقد استخدمت السلطة البابوية الحملات الصليبية في الوقت نفسه بهدف إضعاف وتدمير استقلال الإمبراطوية إلى الحد الذي جعل باباوات روما يستخدمون الضرائب التي فرضوها من أجل الحملات الصليبية في محاربة أسرة هوهنشتاوفن، بل لقد وصل الأمر إلى حد مطالبتهم بتجريد حملة صليبية ضد القيصر والإمبراطورية الألمانية، ولذلك فإنه حين اتخذ آل هوهنشتاوفن قرارهم بالمشاركة في الحروب الصليبية فإنهم كانو يعمدون إلى مواجهة البابوية ونزع السلاح السياسي الذي اتخذته لمواجهة الإمبراطورية وتسخيرهم لخدمتهم هم.

ولهذا السبب فإن تلك الحملة الصليبية التي لم يدعُ إليها البابا ولا الكنيسة، ولكن دعا إليها القيصر وقادها بنفسه، لم تكن لتلقى ترحيباً أو قبولاً من جانب البابا؛ لأن ذلك تجاوز ما كان يهدف إليه البابا من وراء الضغط الذي مارسه على القيصر، لأن تلك المبادرة من جانب القيصر كانت بمثابة قلب لأوضاع وموازين القوى؛ ولذلك فإنه خلال حكم فريدريك الثاني لم تجد الكنيسة أمامها سوى أن

تطرده من رحمتها لكي تحول دون خروج تلك الحملة الصليبية أو بمعنى أدق حملة آل شتاوفن. وهكذا فإن الحملات الصليبية الثلاثة التي قامت بها الأسرة الحاكمة لم تنجم عن الحماس الديني ولا بدافع الرغبة في تدمير الكفار أو هدايتهم "وفقاً لما جاء في أيدولوجية بيرنهارد فون كليرفو التي كانت ملزمة للحملات البابوية، ولا التكبر المسيحي إزاء العقوبة. والذي كان من شأنه إعطاء المبرر للانضمام إلى الحروب الصليبية، كما لم تكن حملات آل شتاوفن تتسم بعداء ديني صريح للإسلام وهو المبرر الذي استندت إليه الحملات الباباوية التي جاءت فيما بعد وغيرت بذلك من المفهوم الأساسي للحروب الصليبية، ولذلك فإنه من المؤكد أن القتال ضد الكفار لم يكن هو هدف حملات آل شتاوفن الصليبية (كانت تلك التسمية صحيحة لتلك الحملات، وكان ذلك هو نفس ما يميزها عن غيرها من الحملات التي قام بها فرسان أوروبا الغربية وملوكها).

وعلى هذا الأساس فقد كانت لدى الإمبراطورية دوافع وأهداف سياسية عليا (في المقام الأول): فالقيصر فريدريك الأول كان يسعى إلى دعم أركان الإمبراطورية وتأكيد مكانتها بصفتها قوة عظمى في مواجهة سلطة البابا التي كانت تزداد عداء للمملكة، أما ابنه هينريك السادس قيصر الصقليتين فكان يسعى إلى توسيع رقعة ملكه لتصبح واقعًا ينضوي تحت لوائه الكثير من الشعوب، وكان ذلك التأكيد على سلطة الإمبراطورية يجمع بين التقاليد النورماندية- الصقلية وتقاليد الإمبراطورية الرومانية، وهكذا تمكن هينريك السادس من منطلق سلطاته الإمبراطورية من بسط سلطانه على قبرص وأرمينيا اللتين طلبتا الانضواء تحت رايته فسار على رأس "حملته الصليبية" إليهما حيث توج ملكاً، وكانت تلك الحملة مجرد حركة شطرنج في إطار اللعبة العالمية التي كانت تهدف - في الأساس- إلى

إخضاع بيزنطة التي كانت مبررات سيطرته عليها أقوى من تلك المبررات بالنسبة إلى فلسطين مثلاً، وكانت تلك طريقة لبقة في إخراج البابا المبجل من اللعبة؛ مما جعل هينريك السادس يدعو الجيش إلى الانطلاق دون أن يحتاج إلى مساندة البابا له؛ لأن دعوته تلك لم تتحدث عن تحرير القدس ولا محاربة الكفار مما زاد الطين بلة في أعين البابا.

وكان مما يتعارض مع روح الحملات الصليبية كلها حسبما كان البابا أو بيرنهارد فون كليرفو يتمناها هو: أن فريدريك بارباوسا الأول كان يتبادل الرسائل الودية منذ وقت طويل مع السلطان صلاح الدين.

ففي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين وفداً إلى فريدريك في أخن يحمل رسالة غريبة: أن يتزوج ابنه من ابنة القيصر ويتوج هو ملكاً مسيحياً، ولقد أبقى القيصر الرسل لمدة ستة أشهر في بلاطه وجعلهم يزورون عدة مدن في الإمبراطورية، وفي العام الذي تلاه أرسل فيتستهوم "Vitzthum" بوخارد من شتر أسبورج إلى صلاح الدين يحمل رسائل منه وكلفه ببعض المهام.

وذات يوم تأتي أنباء منذرة بالخطر من الأرض المقدسة، ذلك أن أكبر الكوارث التي حلت والمتمثلة في خسارة المعركة فوق مرتفعات الجولان عند حطين عام ١١٨٧ وفقدان الصليب المقدس وخسارة القدس التي أصابت الفرنجة المحتلين في مقتل، كان عمق هذه الكارثة مساوياً لعمق الشكوى التي عمّت الغرب مما جعل الدعوة إلى القيام بحملات جديدة أقوى من كل ما سبق حتى ذلك الحين وذلك بهدف الإسراع بمساعدة الفرنجة الذين خسروا مواقعهم في الشرق، وفي هذه المرة فقد أخذت الدعوة تتجه مباشرة إلى ملوك أوروبا على أمل تحقيق أكبر تأثير ممكن.

ومن الأمور التي ميزت ذلك الوضع بشكل أوضح هو فشل الجهود في تحقيق تأثير لدى الألمان، ومن ثم فقد تكرر ما نعرفه بالفعل عند الملك كونراد الثالث خال القيصر بشكل دقيق للغاية.

ذلك أن البابا مكيمينس الثالث يطالب القيصر فريدريك الأول أن يشتري صكوك الغفران وينال الحياة الأبدية بقتال الكفار لكي ينال الكنوز الكثيرة في السماء، ولكن دون جدوى. كذلك فإن تكرار المطالبة من جانب الرسول الباباوي الكردينال هينريك فون ألبانو لم تستطع أن تدفع القيصر إلى حمل الصليب، وحتى المحاولة الثالثة للكردينال الذي استخدم في برلمان شتر اسبورج قدرته الخطابية الهائلة، لم تجد لدى القيصر آذاناً صاغية.

ولكن حين عزم فريدريك رغم ذلك بعدها بعام على أن يتحرك على رأس فرسانه إلى الشرق (بادئاً حملته) حيث استبعد هذه المرة بعناية كافة الأتباع والسائرين في ركابه، فإنه فعل ذلك بقرار ذاتي على مسؤوليته الخاصة مخاطراً بإغضاب البابا، كذلك لم يكن الحماس للصليب أو للروح الصليبية هو الذي يثير الحماس لدى جيشه المؤلف من ثلاثة آلاف فارس منظمين جيداً (بقدر ما يثيره) مرأى قيصرهم والولاء له ويدفعهم للسير وراءه.

ولكن قبل أن يبدأ القيصر حملته بعام كامل كان قد أجرى اتصالاً مع صلاح الدين في ٢٦ مايو ١١٨٨ فقد أخبره فريدريك في خطاب حمله الكونت هينريك فون دمتيز إلى السلطان في مصر، أخبره كما يفعل الفارس نحو زميله في المعركة وعلى طريقة الفرسان أنه يعلن عليه الحرب بل إنه حدد وفقاً للتقاليد القديمة مكان وموعد ذلك اللقاء، يوم أول نوفمبر ١١٨٩ في منطقة تسوان، كذلك كان يبدو أن الأمر يحمل الأسى حين كتب يقول له إنه مضطر الآن إلى مواجهته عسكرياً

وهو يمتلك ولايات كثيرة في آسيا وإفريقيا تعتبر تابعة له هو بصفته القيصر الروماني أو سليل القياصرة الرومان، كذلك فإنه طالب صلاح الدين بأن يعيد إليه مدينة القدس التي استولى عليها وإطلاق سراح الأسرى الفرنجة.

ولقد رد الحاكم العربي على "صديقه الصدوق، العظيم السامي فريدريك، ملك ألمانيا" دون تأخير وقد عرض عليه إطلاق سراح كافة الأسرى الفرنجة، بالإضافة إلى حرية المرور إلى القبر المقدس والممارسة الدائمة للشعائر الدينية المسيحية في كنيسة القبر، ولكنه عرض إعادة كافة القلاع التي كان يحتلها الفرنجة الغزاة، وهو ما لم يكن لفردريك حقاً سلطان عليه.

ولقد كانت تلك تنازلات عادلة، ولكننا لا نعرف طبيعة الإجابة التي أعطاها القيصر الفارس للسلطان في ميدان (تسوان)، وذلك لأنه لم يحافظ على موعد لقائه، بل لم يطأ الأرض المقدسة مطلقاً، ونحن نعرف السبب المأساوي لذلك، فقد غرق القيصر يوم ١٠ يونيه في الفيضان الجارف الجارف في "سالف "Saleph".

وربما يمكننا هنا أن نتحدث عن قيصر ألماني آخر قام بعدها بسبعة قرون بلفتة تكريم تتسم بشهامة الفروسية تجاه الفارس العظيم صلاح الدين فوق نفس المسرح الذي شهد الصراع بين الشعوب حينذاك[1] أقام قبراً كبيراً وأمر بأن تدثر عظامه في كفن من المرمر وأن يعلق فوقه قنديل يحمل بجانب اسم السلطان السابق، واسمه بصفته باني القبر "فليهلم الثاني من أسرة هوهينتسولرن" كذلك فإنه أقام للسكان العرب في القدس مستشفى تديره الراهبات المسيحيات لا يزال يعمل حتى اليوم.

---

(١) وذلك حين أقام في موضع قبره شبه المتهدم في دمشق والذي ضاعت معالمه بجانب المسجد الكبير مباشرة.

وكانت كارثة " سالف " قد أدت إلى أن يفقد جيش الفرسان بعد فقد قائده، حماسه ويصيبه الوهن نتيجة للأوبئة والمعارك، ومن ثم عاد الجزء الأكبر منه إلى الوطن، في حين أن البعض انتحر حزناً على القيصر، ووقع كثيرون في الأسر وعرضوا للبيع كعبيد في أسواق الشرق ووصلت شراذم منهم فقط إلى فلسطين، وهناك مهّد (جويدو فون لوريجنان) ملك القدس السابق الذي لا يحفظ عهده والذي أطلق صلاح الدين سراحه بعد أن هزمه بناء على كلمة شرف منه، مهّد لحصار عكا.

ولقد امتد ذلك الحصار لسنوات طويلة وكان جويدو يتلقى دوماً المساعدات من قوات النورمانديين والدانمركيين والإنجليز بزعامة ريتشارد قلب الأسد والفرنسيين تحت لواء الملك فيليب أغسطس.

وقد جاء إلى هنا أيضاً الكونت الألماني لودفيج فون تيرنجن ولكنه بعد أن قضى عدة أسابيع تعيسة تخللتها الخلافات بين الألمان والفرنسيين وتبادل الاتهامات بخصوص العلاقات بين الكونت والسلطان صلاح الدين، ونتيجة لمعاناته الشديدة من حمى الملاريا التي أصابته اضطر الكونت إلى بداية رحلة العودة إلى الوطن، ولكنه مات قبل أن يصل إلى قبرص.

والآن ماذا عن الشائعات التي تقول إن صلاح الدين قد سرب سراً إلى معسكر الكونت بعض البدو بغرض القيام بأعمال تخريبية؟ إن الصحيح هو أن صلاح الدين قد أرسل أحد أطبائه ومعه بعض الأدوية إلى ذلك المريض الألماني، وأرسل إليه أيضاً بعض ما يعيد إليه نشاطه، وهو نفس ما فعله مع ريتشارد قلب الأسد عندما مرض، كتصرف نبيل من فارس، ثم هل كانت الأكياس التي يقال إنها امتلأت ذهباً، وكذا الجمال الأربعة والصقور الأربعة والفهدان وهي الأشياء التي

يقال إنها صاحبت لودفيج عند رحيله، هل كانت هدية من السلطان تعبيراً عن صداقته له؟ أم ربما كانت هدايا مقدمة كرشوة؟ لقد كان ذلك في حقيقة الأمر اتهاماً كثيراً ما يستخدمه الفرنسيون عندما يتشدقون في أمر ما مثلما حدث قبلها مباشرة عندما احترق لهم برجان للحصار.. وبنفس القدر فإن ذلك يلقي ضوءاً واضحاً على العلاقة بين الفرنسيين والألمان وبين الألمان والعرب.

وأخيراً وصلت أيضاً بطريق البر مجموعة فرسان ابن القيصر فريدريك فون شفاين التي تناقصت نتيجة للخسائر الكبيرة بسبب الهجمات العربية، وقد زادت الأمراض من إنهاك تلك المجموعة حيث انتشرت خلالها الأوبئة الفظيعة نتيجة للحرمان الذي طال شهوراً رغم وجود فائض كبير من الطعام والشراب، ولأن اليوحانيين أو "الهوسبتال" قد رفضوا - كما ذكرنا - أن يستقبلوا الألمان لديهم فقد امتلأت بهم الأماكن الطارئة التي أقيمت بين سفن أهالي بريمن وتجار ليبيك والمقبرة الغربية من عكا، وحين مات أيضاً ابن بابا روسا، تفككت أوصال بقية الجيشين.

كذلك فقد أقام القيصر هينريك السادس علاقات صداقة مع الأمراء العرب، حين أدى الموت بقوة إلى إنهاء حملته الصليبية، كما أن مجموعة الفرسان الصليبيين والمغامرين الذين أبحروا قبل ذلك لم تجلب للألمان في الحقيقة سمعة طيبة.

أما الحفيد وهو القيصر فريدريك الثاني فون هوهنشتاوفن فإنه أجرى في مقر إقامته الصقلي في فوجيا مفاوضات مستفيضة مع الأمير المصري فخر الدين، مبعوث السلطان الكامل، وذلك بغرض مساعدة السلطان ضد شقيقه ومن أجل معاهدة سلمية بغرض التنازل عن الأماكن المقدسة.

إن هناك القليل الذي يعرفه الألمان أنفسهم والذي يعرفه العالم العربي ؛ ذلك أنه عندما يدور الحديث عن الحروب الصليبية وتحديداً عن تلك الأعمال الشائنة التي لوثت بها المسيحية الغربية نفسها ، فإن الألمان هم أقل الأطراف الذين يشعرون بحمرة الخجل من جراء ذلك ، وذلك أن الأمر لم يقتصر فقط وخلال العصور المختلفة على عدم قيام الجيوش الألمانية بالاستيلاء على الدول العربية أو حتى على القدس بقوة السلاح ، ولا قيامها باحتلال الدول العربية أو استعمارها ، بل إن أحد القياصرة الألمان كان هو الذي ذهب إلى هناك وهو ينوي إقرار السلام في عصر يسوده العداء المذهبي المتعصب والحقد القاتل وذلك على الرغم من أن البابا استمر يضغط عليه طوال اثني عشر عاماً من أجل القضاء على الكفار أو هدايتهم .

وكانت الحملة الصليبية التي قادها فريدريك الثاني بنفسه إلى الأرض المقدسة ، باسم الإمبراطورية ، وأيضاً على غير رغبة البابا المتشدد جريجوروس التاسع الذي أمطره باللعنات ، ولم يكن حماسه المسيحي في عقاب المسلمين هو الذي يملأ عليه جوانحه ، ولكن السعي إلى تحقيق تسوية سلمية مع الخصم الذي يحترمه ويعجب به ، وسعيه إلى إقرار السلام وذلك تبعاً للمفاوضات التي أجراها مع الأمير فخر الدين في فوجيا والذي جعل منه صديقه ووسمه فارساً ، كذلك لم يكن الأمر متعلقاً بالحصول على الأرض ، ولكن فقط بالحصول على تاج القدس الذي استحقه لزواجه بروثين إيزابيلا لكي يضع الأماكن المقدسة من جديد تحت حمايته .

ولكن البابا كان هو الذي لا يريد السلام؛ فلقد أوضح بيرنهارد فون كليوفو في خطابه رقم (٤٥٧) أنه يجب أن لا تكون هناك أية مفاوضات مع العالم الإسلامي ولا أية تسوية أو حتى معاهدة، "طالما هذه الشعوب لا تزال كافرة" وأن هدف الحرب الصليبية هو "القتل أو التنصير"، وهذا يعتبر موقفاً يتعارض تماماً مع الموقف الإسلامي الذي اتسم بالشهامة والفروسية منذ البداية تجاه المسيحيين واليهود في المناطق التي يسيطر عليها الإسلام، كما كان يتعارض مع اتجاهات القيصر الفارس.

ولكن ذلك وحده لم يمنع البابا جريجور التاسع في أي حال من الأحوال من (أن يتحالف سراً مع عدو الكنيسة المذهبي نفسه) على الرغم من قدرته على الإضرار بالقيصر فريدريك الثاني على الدوام، ذلك أن كراهية الأب المقدس للقيصر الألماني صديق العرب كانت أكبر من هدفه الذي سعى إلى تحقيقه عن طريق الحركة الصليبية، أي تحرير القبر المقدس، وقد أعمت الكراهية قلب ذلك الراعي الأكبر للمسيحية وجعلته يندفع إلى إرسال رسالة موجهة لعدوه، السلطان الكافر، يحثه فيها على عدم تسليم الأماكن المقدسة للقيصر.

ولأن القيصر لم ينخدع سواء بالمعارضة الخفية من جانب رجال الدين السوريينو لا من البارونات (النبلاء) الفرنسيين المقيمين هناك ولا من فرسان المعبد ذوي الموقف المعادي له ولا بواسطة عقوبات الكنيسة الصارمة المتمثلة في الطرد من الكنيسة أو إهدار دمه أو أن يُحل أتباع جريجور التاسع من قسم الولاء له، بعد أن عمد البابا إلى إرسال جنوده الرئيسيين البابويين للهجوم على المملكة الصقلية التي غاب عنها حاكمها، ثم كان آخر عمل لإذلال القيصر هو أن الأب المقدس أعد- بالاشتراك مع زعيم طائفة المعبد واليوحانيين- لمحاولة اغتيال القيصر،

ولكن السلطان العربي نفسه كان هو الذي أنقذ قيصر آل شتاوفن ؛ ذلك أن أعداءه لابد قد علموا بأن القيصر سوف يحج مع رفقة قليلة في وقت معين إلى المكان الذي عُمّد فيه المسيح على الضفة اليسرى لنهر الأردن، وعلم فرسان السلطان الكامل بذلك وأبلغوه لكي تتاح للسلطان فرصة الإمساك به هناك وقتله، إلا أن السلطان الذي شعر بالتقزز بسبب تلك الخيانة الوضيعة من جانب «فرسان الخليفة الروماني»، أرسل الخطاب المختوم بخاتم معلم طائفة المعبد إلى القيصر، وكما فعل من قبل خاله صلاح الدين، فإن السلطان الكامل عبّر عن فروسية وشهامة حقيقيتين حين أبلغ فريدريك، ذلك الكافر، بهذا الأمر وجعل من يتشدقون بالحفاظ على الأخوة المسيحية تندى جباههم خجلاً.

الباب الرابع
الفروسية العربية والأوروبية

- الفروسية العربية تصيب البشاعة المسيحية بالخجل.
- القيصر فريدريك الثاني يحقق السلام.
- جذور الفروسية الألمانية والعربية

الفروسية العربية تجعل
القساوة المسيحية تندى خجلاً

لم يعد الانتماء إلى العقيدة وإنما روح الفروسية هي التي أصبحت تحدد الآن (من جديد) طبيعة الجبهات في ذلك اللقاء بين الشرق والغرب، تلك الروح التي تتناقض بشكل واضح مع الروح المسيحية التي تتسم بالتعصب والأفق الضيق.

وبالنسبة إلى طليعة قوات تلك الحملة الصليبية التي انتزع لواءها رسول الكاردينال بيلاجيوس فون ألبانور الذي أراد أن يهاجم السلطان الكامل، ابن أخت صلاح الدين، فوق الأراضي المصرية حدث الآتي لتلك القوات: حين أصدر بيلاجيوس أوامره عند الاستيلاء على قلعة دمياط الواقعة على دلتا النيل والتي دارت حولها معارك طويلة لإغراق السكان العرب في حمام دم حقيقي في ذروة الحماسة التي شهدتها الحروب الصليبية والتي فاقت كلَّ حد، إلا أن السلطان الكامل قام بعدها بوقت قصير، وبغض النظر عن ذلك الحدث بإنقاذ الجيش المسيحي بعد أن هزمه أمام القاهرة حيث بقي عدة أيام يعاني من الجوع الشديد وذلك أنه استمر يرسل إليه وطوال أربعة أيام بـ ٣٠٠٠ رغيف كل يوم وغير ذلك من المواد الغذائية، وبذلك أبقى على ألد أعدائه وأعداء بلاده حين وقعوا بين يديه ومنعهم من التضور جوعاً وذلك بدلاً من أن يرد على الشيء بمثله.

وقد كان لتلك السماحة صدى ملحوظ يتسم بالعرفان في كولون، ذلك أن دوملير أو ليفروس المكلف بالدعوة للحملة الصليبية كتب خطاباً في عام ١٢٢١ إلى السلطان يقول فيه:

" منذ العصور القديمة لم يسمع المرء عن مثال شبيه بذلك الكرم من جانب أعداء كثيرين تجاه أسراهم، ومنذ أن وضعنا الله بين يديك، لم نعرفك كطاغية أو حاكم، ولكن كأب لا يفعل إلا كل ما هو طيب، آخذ بيدنا ونحن نواجه الأخطار، كذلك فإن ذلك العمل الشهم كان يصعب إدراكه بالنسبة إلى رهبان كنيسة الروم في كولون: إذ من ذا الذي يمكنه أن يتشكك في أن ذلك الكرم والود وطيبة القلب مستمدة من الله، ذلك أن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأشقاءهم وشقيقاتهم بعد أن أذقناهم مرّ العذاب، قد قاموا هم أنفسهم بإمدادنا بطعامهم الخاص بهم ونحن مشرفون على الموت جوعاً وعاملونا بمختلف أنواع الكرم على الرغم من أننا كنا نخضع لسيطرتهم وسطوتهم".

إلا أن ذلك العمل من أعمال الفروسية لم يكن استثناء فريداً، ذلك أن الشهامة العربية كانت تسبب المرة تلو الأخرى الخجل للمسيحيين الذين يعكرون السلام دون هوادة، مثلاً كما فعل أوائل الفرسان الصليبيين في أنطاكية المحتلة، حيث يقرر أحد شهود العيان المسيحيين: "أنهم غطوا كافة أنحاء المدينة بالجثث. إلى درجة أنه لم يكن في وسع أي شخص أن يتوقف هناك بسبب الرائحة العفنة المتصاعدة منها"، ولم يكن في وسع المرء أن يعبر الشوارع إلا إذا وطأت قدماه رؤوس القتلى» وقد تمثلت الذروة المؤلمة لتلك القسوة المتناهية حين وقع في القدس التي تم الاستيلاء عليها فيما بعد "حمام دم آخر حيث إن رجالنا كانوا يخوضون في الدماء حتى الكاحل، كما حدث أيضاً عندما حاول ميخائيل السوري في وصفه للفرسان الغارقين في الدماء من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم عندما حاول أن يجعل صورة بطريرك القدس ترسخ في ذاكرة الأجيال التالية، حيث كان البطريرك يجوس الشوارع قاتلاً كل المسلمين ودخل كنيسة القبر ويداه ملطختان

بالدماء وقام بغسل يديه وهو يردد العبارة التالية من الإصحاح ٥٨ " سوف يفرح العادل عندما يرى ذلك الانتقام وسوف يغسل رجليه في الدماء الكافرة " .

وحين حرر صلاح الدين القدس من جديد عام ١١٨٧ بعد أن ظلت ٨٨ عاماً تحت سيطرة الفرنجة ، فإنه أبقى - على النقيض من تلك التصرفات المشار إليها تماماً- على حياة السكان المسيحيين عن طريق إصدار أوامر صريحة بذلك إلى فرسانه ، كما منحهم حرية الانسحاب والحماية المسلحة أثناء ذلك ، كما منح الموسرين مهلة أربعين يوماً لتقديم الفدية ، ومنح (الأقل غنى) حريتهم مقابل مبالغ بسيطة ، وحين طلب منه أخوه أن يطلق سراح ألف شخص دون أية مبالغ فإنه وافق كما فعل نفس الشيء بالنسبة إلى خمسة آلاف من كبار السن ، وحين طلب شيخان من الذين شاركوا في عملية الاستيلاء على القدس ، من صلاح الدين- وفقاً لما يرويه أحد المؤرخين المسيحيين- أن يسمح لهما بالبقاء وقضاء بقية عمرهما في القدس ، فإنه لبى هذه الرغبة وأمر بإعطائهما ما يحتاجانه طالما كان يطلبانه ، وهكذا أمضيا حياتهما هناك " . وفوق ذلك فإنه منح عدوه الكبير ، البطريرك الروماني ، وقائد عملية الدفاع عن القدس وغيرهما من المدافعين ، منحهم حريتهم بناء على رجائهم ، وقد جعل حراسه يرافقونهم حتى حدود أراضي الفرنجة ، حيث قام أحد الفرسان الفرنجة ، بعمل يهزأ بالشهامة الإسلامية يمليه عليه تكوينه الدنيء حيث نهب وقتل كثيرين ممن أطلق سراحهم .

كذلك كانت السماحة والفظاعة تقفان على طرفي نقيض ممثلتان في ذلك الأسلوب الذي كان يتم التعامل به مع الأسرى ، ذلك أنه حين وقع ملك القدس ، جاي دي لوزيجنان في الأسر خلال المعركة السالفة بالقرب من حطين فإن صلاح الدين عامله بكرم وأطلق سراحه بناء على العهد الذي قطعه على نفسه أمامه بألا

يشهر السيف في وجهه بعد الآن . إلا أن ذلك لم يمنع جاي دي لوزيجان من أن يخرق وعده على الفور ، ذلك أن عقدة التفوق المسيحية كانت تسيطر على أمثاله وتجعلهم يقنعون أن المرء ليس في حاجة إلى أن يلتزم بالاتفاقات التي يعقدها مع الكفار ، كذلك فإن الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد الذي كان يعد مثالاً للفروسية لشجاعته وانتصاراته ، قد لوث شهرته تلك بعمل يتسم ببشاعة لايمكن تصورها .

ذلك أنه بعد الاستيلاء على عكا الذي نسبه ريتشارد لنفسه فقط ، عاد الملك الفرنسي مع جزء من جيشه إلى وطنه ، وأصبح الجزء المتبقي من الفرنسيين تحت إمرة دوق فون بورجوند. كان عدد الأسرى المسلمين كبيراً للغاية وأعطوا وعداً بأن من يتنصر منهم سوف يطلق سراحه ، ولكن حين تحول الكثيرون إلى المسيحية تظاهراً على ما يبدو فُرض من جديد حظر على التعميد ، وجرت المفاوضات هنا وهناك بشأن تبادل الأسرى ، حيث طالب المنتصرون بفدية باهظة وإعادة الصليب المقدس الذي وقع في يدي صلاح الدين ، وفي اليوم الذي كان مقرراً أن يتم فيه تسليم الصليب وقف رجال الدين المسيحيين في وجه المسلمين ولم يكن الاتفاق قد تم بعد على تفصيلات المعاهدة ، وهنا أعطى الملك ريتشارد بعد أن استشار أصحابه ، أوامره بشنق كافة الأسرى المسلمين أمام أنظار المفاوضين العرب بكل بساطة كان عددهم يقدر بما لا يقل عن ٣٠٠٠ عربي ، وقد حذا قائد الجيش الفرنسي حذوه! وكان ما فاق تلك المذبحة في بشاعتها بالإضافة إلى ذلك أن هؤلاء الجشعين أخذوا يبحثون في أحشاء الموتى عن الذهب الذي ابتلعوه . وقد ألحقت تلك الجريمة أضراراً بالغة بالمكانة الشخصية للملك الإنجليزي ، وكافة المسيحيين الذين شاركوا فيها ، وجعلت الناس يشعرون بالشك العميق تجاهه

شخصياً كما أنه قد قضى على كافة ثمار نصرهم الذي حققوه بعد كل تلك الخسائر، وفي هذه المرة أيضاً لم يطبق صلاح الدين مبدأ العين بالعين والسن بالسن بالنسبة إلى الأسرى الذين بين يديه، ولكنه رفض بالطبع إطلاق سراحهم أو تسليم الصليب أو إعادة القدس لإقامة مملكة القدس من جديد.

ولقد كان من جرّاء تلك الأفعال البشعة أن ازداد الشعور المتباين في أماكن عدّة من الأوطان بالقلق العميق تجاه قتل الكفار لمجرد كونهم كذلك، بل وبدأت الأصوات ترتفع داخل دوائر رجال الدين بالذات، تعارض استخدام العنف من أجل العقيدة وضد تعاليم الكنيسية التي تقضي بأن التنصير يمكن أن يفرق بين الإنسان وأخيه في حقوقه وقيمه، وكذلك فإن الفارس الألماني فولفرام فون إيشنباج كان هو الذي عبر عن ثورته إزاء ذلك من خلال الشعر الذي صاغه باسم: "فيلهالم":

أليست تلك خطيئة أن يقتل الإنسان

أولئك الذين لم يتلقوا العماد

تلك في رأيي خطيئة كبرى

كما يذبح القصاب الحيوان؟

لأن الجميع مخلوقات الله

ولكن الأمر لم يقتصر فقط على الاحتجاج الشفوي.

القيصر فريدريك الثاني

يؤسسّ للسلام

وفي ذلك الحين بدأ القيصر الألماني الذي يفهم الفروسية على معناها الحقيقي، التدخل في ذلك الصراع الملتهب من الحماس العقائدي الذي يتسم بالتعصب وعدم التسامح والتعالي الأمر الذي لقي استجابة من الفروسية العربية الإسلامية.

وفي يوم ٧ سبتمبر ١٢٢٨م وحين نزل القيصر الثاني قرب عكا فإنه بروح من الاحترام غير المعهود من قبل، أرسل مع الكونت فون أكيون رسالة مصحوبة بهدايا ملكية إلى أمير المؤمنين السلطان الكامل، جاء فيها:

"إننا لم نأت عن طريق البحر لكي نستولي على بلادكم، لأننا نملك من البلاد أكثر مما يملك أي حاكم آخر في العالم، ولكن لكي نتولى أمر الأماكن المقدسة وفقاً لاتفاقنا، ويجب ألا تقلقوا بسبب المسيحيين لا تضطروا إلى إراقة دماء رعاياكم في سبيل محاربتنا".

لقد كانت هذه لغة جديدة بين فرسان الصليب والمسلمين وسرعان ما تكونت جبهتان بين الراغبين في السلام والراغبين في الحرب، ولقد أصبح صوت البابا نفسه مسموعاً هنا في الشرق، ويرجع ذلك إلى أن دعوته إلى رفض طاعة الفارس الصليبي أي القيصر الذي حُرم من رحمة الكنيسة، قد وجدت آذاناً صاغية، وحاول جريجور بواسطة راهبان من الفرنسيسكان أن يدفع الألمان أنفسهم إلى إعلان عصيانهم على قيصرهم، وعلى الفور وضع فرسان المعبد واليوحانيون وكافة الرهبان المسيحيين والنبلاء الفرنسيين أنفسهم في مواجهة القيصر الذي غَضب عليه البابا، قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي قام في ذلك

الوقت باستقبال صديقه من أيام صقلية، الأمير فخر الدين، في خيمته ليجري معه مفاوضات جديدة ومباحثات عميقة حول القضايا الفلسفية وأمور ما وراء الطبيعة.

وذلك أن الحالة قد تحسنت بصورة تامة منذ توقيع اتفاقهما لصالح السلطان الذي كان فوق ذلك معرضاً لضغوط من أشقائه، ولم يعد الكامل في حاجة إلى مساعدة فريدريك. وبينما كان فريدريك يشغل جيشه الألماني وبعض الفرسان الإنجليز الذين انضموا إليه بأعمال إقامة الاستحكامات، فإنه استغل نفوذه لإقرار السلام ومصير الرايخ، وكذلك لدعم مكانته الشخصية وإمبراطوريته وموقفه بصفته الأمير الأكبر للمسيحية، فقد أخذ يتبع السلطان من معسكر لآخر واستغل كافة مهارته الدبلوماسية ومعرفته الإنسانية الواسعة - وخاصة معرفته بالعقلية العربية- ليلعب لعبته الجريئه والكبيرة من أجل الوصول إلى الهدف البعيد والمتمثل باستعادة القدس ومن ثم الأماكن المقدسة.

وبالسيطرة الكاملة على النفس إزاء القلق الذي يجثم عليه بسبب المعارك في إمبراطوريته وإزاء تأخر الأسطول الذي يحمل المؤن لجيشه والموقف الخطير من جانب الوجهاء والخيانة المتربّصة في كل مكان خارج وداخل معسكره ومن ثم اعتماده تماماً على نفسه، فإنه خاض تلك المعركة الفكرية المزدوجة التي تبدو فرصها قليلة، وكان هيرمان فون سلتا وحده الصديق المخلص والمدرك للظروف المضطربة في البلاد، وبعد أن مات شقيق الكامل تولى الكامل بنفسه مسؤولية القدس، إذ ما الذي يمكن أن يدفعه إلى التخلي عنها؟ وكان يبدو أن كل شيء قد ضاع، ولكن كما اعترف القيصر فيما بعد: "لقد أخفينا الألم القاتل خلف سحناتنا البشوشة حتى لا يشعر الأعداء بفرحة الانتصار».

وكان الإمبراطور النهم إلى المعرفة والذي تلقى في موطنه بصقلية تعليمه على أيدي أحد الشيوخ العرب، كان يوجه إلى السلطان المصري وعلماء البلاط لديه أسئلة ظلت تبقي على جسر المودة الرفيع بين الاثنين.

ولقد كان الكامل يجد متعة كبيرة في الإجابة على تلك المسائل الفكرية، الرياضية، والطبيعية، والفلسفية التي تتفق مع اهتماماته الخاصة والتي تجعله يتعامل مع شريك متقارب معه فكرياً بل ذي تربية وروح ثقافية عربية. وعلى الرغم من أن هذا الشريك يتحدث لغته الخاصة إلا أنه كان يتقن بصورة فريدة صور الأدب والسماحة العربية المنتقاة، كما يبدو ذو هيئة شرقية فخمة ويحيط به حرس وحشم عربي، وتنم شخصيته عن مهابة تعادل مهابة الفرسان.

فهل كانت رسالة فخر الدين لفتة صداقة خارج نطاق كل السياسات؟ إن عدم الالتزام بالاتفاق كان شوكة غائرة بعمق ليس فقط في جانب القيصر ولكن أيضاً بالنسبة للأمير الذي شارك في التفاوض على الاتفاق وعلى رحلة القيصر إلى الشرق، وقد تساءل فريدريك في حديث سرّي مع رفيق خيمته العربي، عن السبب الذي يجعل الحرب والعنف يسودان بينه وبين السلطان، في حين أنهما لا يميلان إليهما، فلماذا لا يمدان يد الصداقة إلى بعضهما وهما يحبّان الفكر؟ وهل يجب عليهما بعد أن سالت كل هذه الدماء أن يجعلا الفرصة الكبيرة واللحظة المصيرية تفلت دون أن يجعلا الشرق والغرب يتصالحان؟

وعهد القيصر بناء على نصيحة فخر الدين إلى الكونت المحنك توماس فون أكوين الذي يتقن العربية كما يعرف أساليب التعامل مع العرب منذ كان في صقلية، أن يواصل المفاوضات بدلاً من رجل البلاط الفذ الذي دمر كثيراً من جسور الدبلوماسية، وقد عرف فريدريك عن طريق توماس فون أكوين كيف

يستثير نخوة الفروسية تجاه العرش والتي ترتبط صحوتها أو اندثارها بتحرير القدس . ولاقت تلك الاتصالات استجابة من السلطان الذي كان يعرف كافة تفصيلات الأحداث التي جرت بين القيصر والخليفة في روما .

وحين حاول فخر الدين شخصياً أن يشرح أفكار الإمبراطور وأن يذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه والذي يؤدي عدم الوفاء به إلى نشوب المزيد من العداوات والحروب الجديدة مع المسيحيين والتي لا يمكن تقدير نتائجها بأية حال ، وهنا أعلن الكامل عن استعداده لعقد اتفاق جديد خاصة وأن الحالة العسكرية في سوريا لم تكن في أحسن أحوالها .

هذا وبعد مائتي عام من الحروب ومن إراقة الدماء حدث في ١٨ فبراير ١٢٢٩ أن مّد الغرب والشرق أيديهم إلى بعض لأداء قسم مهيب ، ذلك أن " أمير المؤمنين " السلطان الكامل أعطى أمام المعلم الكبير للطائفة الألمانية هيرمان فون سالسا ، والكونت توماس فون أكوين ، قسمه المقدس بأن يعمل وفقاً لتعاليم الله وما تنص عليه القوانين وبقلب صاف ونية طيبة وبدون نكوص وبإيمان قوي على أن يحافظ على كل ما تتضمنه الوثيقة التي بين يديه .

وفي نفس الوقت أقسم (القيصر فريدريك الثاني فون هوفنشيتاوفن) وهو الرئيس الدنيوي للمسيحية في معسكره الميداني قرب يافا ، أقسم على إقرار السلام بين يدي الأمير فخر الدين ووفقاً للتقاليد العربية و أضاف أنه سيمزق يده اليسرى لو حنث بقسمه .

وبذلك أمكن عقد سلام " بدون قتال أو استخدام السلاح " ، بين طرفين متساويين وفي جو من الصداقة الشخصية لا بل الحارّة .

لقد حقق القيصر فريدريك الثاني بذلك ما لم ينجح فيه أي شخص من قبل، وقد أعلن الجيش الألماني بواسطة هيرمان فون سالسا أن الجميع يمكنهم أن يبتهجوا ويسعدوا مع بعضهم. ذلك أنه يرجع الفضل في إنجاز هذا العمل الطيب إلى معجزة أكثر مما يرجع إلى الشجاعة، لأن ذلك العمل لم يستطع منذ سنوات طويلة أيٌّ من أمراء وحكام هذه الأرض أن يحققوه، سواء بواسطة جموع شعوبهم المحتشدة أو الخوف، أو غير ذلك من الوسائل في تآلف قلوب الشعوب المتفرقة.

ولقد تمكن أحد القياصرة الألمان من أن يحقق الهدف من كافة الحروب الصليبية دون إراقة الدماء، حيث تم تحرير الأراضي المقدسة التابعة للمسيحيين والتي أصبحت بين أيديهم ويسيطرون عليها وهي: القدس، بيت لحم، والناصرة، وطريق الحج المؤدي من الساحل عبر الجليل بقلاعها وكذا ميناء صيدا الهام الذي يسيطر على كافة الطرق المائية التي يستخدمها الخليفة الدمشقي، وكذلك مدن قيصرية ويافا وعكا نفسها التي تشربت أرضها بذلك القدر الكبير من دماء المسيحيين والمسلمين، وتقرّر أن تكون القدس وحدها والتي تحوي أيضاً الأماكن المقدسة للمسلمين، هي المدينة المقدسة لكلا الديانتين، وكما قال صلاح الدين من قبل لريتشارد قلب الأسد: "إن القدس مقدسة بالنسبة إلينا كذلك، بل إنها بالنسبة إلينا أكثر قداسة مما هي بالنسبة إليكم، ذلك أن النبي عرج من هناك إلى السماء ليلاً، كما أن الملائكة تجمعوا فيها". ولذلك تقرر أن يحتفظ المسلمون بجامع قبة الصخرة وبالمسجد الأقصى في الحرم الشريف، وهو ميدان المعبد، على أن يسمح للحجاج المسيحيين كذلك بأداء صلواتهم هناك، كما يسمح للمسلمين بأداء صلاتهم في بيت لحم، كما تم تأمين رحلة الحج المسيحية وممارسة الطقوس دون أية عوائق، وتم الاتفاق كذلك على أن يراعي حجاج الديانتين

بعضهم بعضًا ويكون لهم الحق في عبادة الله كل حسب طريقته .

وحين وضع فريدريك تاج مملكة القدس على رأسه في كنيسة (القبر)، فإنه نَهضَ بميراث زوجته التي توفيت في تلك الأثناء -إيزابيلا- بصفته حاميًا للقبر المقدس حسبما يراه وفقاً لفكرة الإمبراطورية التي تقول إن السيطرة تعني توفير الحماية .

كذلك فإن القيصر أغفل مسألة ادعاءات التملك الدنيوية التي لم يكن متاحاً للفرنجة بدون امتلاكها العمل على إرضاء المصالح المسيحية، ولقد أوكل إلى طائفة الفرسان الألمان مهمة الإقامة بجانب قلعة داود لأداء واجب ا لحماية، لأن طوائف الفرسان الأخرى أعلنت معاداتها له .

أما بالنسبة إلى أنصار البابا فقد كان كل ذلك بمثابة عمل شيطاني كما عبَّر بطريرك القدس، كذلك فإن قيام القيصر عموماً بالموافقة على إجراء مباحثات مع الكفار -وكونه فوق ذلك مطروداً من رحمة البابا- ويتفاوض معهم ويعقد معهم معاهدة ويسمح للكفار بالصلاة في القدس؛ كل ذلك كان بالنسبة إليهم سبباً كافياً لأن يجعلهم يصورون ذلك القيصر في أقبح صورة يبدو عليها أمراء (جهنم)، كخائن وملوث للدين وابن للشيطان وعدو للمسيح، ولقد كان ذلك التعايش على قدم المساواة نوعاً من الازدراء بالروح الصليبية البابوية القديمة التي لا تزال المسيحية وطوائف الفرسان تشعر بالالتزام تجاهها . كما أن ما حدث بعد ذلك في ليون لمبعوث القيصر بناء على "شكوى البابا وبسبب علاقات القيصر الودية مع السلاطين، قد برهن عليه فريدريك هنا في القدس أمام أعين العالم كله : وهو أن صداقته مع الأمراء العرب قد حالت دون إراقة دماء مسيحية بريئة!" ولقد كان أكثر ما أثار أقصى شعور بالمرارة لدى خصوم القيصر أنه قد تمكن رغم كافة محاولات عرقلة جهوده من تحقيق أكثر مما استطاعت الجيوش الصليبية جميعها

تحقيقه بتضحياتها الهائلة من البشر، وحين استلم القيصر على بوابة يافا مفتاح المدينة من يدي (شمس الدين) مندوب السلطان، ودخل مع أتباعه الألمان إلى المدينة المقدسة التي كانت الهدف الذي تتوق إليه نفوس الصليبيين، فإن الأسقف بيتروس من قيصرية قام بحظر إقامة الشعائر الدينية في المدينة نفسها وفي الأماكن المقدسة، وكان هذا يعني : أنه لن يتم أداء شعائر الصلاة بعد الآن في بيوت العبادة، كما سيرفض رجال الدين تقديم الأسرار.

كذلك بدأ رجال الدين يحرضون الجيش على التمرّد، كما قام فرسان المعبد في الطريق بين يافا وعكا بمحاولة لاغتيال القيصر نجا منها بالكاد، ولكن فريدريك اتضح له فيما بعد أن البابا هو الذي دبرها، وبينما كان القيصر في عكا ينتظر وصول السفن، وقعت أعمال عدائية سافرة تحولت إلى معارك في الشوارع، فقد تمكن البطريرك من حشد جيش لمحاربة الألمان، ولكن فريدريك سبقه واحتل منازل فرسان المعبد واليوحانيين وطرد "كافة الفرسان الغرباء"، وألقيت القاذورات على حجر القبر المقدس الذي عوقب من جديد بالحرمان من الكنيسة والذي نجح في أن يجمع بين الشرق العربي والغرب في سلام واحترام متبادل وصداقة متكافئة، ولكن ذلك نفسه كان أشق ما يمكن أن يتوجه به المرء إزاء مشاعر التعصب الديني؛ أي منح الاحترام والمساواة في الحقوق لأصحاب الديانات الأخرى. وفيما بعد يعلق هيرمان فون سالسا على ذلك في خطاب إلى صديقه الأسقف، حيث يسحب البساط من تحت أقدام الدعاية المسيحية بقوله: "إنني أعرف أن بطريرك القدس قد منع أداء الشعائر الدينية؛ لأن العرب احتفظوا بمعبد الرب وبمعبد سليمان، ولكن دعنا لا ننسى أنه كان مسموحاً للعرب قبل أن يفقدوا الأرض المقدسة ممارسة عقيدتهم بحرية في كافة المدن تقريباً التي كانت تابعة

للمسيحيين ، ، كما أن المسيحيين يمكنهم اليوم بنفس القدر العيش في دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية ممارسين لعقيدتهم " .

وعلى الرغم من أن معاملة أصحاب الديانات الأخرى بروح الفروسية أمراً طبيعياً بالنسبة إلى فريدريك الثاني وهيرمان فون سالسا أيضاً بالصورة التي كانت تحدث وتتأكد دائماً في العالم العربي ، ولأنها في الحقيقة كانت تتعارض بشدة مع الادعاء المطلق والتام للمسيحية حينذاك والذي كان يصلح له فقط شعار بيرنهارد : "الإفناء أو الهداية " .

ومما يميز ثقة القيصر في ذلك العالم العربي الذي يتسم بروح الفروسية أنه كان يتطلع قبل وفاته بوقت قصير حين أثرت عليه كثيراً تلك القسوة تجاه الإنسانية من جانب العالم الثاني الذي يُعَد هو فيه شخصاً وحيداً ، كان يتطلع إلى "أن يبقى في الشرق إلى الأبد" ، وفي الوقت الذي أصابه ذلك التناقض الحاد الموجود في الأرض المقدسة في أقصى فترات أزمته فإن صورة الصداقة التي انطبعت لديه نتيجة لقائه مع فخر الدين (كانت رفيقه في وطنه) ولذلك فإنه أرسل إليه ذلك الاعتراف الشخصي كأفضل ما قدمه في حياته :

باسم الله الكريم الرحيم

ثبتت قلوبنا رغم الترحال

وتحررت من أجسادنا قلباً وقالباً

وأصبحت رهينة صداقتكم إلى الأبد

ثم عادت محلقة إلينا من جديد

وليست بنا حاجة إلى أن نتحدث عن الحزن الذي يثيره فينا الحب ولا عن الألم العنيف الذي ينتابنا ولا عن مدى شوقنا إلى الصحبة الأليفة مع فخر أدام الله عمره! . . . ولقد ذهبنا إلى مدى بعيد في هذا المجال، ولكن حيرة المرء الذي يرى نفسه وحيداً في العالم بعد أوقات الأنس والهدوء تثير مشاعرنا وأصبح الحزن بعد الفرقة يحل محل الصفاء الروحي والرغبة الطيبة، كما أن اليأس حلّ محل حيوية أحاديثنا " .

كذلك فإنه استخدم صيغة الجمع التقليدية ليسقط كافة حواجز النفس ويقول: "عندما رحلت شعرت أنه لو أني خيرت بين البعاد والموت لفضلت الموت، فلقد أسديت لي فضلاً جميلاً" .

أظهرت الحروب الصليبية بكل وضوح أنه ليس صحيحاً أن المسيحية -كما يتردد القول عادة- كانت هي التي جعلت الفروسية فكرةً تنفذ إلى روح تقاليد الفروسية.

فهذا القول بحاجة إلى تصحيح جذري، ذلك أن سلوك الفارس لا يعتبر جزءاً من فكرة -أحب جارك- التي تتجه نحو الأخ في المسيحية وحده وتختص بمن يعتنق ديانة أخرى بالاضطهاد والقتل، كما أنها لا تعتبر ناشئة عن الروح المسيحية بأية حال، ذلك أنها قد نشأت وتطورت في أوروبا من مصادر جرمانية خالصة في العصر قبل المسيحي تماماً مثلما نشأت الفروسية العربية في منطقة الصحراء العربية قبل الإسلام، وحيثما التقت الحركتان معاً مثلما حدث بين الكامل وفريدريك الثاني كانت مثل تلك اللقاءات تمثل ذروة الفروسية (الإنسانية).

فهل نطلب الكثير حينما نسلك الطريق القصير غير المباشر والمؤدي إلى البدايات الأولى لتلك الفروسية نفسها التي نجدها في الشمال في أساطير أيسلندا من العصر قبل المسيحي والتي لم تكن قد خضعت بعد لتأثيرات أخرى؟ الدافع الذي حرّك تلك الفروسية لم يكن كما ذكرنا هو محبة الجار التي تختص فقط بمن يعتنقون نفس الديانة، كما لم تحركها الشفقة التي تنحدر إلى نوع من العَوَز، ولكنها الحاجة إلى المساواة الناشئة عن تجربةً مختلفة تماماً. وإذا كانت هذه التقاليد قد تطورت فقط منذ "الفروسية الجرمانية" التي سادت فعلاً قبل ما يسمى بعصر الفرسان، وإذا كانت قد تطورت في مضمونها بما يفضي إلى فروسية العصور الوسطى الألمانية المبكرة، فإنها موجودة بالفعل في الروح القديمة الصلبة للمقاتل الجرماني. إنه ذلك العصر الذي كان يتجسد خلاله أنموذج الرجل ذي الشخصية

العظيمة، كما أن عصر الأخذ بثأر الدم، بمعنى الالتزام من جانب الفرد برابطة الجماعة التي يمت لها بصلة الدم، سواء كانت العشيرة أو الجماعة والالتزام بأخذ الثأر لأحد أفراد عشيرته أو جماعته وذلك عن طريق استعادة الشرف - بالمعنى الكامل للكلمة- من القاتل وذلك من أجل مداواة الجرح الذي أصاب شرف الجماعة الذي تمت استعادته وإلا لظل الجرح نافذاً، وبذلك يكتمل له الشرف. وهذا يبدو أمراً منطقياً تماماً - على الرغم من عدم استناده إلى منطق العقل: وذلك أنه لا يمكن استعادة الشرف إلا حيث يوجد؛ لأنه لا يمكن أخذ الشرف ممن لا قيمة أو شرف له، وإنما فقط حيث يكون هناك شرف، وشرف كبير، مثل هذا الانتقام لا يعكس فورة الغضب، ولا التعطش الشديد للثأر ولا الكراهية الشخصية بل على العكس فإن صراع الثأر الذي ينشب بسبب الغضب الفوري يعتبر أمراً غير جدير بالنبل تماماً، ويقول أحد الأمثال: إن العبد وحده هو الذي ينتقم على الفور في حين أن الجبان لا ينتقم مطلقاً، ومن ثم فليس من الضروري أن يتم إطفاء نيران الثأر عن طريق دماء العدو، وإنما يتم الإعداد له كنوع من أداء الواجب بعد إمعان الفكر.

ولأن من يتم الثأر منه يجب أن يكون جديراً بذلك فيمكن أن يحدث أن المرء بدلاً من أن يثأر من رجل "ذو شأن بسيط" وشرف ضعيف فإنه يثأر من أحد رفاق عشيرته ممن يتساوون مع القتيل والمنتقم على حد سواء، حيث يكون فتى حقاً وذو رجولة حقة. وكما قلنا فإنه لم تكن مشاعر الكراهية الشخصية هي التي تعبر عن نفسها في ذلك القتال، كما أن من يأخذ بثأره لم يكن يمتطي صهوة جواده في سعادة، كما لم يكن يسرع بالفرار سراً، وغالباً كان يحدث أن يحمي القتيل بيديه حتى لا تنهشه الجوارح كما أن شرفه يملي عليه أن يغطي القتيل وأن يُعلمَ أقاربه

وأصدقاءه عن مصرعه له لأنه قد "تصرف كما يجب أن يفعل" وهو ما اعتاد المؤرخون على ذكره، وكثيراً ما كان يمتزج إعجاب المنتقم بالخصم البارع في القتال وهو ما كان يميز العلاقة الإنسانية الجرمانية بأنها سعادة الرجل بخصمه النبيل، وكان يمتزج مع الشعور بالأسف لأنه فقد مثل ذلك الرجل.

كذلك فإن الرجل الشريف لا يهاجم عدوه من الخلف أو من وراء مكمن، وهو ما يدفعه أيضاً إلى أن يتجنب القتال ليلاً، كذلك فإنه لا يقتل النائمين أو الراقدين، كذلك لا يمكنه المساس بالنساء أو الأطفال؛ حتى ولو كان هناك صبي يمكن عندما يشب عن الطوق أن يكون هو نفسه الذي سيقوم بالثأر، كما يجب عليه كذلك الإبقاء على مثل ذلك الصبي رغم تأكده من هذه الحقيقة هو أمر يتطلب انضباطاً ذاتياً كاملاً وعقلاً هادئاً، ذلك أن "الشرف" الجرماني ليس هو ذلك الذي يمنحه المجتمع للإنسان، ولكنه في معناه العميق كلمة مختلفة مرادفة لمعنى الوعي بالمسؤولية التي تلزم الرجل والمرأة التزاماً لا محيص عنه.

وخلال القتال الثنائي الذي يتم وفق أحكام الإله القديمة والذي يعمل به لتنفيذ القانون، ويسبق المعركة، فإنه يجب أن يطبق مبدأ تكافؤ الخصمين، وإعلان الحرب جهاراً وإتاحة الظروف المشابهة. ولم يتغير ذلك مطلقاً بالنسبة إلى الفروسية، ذلك أن الكفاءة تتطلب إمكانية إصدار الحكم الموضوعي وغض النظر عن المشاعر والدوافع الشخصية وقبول الخصم كما هو عليه، وهي موضوعية متحررة من العداء الشخصي ولذلك فهي قادرة على أن تعترف بالعدو وتحترمه وتعجب به، بل وتعترف قدر الإمكان بحقه في القتال والخصومة ضد الفارس نفسه - دون أن يؤدي ذلك إلى إفراغ فكرة الأخذ بالثأر من مضمونها حيث إن تلك مختلفة تماماً-.

ومن هنا كان الانتقال من مرحلة المفهوم القديم للرجل أو المرأة ذوي الشأن العظيم إلى الفتى الفارس وإلى الفتى الأمين المهذب كان يحتاج لمجرد خطوة واحدة، وكثيراً ما كان يحدث أن يتحول التقويم الموضوعي للخصم الشريف الكفء نتيجة لتقديره حق قدره كان يتحول إلى إعجاب مُعْلَن في إطار ذلك الإحساس بالسعادة بين الرجل وصنوه الذي يعبر عن شعر الحكمة (أو الهافامال) وتؤدي عملية التواصل المباشرة تلك إلى تحقيق التلاحم بين مفهوم القدوة قديماً وحديثاً، كما أن تلك الأرضية المشتركة مهدت الأرض من خلال الحكايات التي تروى في شمال أيسلندا لظهور شيء جديد جرى نقشه على أحجار الجرانيت الموغلة في القدم، وفي أحيان أخرى كانت مصادر تلك الحكايات ذاتية محضة، وربما تكفي فكرة من قصة "تورشتاين شتانجهيب" بالنيابة عن الكثير لإلقاء نظرة على ذلك الاتجاه الجديد: كان على "بيارني" زعيم القبيلة الأيسلندي القوي والذي أثبت جدارته من خلال العديد من المعارك، كان عليه أن يطالب بثأره القديم من "تورشتين" الشاب الحاذق الذي كان يتولى تربية الخيول في زونتال، وذلك لأن تورشتين قد قتل عبداً لجاره وكذلك عبدين آخرين أرادا الانتقام له، وحين عقد بيارني ذات يوم العزَم على القتال قال لزوجه وهو يودعها: إن تورشتين لم يقتل أيا منهما على غير وجه حق "وتبع ذلك معركة ثنائية شديدة الضراوة جرت في جو غريب وبطريقة مختلفة تماماً عن التي كان يخوض بها الرجل العظيم معاركه فيما مضى؛ فقد أدى التلاحم القوي بينهما إلى تمزيق دروع الطرفين، وهنا قال بيارني: "إنني أشعر بالعطش وأنا غير معتاد على هذا النوع من الجهد مثلك". فرد عليه تورشتين: "إذن اذهب إلى الجدول واشرب." ففعل بيارني ذلك وترك سيفه بجانبه، فالتقطه تورشتين وتأمل نصله ثم قال: "إنك لم

تكن بك حاجة إلى ذلك السيف في بودفرستال " ، ولكن بيارني لزم الصمت ، ثم استأنفا القتال فوق التل الصغير ، وبدا له أن تورشتين "فتى الجحيم" هذا كما يصفه أقرانه ، يتقن فنون القتال كما أنه أشد جلداً مما كان يعتقد ، فقال بيارني : "إن سوء الحظ يلازمني اليوم ، فقد انحل رباط حذائي . "فأجاب تورشتين : "يمكنك أن تعيد ربطه ، فانحنى بيارني ، ولكن تورشتين ذهب إلى منزله وعاد بدرعين وسيف حاد قال إن أباه المريض أعطاهما له "إنني نفسي لا أجرؤ على مواجهة ضرباتك بدون درع (وأكثر من ذلك) ، ولكنني لا أريد توجيه الضربة الأولى" فضربه بيارني وأسقط عنه درعه كلية ، وفعل تورشتين نفس الشيء فقال له بيارني : "لقد كانت هذه ضربة قوية" فرد تورشتين " : وضربتك لم تكن أقل شدة" .

وقال بيارني : "إن سيفك الآن أكثر مضاءً عما كان في البداية ، فقال تورشتين : "إنني أفضل عدم التعرض للخطر ، كما إنني لا أوجه ضرباتي إليك بقوة ، وأريد أن أترك كل شيء الآن لحكمك . "وحين أصبح الاثنان يواجهان بعضها دون دروع من جديد ، قرر بيارني إيقاف المعركة التي لم تحسم من ذلك الخصم الذي يدانيه مقدرة : "إنه ليكون أمراً غير مجد أن أبني عملاً سيئاً على آخر طيب ، وسوف أعتبر أنني قد عوضت عن رجالي الثلاثة كلية لو انضممت إليّ وأعلنت ولاءك لي" .

هنا أجاب تورشتين : "لقد كان لدي اليوم فرصة لأتصرف معك من منطلق الكراهية لو أن ما أصابني من سوء كان أكثر مما أصابك من خير ، كما أنني لن أخونك مستقبلاً . "إنك فتى شريف وطيب" . وأعطى بيارني بعض العبيد إلى والد تورشتين المريض لمعاونته ، وانضم تورشتين إلى بيارني وظل بجانبه حتى وفاته . وتخرج الأسطورة من ذلك بصفة عامة أنه ليس هناك من يداني تورشتين

في تقاليده الشريفة وشجاعته " .

أين إذن هنايوجدُ الثأر؟ وهل نسي بيارني إعادة العمل بالتعاليم التي يدين لها كرئيس للقبيلة إذا كان يريد ألا يفقد ثقة رجاله، وهل نسي ثأره بسبب صداقته؟ إنه عندما يقرر خوض القتال فإنه يفعل ذلك مدركاً أن تورشتين كان محقاً في تصرفه، وهذا يعني أنه كان يقف في حقيقة الأمر منذ البداية في صف خصمه الحاذق، وهذه الموضوعية بين الاثنين التي تراعي حق الطرف الآخر تجعل كل طرف يعترف في دخيلة نفسه بالطرف الآخر، قد تحولت تماماً خلال القتال إلى إعجاب خفي متبادل، وتورشتين الذي لم يكن وهو الشاب القوي يدرك حقيقة تفوقه على ذلك البطل الشهير الجدير بالإعجاب خلال تلك المعركة في (بودفارستال) وكان عليه أن يكبح جماح نفسه حتى لا يؤذي ذلك البطل.

ولم يكن أي منهما يريد أن يتميز عن الآخر، ذلك أن القتال تحت ظروف غير متكافئة لا يعتبر قتالاً في نظرهما، كما أن الإحساس بالزهو الذي يتطلب أقصر المعاناة لا يمكن أن يتحقق بمحض الصدفة، ولقد كان مصدر سرور لبيارني أن يُفْسحَ لخصمه المجال لإبراز بعض الميزات لكي يضعه بذلك موضع التجربة، ولكن تورشتين كان مترفعاً عن أية محاولة لنزع الشرف عنه، بل إنه نفسه وجد مبرراً لكي يعطي خصمه سلاحاً أفضل كما حظي - ليس عن طريق مهارته في القتال- بقدر ما حظي نتيجة لتقاليده السوية والشريفة على الاعتراف بل والميل الخفي من جانب خصمه ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى بيارني، ذلك أنه رفض بدوره كل محاولة من الشاب الذي يصغره لكي يبقي عليه، فكان كل منهما يرى أن يكون الطرف الآخر على حقيقته الأصلية تماماً؛ أي أن يكون ما هو عليه بالفعل، وكان تمكن تورشتين من إثبات قدراته بهذه الطريقة قد جعله يحظى بثقة وصداقة بيارني.

ونعيد السؤال مرة أخرى : أين هو الثأر إذن؟

إن الصديق هو الذي يُضمدُّ الجراح تماماً إذا أعطى نفسه لصديقه كليةً وهو الخصم الشريف الذي تغطي أمانته على الكرامة الجريحه، فتغدو هذه الأعطيةُ بديلاً عن الثأر، وبذلك يكون الصراع من أجل الثأر قد تحول هنا إلى مباراة في مبادئ الشهامة، كما أن المطالبة بالتكافؤ قد تحولت من خلال مشاعر الفرحة بين الرجل ومنافسه ومن الإحساس بالأسى على فقدانه إلى التعلق بمقولة: "لو لم تكن خصمي فلا شك كنت ستصبح صديقي" . وقد تحولت هذه المقولة إلى رغبة في أن يكون مثل ذلك المنافس النبيل صديقاً.

وهكذا تعلن صحوة جديدة عن نفسها تأخذ الإنسان الآخر بعين الاعتبار وتقدر قيمته كإنسان، وإنه ليكون من الخطأ أن لا نعترف للشخص من الطراز القديم بنظرته تجاه الآخرين وذلك أن الخصومة لا تعني أن يغمط الآخر حقه أو لا يعطيه الاحترام الذي يستحقه.

إلا أن نظرة "الرجل الشريف" تتجه -دون أن يغفل قضية الجانب الذي ينتمي إليه- تتجه نحو ما هيته، ولذلك فإنه يتقبله على هذا الأساس ويعترف به فقط إذا أثبت أنه رجل ذو أخلاق شريفة، وكما يقيس المرء قوته استناداً إلى إحساس الرجل بالسعادة تجاه الآخر بقوة خصمه الذي يكافئه، فإنه أيضاً يضع أخلاقياته في مواجهة أخلاقيات الطرف الآخر، ولذلك فإنه لا يستطيع سوى أن يعامل الخصم الشريف كما يعامل نفسه ويكون جديراً بمواجهة الطرف الآخر.

إلا أن المرء لا يشعر بأي التزام تجاه الإنسان الوضيع، فإذا أثبت العدو أنه كذلك، فإن السيف وحده هو الذي تكون له الكلمة، حيث يوجه ضربة قوية بأعصاب ثابته دون أية رحمة.

ويتضح هنا أن هناك هوة تفصل بين هذه الأخلاقيات وبين المسيحية، إنه ليس لها علاقة مع الشفقة ولا حب الآخر، لأن المرء لا يمنح المعونة أو الحماية لمن يحتاجها ولكن لمن هو بحاجة إليها، أي ليس بدافع الشفقة نحو الضعيف ولكن بدافع الإعجاب بالشخص النبيل الجدير بالاحترام. ولم يكن لعرض تورشتين على بيارني بأن يصدر هو الحكم بنفسه أية علاقة مطلقاً بالندم أو الرغبة في الكفّارة، وإنما هو يتوجه بذلك مخاطباً نزاهة الساعي إلى الانتقام، لأن هذه النزاهة تمنعه من أن يعامل الشخص الذي وضع نفسه رهن حكمه، بطريقة خلاف الطريقة الشريفة، ومن ثم فلا يجب أن تبدو سماحته أقل من نُبل الشخص الذي وضع نفسه طواعيةً بين يديه، ولذلك فإن الإبقاء على العدو لا يعتبر تنازلاً بدافع الشفقة، ولا يعتبر التقاء بين المقدرة والاحتياج، بحيث تؤدي العلاقة التبادلية بينهما إلى أن ترمي من وراء الشفقة إلى إحداث التوازن الذي يحقق المساعدة المنشودة؛ ذلك أنها تنطلق من الإحساس العام للشخص الشريف الجدير بالاحترام والإعجاب الذي يشعر المرء بدوره أنه ملتزم تجاهه بالتصرف الشريف. والعامل الحاسم الوحيد يتمثل في الأخلاقيات العليا التي تكون أشبه بنداء موجه إلى الفتى الشريف، كما أنها تستدعي نفس الإحساس الرفيع وفي مقدورها أن تحول العداء إلى رابطة نضال، كما أنها تصهر الخصومة وتحولها إلى جماعة سلمٍ جديدة.

إذن ما الذي حدث هنا؟ (هل هو انقلاب أم قطيعة؟) أو لم يكن ذلك انعتاقاً أو حملة تنطلق من أرضية صلبة، لتستقرّ في مكان أكثر رحابةً؟ ألا نشهد اليوم شيئاً مشابهاً لذلك. إن "الأنا" التي كان لها منطلقاتها الثابته في العشيرة منذ عصور موغلة في القدم قد أخذت تنتشر متجاوزة نطاق رابطة الدم والقسم (العهد). كذلك مثلما أن الأمم المختلفة التي تجاوزت اليوم نطاقها المحدود وتعلمت كيف

تفكر في إطار المفهوم الأوروبي لتشمل الروابط القائمة خارج ذلك النطاق ومن يرتبطون بروابط أخرى حيث عرف المرء خلالها كيف يحترم الرجل ذا الشرف والأخلاق الكريمة، والذي يحظى بالتقدير نتيجة لسلوكه الذي يتسم بالنزاهة. وكما استطاعت الأمم الأوروبية بعد تجارب الحربين العالميتين وعمليات التدمير الذاتي المتبادل طوال قرون أن تؤلَف مجتمعاً أوروبياً يعمه السلام من شركاء متساوين في الحقوق.

فإن روح الفتى الشريف كانت تفوق ضرورة الانحياز إلى جانب، والتي كانت ضروريتها تنبع من الروح القديمة التي كانت تمثل عظمة تلك الروح كما تمثل الخطر المتمثل في خطر الإفناء الذاتي (العشائر) بسبب الثأر والتضحية بأفضل الناس وأشرفهم باسم شرف وسلام القبيلة نفسها.

لقد سمح لنا الشمال بأن نحاكي بدقة التطورات الجرمانية الداخلية التي وصلت إلى قمة نضجها وكمالها من خلال الفروسية التي سرعان ما ظهرت في وسط أوروبا، كما أن الإمبراطورية والخدام فيها هما اللذان أفرزا من ذلك النموذج الفكرة الداخلية الملزمة لطبيعة الفروسية، على نفس الصورة التي شهدها القيصر فريدريك الثاني من قبل وصاغها شِعراً مغني الإمبراطورية الكبير فولفرام فون إيشبناخ.

وكذلك لم يكن صدفة أن يستمد هذا الشاعر من الفروسية العربية إلهامه الذي ساعده في صياغة مفاهيم الفروسية من خلال عملية الشعر بين الكبيرين "بارتسيفال" و " فيلهلم".

ولا شك أن أنماط الفروسية الألمانية والعربية قد انبثقتْ من جذورها الذاتية الضاربة في القدم. وعلى الرغم من ذلك فإن كلاً منهما تشبه الأخرى فهل ذلك هو السبب في انجذاب كل منهما نحو الأخرى؟ وهناك ملامح تشابه هنا وهناك؛

ذلك أن الأخلاقيات العالية المتمثلة في كرم الضيافة العربية والجرمانية القديم، وأخلاقيات الالتزام بأخذ الثأر ونموذج البطل المناضل الذي يدفع الآخرين -حتى ولو كانوا من أعدائه- إلى الإعجاب به والحب له والأسى عليه، ويبدو هذا واضحاً سواء في الصحراء العربية أو في القرى الأيسلندية، وبلاط ملوك البورجوند، وهذا التشابه جدير بالاهتمام بشكل خاص؛ لأن تلك القوانين الأخلاقية للطرفين ليست بأية حال ذات طابع إنساني عام، ومن ثم فإنها لا ترى سواء بالنسبة إلى كافة الشعوب الشرقية الأخرى ولا بالنسبة إلى كل دول الغرب. كما أن ذلك التشابه يعتبر من كافة أساليب التفكير الاجتماعية الجامدة، ذلك أن جذور العروبية ترجع إلى البداوة التي يعيشها البدو، وفي ظلها تطور شكلها الخالص وأسلوبها النفسي، في حين أن الجرمانية قد نشأت عن الحياة الريفية المحاربة وطورت خلالها أسلوبها وعالم القيم الخاص بها.

وحتى نتمكن من معرفة قيمة كرم الضيافة التي لا تضع قيوداً على هذا الكرم وعلى إنكار التراث والتي تسمو حتى في أقصى أوقات الصراع مأساوية عن أي إغراء بخيانة الوفاء، يجب علينا أن نستكشف الجدية التي تهز المستمع والتي تتسم بالعمق وذلك من خلال الأوصاف الثمينة المنحوتة في أناشيد الأبطال القديمة والأساطير وحكايات التاريخ والتي تتجاذب الإنسان بين واجبين في إطار أعمق تجربة إنسانية يخوضها المرء لإثبات ذاته .

وينطبق ذلك الوضع على الملك تورشتين الذي ينتمي إلى شعب الجبيذ الجرماني الذي هاجر من منطقة الفايكسل ويعمل أمام أتباعه على إنقاذ ضيفه الذي قتل ابنه، وهو البوين الأنجوباردي أو على الفلاحة الأيسلندية جوردون ابنة أوزضيف التي تخلت عن خطبتها للرجل الذي اعتقد أن في مقدورها أن تشي

بشخص محتقر إلى أعدائه بعد أن أصبح يتمع بحمايتها بمجرد دخوله إلى منزلها. ثم ألا يسري نفس الشيء بالنسبة لفارس الصحراء العربي والفروسية الإسلامية.

إن هناك ارتباطاً مباشراً بين التزام الطرفين بكرم الضيافة وبين الفروسية، ذلك أنه سواء بالنسبة إلى العربي أو إلى الجرماني كان المبدأ المعمول به هو أنه عند استقبال أي ضيف أو أي طالب للمساعدة يصبح هناك التزام من المضيف لا يمكن الفكاك منه، وسواء كان الضيف صديقاً للعشيرة أو عدواً لها - بمجرد أنه أصبح في حماية المخيم وأهله فإن ذلك الدخول يعتبر نداءً ليوظفوا كل ما لديهم من قوة غير مشروطة من أجل أن يتمتع الضيف بالحماية.

وهذا الالتزام يفوق بالفعل أي التزام آخر حتى ذلك الالتزام تجاه الجماعة التي ينتمي إليها المرء بصلة الدم.

ويُلزم كلاً من العربي والجرماني بقوة إلى حد أن الاهتمام بالضيف يصبح أكبر من حرص المضيف على حياته هو، بل وأكبر أيضاً مما تطلبه تعاليم حب الجار، وينطبق هذا أيضاً على الفروسية العربية: ذلك أن الحد من المشاعر القبلية قد بدأ منذ (النبي محمد ﷺ) ينتشر في اتجاه المجتمع الجديد المسمى دار الإسلام. إلا أن الاختلاف بين المجتمع العقائدي الإسلامي والمسيحي لا يمكن التغاضي عنه، كما أن المواجهة التي حدثت خلال الحروب الصليبية قد سلطت عليه أضواء التاريخ لقد ثبت بالبرهان القاطع كيفية معاملة المسيحيين واليهود في كافة الدول العربية؛ ذلك أن المجتمع العربي لكافة المؤمنين لا يعزل نفسه مثل المجتمع المسيحي عن أصحاب الديانات الأخرى عن طريق التنصير الإجباري والاضطهاد والإفناء بصورة متعصبة، بل على العكس كان المجتمع العربي يشعر وفقاً لقانون الضيافة القديم أنه ملتزم تجاه العدو وتجاه غير المسلم.

نشأ الأمير العربي أسامة بن منقذ في ظل تلك الظروف التي كانت تعتبر منذ القدم جزءاً من مكونات القيم العربية، ويحكي لنا عن شبابه فيقول: لقد تم الاحتفاظ ببعض الفرسان الفرنجة كرهائن في قلعة آبائي المسماة شيزر، كضمان لدين على ملكهم لحسام الدين تيمور تاش، وفي اللحظة التي تم فيها تسديد الدين أراد الفرسان العودة إلى بلادهم، ولكن خيرخان حاكم حمص أرسل فرقة من الفرسان لكي تنصب كميناً في منطقة خارج (شيزر) وحين تقدم الرهائن انبرى أعداؤهم وتغلبوا عليهم. وفي الحال امتطى أبو أسامة وخاله جواديهما "وأرسلا كل من التف حولهما من أجل تحرير الرهائن، وقد ذهبت أنا أيضاً وقال والدي: اقتف مع زملائك آثارهم ولا تخش الموت إذا كان الأمر يتعلق بإنقاذ الرهائن، فانطلقت ووصلت في الوقت المناسب بعد أن ركبت معظم النهار وقمت بتحريرهم مع رفاقهم كما أسرت بعض فرسان حمص ولكنني أعجبت بشكل خاص بكلمة والدي: "لا تحجم عن مواجهة الموت إذا كان الأمر يتعلق بإنقاذ الرهائن".

لم يهتم المسلمون بعدو يتسم بالحذق ويحظى بالإعجاب كما فعلوا تجاه الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد الذي وصلت أخبار شهرته غير العادية في القتال إلى أقصى خيمة في البادية، كذلك فلقد كانت أضعف الأصوات التي تطلب المساعدة تجد لها أذاناً صاغيةً عند المسلمين وتثير فيهم روح الفارس في تقديم المساعدة. وقد قص المهندس المصري بهاء الدين طرفة عن محاولة ريتشارد الملتوية لكي يقتنص بعض المميزات مستفيداً من معرفته بالطبيعة والتقاليد العربية: ذلك أنه حين مرض الملك أمام عكا، أرسل رسولاً إلى معسكر صلاح الدين. ولقد

كان الرسول الذي جاء في الحقيقة لكي يطلب بعض الأشياء التي يحتاجها سيده أثناء مرضه قد وجه الرسالة التالية : " من ضمن عادات ملوكنا أن يتبادلوا الهدايا خاصة في أوقات الحروب ، كما أن سيدي قادر على منح بعضها بما يتناسب ومقام السلطان ، فهل تسمح لي بإحضارها؟ فأجاب (أخو صلاح الدين) الملك العادل إننا نقبل الهدية بسرور ولكن فقط إذا سمح لنا بأن نقدم بعض الهدايا في مقابلها فاستمر الرسول يقول : "لقد أحضرنا معنا بعض الصقور والطيور الجارحة التي عانت كثيراً خلال الرحلة وتكاد تنفق ، فهل تتفضلون أن تهدوننا بعض الدجاج والفراريج من أجل إطعام تلك الطيور ؟ وبمجرد أن تعود إلى حالتها سوف نحضرها إلى السلطان تعبيراً عن تقديرنا " فأجاب الملك العادل : "من الأفضل أن تقول إن سيدك مريض وبحاجة إلى الفراخ من أجل استعادة قواه وعلى أي حال ، فإنها متوافرة وسوف يحصل على أكبر قدر يريده منها تودداً من طرفنا . والآن دعنا نتحدث عن شيء آخر " .

وبعد عدة أيام أعاد ملك إنجلترا إلى السلطان أحد الأسرى المسلمين كما أن صلاح الدين أعطى الرسول رداء تشريفية ، وبعدها طلب الملك بعض الثمار والحلوى فأعطيت له .

وقد كان الملك المسيحي وحده هو أقل من شكر للأمراء المسلمين فروسيتهم تلك ، ولكن على الرغم من أن ريتشارد قلب الأسد قد انحدر خلال غضبه الذي لم يعد يستطيع السيطرة عليه بسبب التأخير في تسليم الصليب إلى عملية التقتيل الوحشية لأسرى المسلمين ، فقد حدثت أكثر الأمور غرابة ؛ ذلك أن الفروسية العربية قد كسرت من جديد حدة ذلك العدو حين أصبح العدو في محنة ، كما أن الشيء الذي جعل الفلاح البسيط في " تزونيتتال " بإيسلندا يكنُّ الإعجاب لخصمه

قد تكرر هنا يوم ٥ أغسطس ١١٩٢م خلال معركة يافا، ذلك أن السهام العربية قد قتلت فرسين امتطاهما الملك على التوالي؛ مما اضطره إلى مواصلة القتال على قدميه وسط معركة الفرسان، وهنا أرسل الملك العادل شقيق صلاح الدين لعدوه جوادين كريمين، وحتى لا نخلط بين هذا الكرم الكبير المعطاء الذي تتسم به الفروسية العربية، وبين حب الإنسانية الذي يَلُفُّ كل شيء، ويعفو عن كل خطأ، وأن تلك الإنسانية قد تلجأ أيضاً إلى الشدة بل والقسوة حين تتعرض للتآمر والخيانة أو غيرها من الأفعال الخسيسة التي تجبرها على التزام الصمت، فهو أمر يظهره قيام صلاح الدين بشنق رينود دي شايتلون بيديه، ولو أن السلطان لم يتخذ أشد الخطوات قسوة بعد أن أمر ريتشارد قلب الأسد بعمل حمام الدم ولو أنه لم يطلق مبدأ العين بالعين، والانتقام من الأسرى المسيحيين -حيث إنه اكتفى بقتل الأسرى الجدد- إلا أن الخيانة المستمرة من جانب الفارس الفرنسي الذي كان أبعد ما يكون عن الفروسية، رينور دي شايتلون، قد دفعته إلى أن يقسم بأنه سوف يقوم ذات يوم بفصل رأس شايتلون عن جسده بيديه.

وعلى الرغم من أن "رينون" كان ذا أصل وضيع إلا أنه كان محظوظاً، وكان وسيماً؛ لكنه كان دونياً، وحصل عن طريق حبه لأميرة أنطاكية المترملة على إحدى إمارات مملكة القدس، وبالنسبة إليه لم تكن الحملة الصليبية سوى مغامرة جنونية لا يحدها شيء، وفرصة عظيمة لقطع الطريق حيث كان يقوم من قلعته الصحراوية "كراك فون مواب" على الجانب الآخر من البحر الميت بنهب قوافل الجمال التي كانت تضم التجار والحجاج القادمين من مصر والمتجهين إلى دمشق أو مكة، كما أن إبرام معاهدة مع المسيحيين أو أية هدنة مع العرب كانت بالنسبة إلى ذلك الجشع الذي لا يراعي عهداً ولا ذمّة إنما قد عقدت لكي تنتهك، أو حين امتدت حملات

النهب التي يقوم بها من ميناء العقبة الواقع تحت سيطرته عبر البحر الأحمر وحتى اليمن وعدن ووصلت وقاحته إلى حدّ مهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة ونهبها، وحين هاجم مؤخراً قافلة قادمة من بابيلون "مكان القاهرة الآن" متجهة إلى دمشق وأسرها وفيها شقيقة صلاح الدين، فإن غضب صلاح الدين بلغ مداه. وجاء في "تاريخ المملكة اللاتينية" أن صلاح الدين أرسل على الفور رسله إلى الملك الجديد في القدس وطالب بإطلاق سراح القافلة وشقيقته حيث ذكر أنه لا يريد خرق الهدنة التي عقدها أثناء عهد الملك الشاب، وقد أصدر الملك (جويدو) أوامره إلى الأمير (رينو) بإعادة قافلة صلاح الدين، ولكن رينو أجاب بأنه لن يعيدها بأية حال وأنه سيد على بلاده مثلما أن الملك سيد في مملكته وأنه لم يعقد "أية هدنة مع صلاح الدين". ولقد كان نهب هذه القافلة سبباً في سقوط القدس" ولم تكن هذه هي الشرارة الأخيرة التي أدت إلى انفجار الموقف المشحون بسبب خرق الفرنجة لوعودهم.

وفي ٣ يوليو/ تموز ١١٨٧م وفي موقعة حطّين في مرتفعات الجولان، والحرارة على أشدها، في ذلك اليوم تمّ القضاء على كل القوات المسيحية، بما فيها طائفة الفرسان عن بكرة أبيها. ونجا الكونت "تريبولي" وحده من المرْجَل الملتهب الذي كان يتلّظى بنيران أتت على كلّ شيء. وقضى خلالها على الجيش بعد أن اعتراه الضعف وأنهكه العطش ولم يقع في الأسر إلا أعداد قليلة.

وبذلك ضاعت مملكة ومدينة القدس كما أن أقدس المقدسات الدينية وهو الصليب المنقذ الذي كانوا يحملونه خلال المعركة كرمز حربي، قد سقط في أيدي الأعداء، وتحدد بذلك مصير مملكة القدس بصورة قاطعة.

ولقد نادى صلاح الدين في جيشه بأنه يجب إدخال كافة الأسرى من (البارونات) الفرسان إلى خيمته، وكان الخوف والرعب مما يمكن أن يحدث لهم قد أخَذ منهم كلَّ مأخذ وزادَ في قلقهم أكثر مما سببه لهم العطش، ثم دخل صلاح الدين إلى الخيمة، وكانت رائحة الدم تطغى على المكان، وكاد يغمى على ملك القدس (جويدو دي لوزيمبنان)، ولكن صلاح الدين قام بما هو غير متوقع، إذ طلب من الملك أن يجلس إلى جانبه وأمر بإحضار قارورة عصير مثلج من جبل حرمون، وأعطاه (كأساً) مليئة من عصير الفاكهة المبرد. فهل كانت هذه مجرد لفتة. شهامة من أجل إنقاذ العدو المشرف على الهلاك عطشاً، كلا بل كانت أكثر من ذلك؛ لقد وهب المنتصر حسب التقاليد العربية مع الطعام المقدم إلى الخصم المقهور، وهبه حياته ذلك أنه عندما أعطاه ليشرب فإنه وضعه تحت حمايته وظلله بالأمان.

ولكن الغضب الشديد انتاب صلاح الدين، فما الذي حدث؟ إن ذلك الشخص الذي لاقى كل ذلك الترحاب قد أعطى الكأس إلى الواقف بجواره، الذي اختطف أخت صلاح الدين ونهب الأماكن المقدسة للنبي محمد ﷺ، إنه رينو دي شايتلون ذلك الرجل الذي لم يحفظ مطلقاً العهد الذي أعطاه، وكان يضيف إلى كل الأعمال الدنيئة عملاً جديداً في كل مرة، قد أقسم صلاح الدين على أن يفصل رأسه عن جسده بيديه، ذلك أن من لا يتسم بصفات الفروسية لا يكون جديراً بعفو الفارس ولا يجب أن تشمله الحماية التي تمنح للضيف، ولذلك أمر صلاح الدين بالامساك به وإخراجه من الخيمة، وطلب سيفاً وحين أحضر إليه وجه ضربة واحدة إلى المغامر الجميل فصل بها رأسه عن جسده وتركه يتدحرج

فوق رمال الصحراء، وأنهى ذلك المشهد: ثم أمر بأن يجر (الجسد) عبر كافة المدن والحصون وقد حدث.

لم يكن هناك شيء عاجل أمام الملك البائس جويدو لكي يفعله سوى أن يخرق الهدنة التي عقدها من جانبه ويخرج على رأس البقية البائسة المتبقية من جيش الصليبيين. وقد أثبت صلاح الدين ورفاقه مئات المرات أنه لم تكن هناك حاجة بالعربي الفارس لأن يتصرف حسبما تمليه تعاليم العهد القديم التي تقول العين بالعين والنفس بالنفس والسن بالسن واليد باليد والرجل بالرجل، والحريق بالحريق، والجرح بالجرح، والضربة بالضربة (٢ موسى، ٢١، ٢٣)، ذلك أن في مقدوره استناداً إلى القوة الذاتية الداخلية الشخصية أن يمارس العقاب بترفع كما يفعل الفارس الجرماني ولكن أياً كان قدر الكرم وعلو الهمة التي تنبع من الفارس العربي فإن كل ذلك كان يختفي تماماً ولا يظهر في اللحظات التي تؤدي فيها الضعة الإنسانية إلى إشعال نيران غضبه متحولة إلى فعل نافذ فليس على الخائن أن يتوقع أي قدر من الشهامة.

أثرت الفروسية العربية على الفروسية الألمانية تأثيراً قوياً، الأمر هنا كان بمثابة التقاء بين أفكار وثيقة الصلة ببعضها، كما أنه كانت لها تأثيرات على الألماني الذي يتمتع بتقاليد الفروسية أعمق من محاولات الدعاية الكنسية التي وضعت لتلك التأثيرات صورة عكسية مشوهة عن العدو، حيث صورت العرب المسلمين على أنهم شياطين مردة، وعبدة أصنام قساة، يضحون المسيحيين على مذبح نبيهم محمد ﷺ، وتلصق بذلك المخلوق الخبيث[1] كافة الآثام والأفعال الوضيعة .

ولا يمكن أن تكون دهشة المسيحيين أكبر مما حدث حين واجهوا لأول مرة شخصاً عربياً بلحمه ودمه، حيث أظهرت دهشتهم الشديدة تلك مدى المفاجأة بالنسبة إليهم، حيث قالوا: إنهم حقاً أناس مثلنا ! كما أنهم فرسان أيضاً "نعم – لقد كانوا بالفعل فرساناً انضموا مرات عديدة بفروسيتهم الحقة تلك إلى اللاإنسانية! التي أوصى بها بشدة التعصب الكنسي العقائدي تجاه هؤلاء من أسماهم بالوثنيين .

ولا شك أيضاً أن الجانب العربي قد رسم صورة سيئة عن هؤلاء الغزاة المسيحيين، بل إنه حتى الفارس من طراز الأمير ابن منقذ الذي لم تنطق شفتاه باسم أحد الكفار والصليبيين إلا ويصاحب ذلك ترديده لنفس العبارة التي يكررها دائماً: "لعنة الله عليه" ، وإن كان ذلك لم يؤثر على تصرفاته الفردية، بل والتي تتسم بالصداقة، ولقد عَقَدت الدهشة ألسنة الجانبين مثلما صرح الكونت الشاب فولكو الذي وصل لتوه من موطنه، وبطريقته المحببة لأسامه قائلاً: "لقد التقيت بالأمس بأصدقاء يتسمون بحياة دافقة، وقد قيل لي إنك فارس نبيل، ولم تكن

(١) كان يسمى هكذا في بداءات الحملة الصليبية. حاشى لرسول الله عليه السلام أن يوصف بهذا.

لدي أدنى فكرة عن أنك فارس حقاً فردّ عليه الأمير أسامة : "إنني فارس بمفهوم العنصر البشري والجنس الذي أنتمي إليه" .

وبذلك لمس ذلك الفارس المسلم أحد منابع التسامح الإسلامي ؛ إنها قدرة تتناقص بشكل واضح مع وهم أن المسيحية هي الديانة المختارة والتي تدعي بأنها وحدها القادرة على تحقيق الصفاء الروحي ، وفرصة رؤيتها الخاصة وقناعاتها الخاصة على الديانة المغالية التي تعتبر ملزمة بشكل عام ، إنها إذن قدرة الإنسان العربي التي تحدد - كما سنرى - أيضاً ميله نحو الطبيعة وأسلوبه العلمي ، ذلك الذي يتمثل في أن يفكر في إطار إنساني شامل والاعتراف للفرد بوجوده الذاتي وطبيعته المتفرده ولكل شخص بحقوقه الذاتية ، بالإضافة إلى الاستعداد للإقرار بحرية أصحاب العقائد الأخرى واختيار عقيدتهم بأنفسهم بغض النظر عن وجهة النظر الذاتية .

ألا يشبه هذا الموقف ذو الصورة المريبة ذلك الموقف الذي وقفته الملكة الجرمانية سيجريد فون شفيدن التي أجابت ملك النرويج المسيحي أولاف تراجغسون حين طلب يدها وطالبها بضرورة أن تعمد نفسها : "إنني لن أتخلى مطلقاً عن العقيدة التي أدين بها وتدين بها عشيرتي كلّها من قبل ، ولكنني لا أريد أن أختلف معك حين تؤمن بالرب الذي تريده " ثم ألا تزال ترن في آذاننا كلمة ملك بروسيا : " إن على كل شخص يجد المغفرة أن يتوجه حسبما يحلو له وهي المستمدة من اقتناع ديني حقيقي ، ولكنه اقتناع غير مسيحي لذلك الملك الفيلسوف الذي كثيراً ما يساء فهمه على أنه ملحد وهذه الكلمة ليست لها علاقة بمسألة الجمود الديني والفكر الليبرالي الحرّ .

ألا يبدو هذا هو نفس التسامح الذي يراعي وجود الآخرين الفعلي وقرارهم الخاص، وذلك حينما يقول محمد ﷺ في بداية القرن السابع: "لا إكراه في الدين" كما أن الجرماني تيودريش الكبير الذي كان يسيطر على الأرض الرومانية لملك القوط الشرقيين وسيداً على الإمبراطورية الجرمانية العظيمة التي تضم الرومان والشعوب الجرمانية قد صرح قبل قرون من محمد ﷺ: وإنني لا يمكن أن أصدر أمراً لأحد باعتناق ديانة ما لأنه لا يمكن إجبار أحد ضد رغبتة على اعتناق مثل تلك الديانة؟[1]

وكانت المسيحية في العصور الوسطى تريد أن تفعل نفس الشيء تجاه العقيدة؛ ولذلك فإنها اضطرت إلى التبشير لأنه لا يجب أن تكون هناك فوارق بين الشعوب، وكما أن الكنيسة تريد أن يعّم المذهب الكاثوليكي الكرة الأرضية كلها وكما أن أبناء المؤمنين يحبون أن يكونوا أبناء الله، كذلك فإن الزعماء الروحيين لمملكة الفرنجة: أكلوين وهارابانوس ماوروس يفهمونها على نفس هذا النحو، أي على النقيض تماماً من رسول الإسلام؛ ذلك أن محمداً ﷺ يطالب بالاستقلال وحق تقرير المصير لكل الناس حيث تعلن السورة الخامسة من القرآن (آية ٤٨) ما يلي: ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾.

ومن هنا كان التكليف منذ محمد ﷺ حتى اليوم هو ضمان الاستقلال الديني والقانوني لكل طائفة غير مسلمة داخل الدولة الإسلامية.

---

(١) هذه المقارنة لا تجوز؛ لأن ما ذكره الرسول ﷺ قرآن كريم وهذا الكلام الأخير لإنسان كافر وحتى لو كان مؤمنا فلا تصح المقارنة بين كلام الله وكلام العباد.

ومن هنا كان ذلك الاستعداد لدى الفاتحين المسلمين الأوائل في أن يبقوا على الشعوب التي تغلبوا عليها، وأن يمدوا إليها أيديهم، وألا يمسّوا ديانتهم ودور العبادة ورجال الدين لديهم سواء كانوا مسيحيين أو يهوداً أو من الصابئة بسوء. ليس ذلك فحسب، ولكن أيضاً العمل على توفير الأمن لهم، ومنحهم حقوقهم والحماية التي يطلبونها، ولا يسمحون أن يلحق بهم الأذى طالما أنهم يدفعون الضرائب كما تقضي بذلك شروط التسليم السائدة للجيوش الظافرة خلال الفتوح العالمية في القرن السابع. وقد كانت هذه الضرائب أقل كثيراً من التي كانوا يدفعونها حتى ذلك الحين. والرواية التالية تبرهن على افتقار العرب بطبعهم للحماس لجذب الآخرين إلى ديانتهم:

فقد كانت تبذل الجهود لأسباب تتعلق غالباً بميزانية الدولة التي يلتزم بالإسهام فيها غير المسلمين التزاماً أقل بكثير مما كان يحدث تحت السيطرة البيزنطية. كانت تبذل جهود كبيرة من أجل منع دخول غير المسلمين في الإسلام، كما أن من يعنيهم الأمر كانوا يرون أن التسامح الذي لم يعهدوه من قبل حتى الآن، هو عمل خيري وغير معتاد: "فقد كتب أحد كتبة أحد أساقفة جماعة النساطرة التي كانت قد تعرضت للاضطهاد من جانب الكنيسة البيزنطية إلى صديق له كلمات تفوح فيها رائحة الارتياح:

وحتى حين بلغت محاولات الإثارة الدينية قمة الغليان أثناء الحروب الصليبية كان السلاطين المسلمون يدعمون المستشفيات المسيحية بالهبات المالية التي وضعت خطأً في الصورة العكسية بشكل أن تلك الأفكار متطرفة للغاية بواسطة الدعاية المعادية طوال كل القرون الماضية حتى يومنا هذا كان هناك مثل لها غير معروف ولا يحبذ المرء الاعتراف به، وكان ذلك لدى أسلافنا الجرمان الذين ينسب إليهم الرواة المعادون

لهم نفس ما نسب إلى العرب من القساوة التي لا حدود لها ، والفظاعة البربرية ، والدمار الشبيه بما يشبه الجراد من إفساد في الأرض وهلاك للإنسان وإفناء لكل حضارة .

ويقدم لنا بلوتارخ اليوناني الصورة المقابلة لذلك في المواضع التي يصف فيها زحف (السيمبريين) عبر وادي إيتشتال وإن كانت تلك المعلومات قد وردت إليه عبر مصدر ثان أو ثالث وذلك عندما كشف جذور الفروسية الجرمانية التي لا شك خلفت آثاراً عميقة على الرومان : أي احترام العدو المكافىء في القوة وإحساس المرء بالسعادة تجاه صنوه . ذلك أنه بعد أن هرب الجزء الأكبر من الجنود الرومان بسبب تصدع جسر إيتشتال الذي تسبب فيه السمبريون مستخدمين جذور الأشجار وقطع الصخور بعد أن هربوا في خوف واضح فإن كافة الجرمان هاجموا القلعة من الجانب الآخر لوادي الاتشتال ثمَّ عقدوا مع الحامية الرومانية التي دافعت عن نفسها ببسالة وواجهت الخطر في سبيل الوطن - نتيجة لتقديرهم لموقف الرومان - معاهدة ومنحوهم حق الانسحاب بحرية . فهل هناك تناقض أكثر حدة مع ذلك من شنق كافة سكان القرى بما فيهم النساء والأطفال باسم المسيح بواسطة الصليبيين الذين خرجوا من أجل تحرير القدس تلك المدينة المقدسة؟

إلا أن التقرير الذي وضعه القديس أوجستين ودهشته من سلوك الجرمان عند الاستيلاء على روما المسيحية في عام ٤١٠ بواسطة ملك القوط الغربيين ألارلش يلاقي قدراً أقل من الشك مما ذكره المؤرخ الروماني ، وبالتأكيد فإنه يعلو على أي شبهة بالتحيز : "إن الشيء الجديد تماماً هو أن البرابرة قد أظهروا مثل تلك الرأفة بدلاً من الفظاعة المعتادة وذلك نتيجة لتغيير عجيب في سلوكهم ذلك أنهم طالبوا الرومان أن يتخلوا عن كنائس البازيليك الفسيحة ليتجمعوا فيها حيث يكونون

بمأمن من أي اضطهاد، وحيث لا يستطيع أحد أن يأخذهم أسرى من هناك كما أنه يمكن بالفعل وضع الكثير من أعدائهم المشفقين عليهم في تلك الكنائس.

ولم يكن ما يشغل بال رأس الكنيسة قط ذلك الحدث النادر الوقوع وهو أن يقوم المنتصرون بمنع تعرض أعدائهم للنهب والطرد في حين أن قادة الجيوش المسيحيين كانوا يسعون دوماً إلى القضاء على سكان المدن التي يستولون عليها على أنَّ أكثر الأمور بعداً عن التصديق هو أن البرابرة الوثنيين لم يمتنعوا فحسب عن تدمير الكنائس المسيحية وإنما حرصوا على مكانتها المقدسة ووظيفتها التي تقدم الحماية والمأوى. وفي الحقيقة فإن التسامح و "الفروسية" التي تدفع ذلك المضطهد القاسي للخارجين عن تعاليمه المسيحية الجامدة، (أوجستين) إلى إظهار الدهشة الواضحة. وذلك الرجل الذي ظل يدعو لفترة طويلة في واقع الأمر إلى الرأفة والرحمة لم يبذل في الواقع بصورة فعلية جهداً لمنح ذلك الاعتبار والاهتمام الفعلي بالعدو.

ولهذا السب فإن الإصرار على الكراهية الدينية بالصورة التي اجتهد المتعصبون الكنسيون لكي يزرعوها في قلب المحارب الصليبي ، ظل غريباً عن طبيعة الفارس الألماني . كذلك ظل التعصب العقائدي الذي أخذ الشعراء من الرهبان - مثل الراهب كوزاد في أغنيته رولاند التي أنشدت بالألمانية - يروجون له دون هوادة تجاه الكفار الملعونيين الذين لا يرجى من ورائهم شيء . وكذلك نجد التحمس العقائدي الفظ وتلك الأشعار المبتذلة التي يؤلفها رجال الدين ويغنيها الموسيقيون المجهولون متشدقين بشخصيات نمطية جامدة مثل الفارس النبيل " و " الوثني الشرير " . وكان من شأن تلك الأشعار أن تدفع برياح جديدة تهدف إلى إحياء الحماس الصليبيي الذي أصابه الكلل وكاد يتوقف تماماً .

في حين أن الفروسية هي التي دافعت ضد محاولات تحقير الخصم وإدانته وذلك عن طريق الإدراك وإقرار الفارس فولفرام فون إيشنباخ بأن الكل مخلوقات الله . ويتضح لنا من قراءة الأشعار الألمانية أن الفروسية الألمانية تصف نفسها بصفة الفروسية الحقة ، فهي قد خلقت شخصية الوثني النبيل . وكان ذلك بمثابة عمل يتسم بالهرطقة والثورية ويتحرر من ازدواجية التفكير الكنسي أي التفكير الذي يتحرر من الفكر المتصلب ويتخلص من الموروث اللغوي ، ولكن كيف يتم ذلك التحرر؟ عن طريق المطالبة بالتكافؤ في القتال الحقيقي الذي لا يعاقب المخطئ و يقطع رأس المجرم ويمكنه أن يجتث جذور الكفار ، ولكنه الفكر الذي يطالب بعكس ذلك ، أي الخصم الجدير بالاحترام بصفته رفيق نضال .

واستناداً إلى تلك الملامح المحببة نشأت الصورة الجديدة "عن الوثني النبيل" . وتكرر ذلك كثيراً؛ مثلاً على أيدي الشعراء المجهولين الذين كتبوا مثل إرنست "أوريندل" و "فولف ديتريش" و "تشيد جورون" كما فعل ذلك أيضاً هارتمان فون أوي، ورودولف فون إمس وأرلريش فون ريم تورلين، وكما فعل بصورة تتسم بقدر أكبر من الحيوية والوضوح فولفرام فون إيشنباخ . وعلى الفور يصبح في وسعنا أن نتخيل قيام علاقة الحب، بل الزواج بين أحد الفرسان الألمان وامرأة عربية خاصة وأن مثل تلك الروابط لم تكن في الحقيقة نادرة الحدوث فقد تزوج فارس من "جيبايل" ابنة سلطان حلب، كما تزوج سلطان إيكونيوم الكونتسية النمساوية إيدار . وهكذا تحولت ممارسات الوثنية الفطرية كما يحدث للأمير في الأسطورة إلى فرسان بلاط في أبهى منظر ويتمتعون بأخلاقيات طيبة، وشخصيات نبيلة وأسلوب فرساني في القتال - وهي صور مثالية للفروسية وأخلاقها العالية لا تقل في شيء عن صورة الفارس الألماني سوى أنه يؤمن بإله آخر ولكنه حتى ذلك نادراً ما كان يُعَد نقيصة و في معظم الأحيان لم يكن أحد يشير إلى ذلك . فيا له من إنجاز .

ولكن المرء لم يتوقف عند هذا الحد؛ فشعر الفرسان الألماني لم يكتف بتصوير العربي على أنه يتمتع بقدرة مثالية مساوية وأنه خصم يتمتع بنفس الأخلاقيات النبيلة مما يدفع الآخرين إلى احترامه وإلى الإعجاب به والسعي إلى كسب صداقته، بل إنه أصبح عنواناً للفروسية . ويتكرر هنا أيضاً ما نعرفه كحقيقة تاريخية من أن القدوة التي تبدو في الفروسية العربية تدفع الفارس الإنساني إلى تفجير طاقاته .

فلقد أوضح إيشنباخ أن فروسية الفارس العربي كانت سبباً في بعث تقاليد الفروسية لدى بطله " ذلك أن فولفرام لم يجعل بطله بارتسيفال يقوم بواجبه اعتباطاً خلال المعركة الأخيرة الحاسمة في حياته فيما بعد. ذلك الطريق الطويل الذي خاضه من خلال الإحساس العميق بالألم والنصر والفشل واليأس وهو في مواجهة البطل (فايرفيتز) (Feirefiz). وما حدث هو أنه خلال المعركة مع فايرفيتز " الوثني المدجج بالسلاح الذي يُعَد من أشد الفرسان فتكاً ، فإن بارتستال عانى محنة لم يشهدها من قبل وهو أقوى فرسان الغرب الذين أثبتوا كفاءة خلال العديد من المعارك. ولم يكن يعرف خصمه وهو وراء دروعه المحكمة ، ولكنه أحس أنه يتمتع بفنون قتالية متفوقة لا ترحم. وقد دفعه ذلك إلى بذل قصارى جهده ، الأمر الذي جعل كفة الميزان تتأرجح بينهما ، وهنا يتحطم سيف بارتسيفال على خوذة الفارس المجهول ، كما أن عنف الضربة جعل الغريب يسقط على ركبته ولكن لفترة قصيرة تمكن بعدها على الفور من الوقوف على قدميه من جديد ولكن بارتسيفال أصبح أعزل من السلاح وتحت رحمة خصمه القوي معرضاً للموت.

فماذا فعل الفارس المجهول؟ لقد كان النصر في متناول يديه ، كما أن كل قواه كانت مشدودة نحو الهدف ، ذلك أن هدف أي معركة هو ضرورة التغلب على الخصم. وبعد لحظة بدت طويلة أخذت نظرته تنم عن الرحمة. ولكن المصير كان لايزال معلقاً ، وكان ناقوس القرار يتأرجح بين النصر والشهرة ذائعة الصيف وموقف الترقب الصامت للخصم الذي أصبح بين يديه ، وهنا أدرك ذلك الفارس الوثني تلك الفرصة النادرة التي تتيحها له هذه اللحظة.

وهكذا تخلى عن الشهرة التي كان سينالها من القتال وعن الاستمتاع برؤية منظر خصمه جاثياً عند أقدامه . "وهكذا ظهرت الصفات التي تنم عن رجولته فقد أصبح يتسامى على كافة الأمور الصغيرة حيث قال : لن ينال هذا السيف من أي منا " . وألقى بسيفه ، فهل كان ذلك بدافع الرحمة؟ كلا ، ولكن محاربة أعزل من السلاح لا تعتبر بالنسبة إليه قتالاً ، لأنه يجب أن تتاح للطرفين نفس الظروف ، لذلك قال موجهاً حديثه إلى بارتسيفال : "إنني لن أحظى بنصر مؤزر إذا أنا قتلت خصماً لا يستطيع الدفاع عن نفسه وإذا كان لا بد من معركة ثنائية فيجب أن تكون اللعبة متكافئة بالنسبة إلى الطرفين . كذلك فإن الغريب أوضح لبارتسيفال أنه أخوه غير الشقيق (فرايفتز) بالبياض فهكذا تصور الشاعر - الذي لم ير البلدان العربية مطلقاً - لون المرأة العربية وابنها من زواجها من والد بارتسيفال .

إن هذه الأخوة بين فرسان هذين العالميين اللذين يفصلهما عن بعضهما العنصر أو الدين والتي تنشأ بصورة لها قوة المثل والقدوة نتيجة للأعمال الفرسانية التي يأتي بها ذلك الوثني وكذلك الخبرة المكتسبة مؤخراً من جانب من كان معرضاً للموت تواً والمتمثلة في التخلي عن استخدام السيف بسبب الأخوة ونتيجة الفروسية التي لا مثيل لها لدى المنتصر ، كل ذلك كان كافياً لإحداث التغيير . وهذا فقط هو الذي يجعل بارتسيفال أكثر حكمة ونضجاً وليس تعاليم جورينمانس بشأن عالم البلاط الذي يفرض التقاليد الشكلية للفروسية ، ولا تعاليم التقي الراهب ترمريتسنت حول خطاياه ولا التحذيرات الجافة وإدراك حقيقة الأمور . وهكذا فإن قيام فايرفيتز بالإبقاء على حياته بينما هو في أشد حالات الخطر سببٌ في أن يدرك بارتسيفال الرابطة المصيرية والالتزام المتبادل نتيجة للمثل الحي لمسؤولية الفارس غير الأنانية الواجبة تجاه الآخرين وتجاه

المجتمع والسلام والنظام في العالم هي التي أنضجته وجعلته جديراً بقيادة الإمبراطورية. ولذلك فإن لحظة لقاء بارتسيفال مع فايرفيتز تعتبر واحدة من أهم لحظات الإنسانية الفرسانية في تصوير الشعر الألماني للفروسية ولم تكن تلك هي القصيدة الوحيدة بالنسبة إلى فولفرام.

ذلك أنه أيضاً في ملحمة ڤيلهلم الشعرية الكبيرة التي يجول بها فولفرام في أفق الأحداث التاريخية الواسعة وفي أراضي الإمبراطورية، فإنه جعل أحد العرب يقوم بالدور الحاسم الذي يحدد مصير المعركة. ويجب علينا أن نوضح تلك المسألة الخطيرة برمتها؛ ذلك أن أحد العرب في بلاط القيصر في آخن وهو عربي أخذ يحث فرسان الإمبراطورية الذين يتهربون من القتال ولا يرغبون فيه على الهجوم. عربي كانت شجاعته البطولية ومهارته القتالية سبباً في أن يحرز جيش الإمبراطورية النصر. ولكن لم تكن هناك تبريرات نفسية كاملة للسبب الذي جعله يقاتل حتى أباه وعشيرته العربية، وظل يمثل بالنسبة إلى الشاعر بصورة غير أساسية شخصية محببة جداً تشع الكثير من البهجة والحب والفكاهة، وهي صفات زود بها ذلك العربي النبيل الذي يتسم بعدم المهارة.

وتبدأ الحكاية أشبه بالأساطير: ذلك أن الشاب العربي، وهو ابن ملك بغداد العظيم (تيرامر)، خطفه التجار من وطنه (ليجعلوا منه عبداً) وباعوه إلى قصر لودڤيج التقي، حيث اضطر على الرغم من حسنه وعلو أصله أن يعمل دون أن يعرفه أحد مساعداً للطاهي تحت اسم (رينيفارت) لأنه لم يرضخ لكافة الإغراءات من أجل تعميده. ولما كان الكونت ڤيلهلم على وشك أن يقود جيش الإمبراطورية ضد هجمات أقوى قوة في كافة الممالك العربية من مارسيليا حتى القوقاز فإنه اكتشف وجود ذلك الشاب العربي في تلك المكانة الحقيرة فاتخذه تابعاً له، وكان

السبب وراء تلك الحملة العربية والتهديد الذي تعرضت له الإمبراطورية كلها يعود إلى ابنة الملك تيرامر وزوجة الملك تيبالت التي كانت أجمل نساء العرب ولذلك سميت بالحسناء أو (آرابليلا)، ذلك أنها قد تخلت عن قبيلتها وزوجها ودينها لفرط حبّها لكونت ڤيلهلم من البروڤانس ... تبعت ڤيلهلم بصفتها زوجته المسيحية التي يثق بها إلى قلعة (أورانج) تحت اسم جيبورج . وقد وضع الشاعر الفارس على لسانها وهي العربية عند وداع زوجها الذي أوكل إليه القيصر قيادة جيش الإمبراطورية ضد الجيوش العربية وضع على لسانها الرجاء التالي :

عندما يندحر الوثنيون

اعملوا على بقاء الأمور سليمة

ولتسمعوا نصيحة سيدة كريمة

عليكم أن تبقوا على مخلوقات الله

ذلك أن الوثني هو أول إنسان خلقه الله

وكنا جميعاً وثنيون قبل أن نولد من جديد .

ولكن أخاها هو الذي حقق رجاءها، وهو ذلك الرجل رينيڤارت صاحب الضياع الذي أظهر أنه أقوى المحاربين خلال المعارك وحين يستسلم له الخصم، وحتى لو كان هذا الخصم مجرد حارس بسيط، فإنه يبقي على حياته :

لقد قام بذلك بدافع من فروسيته التي جبل عليها

لأن أعداءه استسلموا بلا سلاح

فلم يكن لديهم سيف أو رمح

إلا أن شهامة الفرسان لا تعني إعمال الروية تجاه الضعفاء ومن يرفضون القتال. ذلك أن رينيڤارت لا يحجم عن وخز أجسام الفرسان الفرنسيين برمحه الطويل حين بدؤوا يغيرون فكرهم عند (بداية) الجولة الكبيرة واتخذوا طريق الهرب.

أراد البعض رؤية نسائهم من جديد
والبعض الآخر سعى بعد المشاق التي تجاوزوها
وبعد كل العناء، الذي تجشموه أن ينعموا بالراحة
في حين أن قطاعاً ثالثاً أراد الخلود إلى
الراحة بعد العناء
ويرى أن لا توجد خيمة في حقل أو مرعى
يمكن أن تكون مريحة بحيث لا يمكن
استبدالها بوسادة ناعمة في مخدع دافئ
وليستمر الأغبياء
في محاربة "شراذم العرب"
في حين أننا نريد الهروب من ذلك العناء إلى حيث نجد راحتنا.

لقد قام رينيڤارت بتربية هؤلاء الصبية ذوي الشعور الملساء" الذين "ليسوا رجالاً إلى حدّ أنهم ينسون سريعاً أنهم يفضلون تحقيق شهرتهم في حلبة السباق والتمتع بحياتهم بكافة الوسائل أما الآن فإنهم وبحماس بالغ اختاروا العربي الشاب ليكون قائدهم وتبعوه إلى المعركة وهم يطلقون الصيحة القتالية "رينيڤارت" ونادى الكونت ڤيلهلم على الصبي العربي حين كان يتقدم على رأس الجيش الفرنسي الهارب: "من حسن حظيّ أنك معي".

ولذلك كان شعوره بالألم شديداً، حين لم يتمكن في المساء من العثور على صديقه رينيڤارت بعد نصر انتزع بصعوبة وبخسائر جسيمة. وكذلك فإنه منح ذلك العربي أفضل تكريم - "لأنني انتزعت النصر والفضل لله" :

أيها البطل الصنديد والشاب الرائع

إذا لم أستطع أن أخدم في ظل مهارتك الرجولية

وطبيعتك الودودة التي تتسم بالبساطة

ومكانتك الذائعة الصيت

يكون في ذلك هلاكي

ترى هل سرقك الموت مني؟

ألن تتقّبل خدماتي بعد الآن

ولا تستطيع الإنصات إلى ما أخبرك به؟

لقد دافعت عن هذا البلد من أجلي

وحافظت على حياتي وعلى "جبيورج" زوجتي الجميلة

ولولا شجاعتك التي لا مثيل لها

لكان أبي العجوز قد تعرض للهلاك

ولكانت عشيرتي وإخوتي قد ضاعوا بدونك

لقد كنت الدفة التي توجه سفينتي

والرياح الميمونة الدافعة

التي جعلت أبناء هايزيش يضعون أقدامهم على الأرض الرومانية بثقة.

ولم يسبق أن تبوأ أحد من معاصرينا قبل ذلك

مثل تلك المكانة الرفيعة

وهنا تبرز من جديد تلك اللحظة الخلاقة العظيمة التي أتيحت للطرف الظافر الذي أصبح في مقدوره من خلالها أن يغير ما بنفسه على الرغم من تشبعه بضراوة القتال ومرارته، وأن يتمسك بتقاليد الفروسية بدلاً من التفكير في الانتقام.

تلك اللحظة التي لا يمكن استرجاعها مرة أخرى والتي لا يحاول منها أن يزيد من إذلال وقهر العدو الذي كافح بشرف وخسر بشرف ولكن يحاول إقالته من عثرته وإصلاح أمره، فهل سيدرك ڤيلهلم تلك الفرصة الفريدة ويفهم ذلك النداء الصامت الذي يأتي نتيجة النصر الذي حققه ذلك الرجل الصلب القوي محققاً به شهامة الفارس؟

لقد أمر القائد الظافر ڤيلهلم بإحضار أحد الأمراء العرب الأسرى إلى معسكره حيث رأى أنه جدير بشكل خاص بالقيام بمهمة ما، وقال له: "إنكم تمارسون حياة كريمة وشريفة ويمكنني أن أمتدحكم من نواحٍ عديدة، أمتدح شجاعتكم وإخلاصكم، وكرمكم الذي لم يتأثر رغم تقديم كل التضحيات وكذلك صلابتكم التي لا تهتز مطلقاً. " وطلب منه أن يبحث عن الأمراء العرب الذين سقطوا في ڤالشتات حتى يستطيع توفير الرعاية التامة لهم: "بحيث لا يصبحون نهباً للذئاب والغربان"، وحتى يتمكن من استقبالهم بما يليق بهم ودفنهم وفق مراسم ملوكية كما لو كانوا قد ماتوا في ممالكهم وأوطانهم. وهنا ألقى الرجل الذي حظي بكل ذلك التكريم بنفسه عند أقدام ڤيلهلم، ولكن الأخير أوقفه ثانية على الفور فشكره الكونت وقال، إن تلك الفعلة قد توجت عمله، وإن ذلك

سوف يظل دوماً عنواناً للطيبة، كما أنه لن ينسى كرمه مطلقاً.

وقص عليه ڤيلهلم ما يلي: " إنه قد وجد الكثير من ملوك العرب القتلى في خيمة أحد الكهنة الوثنيين "حيث تم دفنهم هناك، - " ولذلك فقد وضعت الخيمة تحت لوائي الذي ضربته أمام الخيمة وأصدرت أوامري بألا يؤخذ أي شيء من خيمة الكاهن. ثم اتجه بكلامه إلى أسراه الكرام: "أما أنتم فيجب ألا تبقوا هنا كمهزومين، فاطلبوا بأنفسكم ما تريدون، وكل ما أملكه تحت تصرفكم. ولكى يشرّف خصمه فإنه كلَّفه بمهمة إعادة الأبطال العرب القتلى إلى موطنهم في ظل حرس شرف من فرسان الفرنجة. وبذلك فإنه يكون قد تصرف متجاوزاً تناقضات العقيدة والعداء والآلام التي اجترحت من قبل وتصرف على أساس من المساواة واحترام من هو جدير بالتكريم وشيّد الجسر المؤدي إلى السلام الحقيقي.

وأرسل يقول للملك العربي الكبير المهزوم أنه لا يرسل إليه قتلاه "بسبب الخوف"، وأن انتصار الإمبراطورية وفرسانه لايعني الذبح أو الاستعباد أو الإذلال أو توجيه اللوم بصورة جماعية، ولايعني كذلك العقاب أو التشدق بالنصر العظيم على العدو المهزوم الذي جرت العادة على استغلال هزيمته، ولكنه يعني الاستعداد لمنح التشريف للخصم الجدير بذلك وسواء كان يصلي لله أو للرب، لأنه لا فرق هناك بين الاثنين:

لأن الجميع مخلوقات الله

كل الناس الذين يتحدثون اللغات الاثنتين والسبعين التي خلقها الله.

وكون الإمبراطورية حقاً وانطلاقاً من روح الفروسية أن تظهر نفس الإحساس بالمسؤولية تجاه المسلمين بسبب تقديرها لهؤلاء الناس المساوين لهم وإن كانوا ذوي

عقيدة مختلفة - بالصورة التي يجسدها شعر ڤولڤرام فون إيشنباخ الفارس عن الصداقة بين الشاب العربي الذي ظل مخلصاً لعقيدته وبين ڤيلهلم كانت هناك شهادة باقية على مرّ العصور على ذلك في ظل إمبراطورها العظيم .

ولقد أوفى فريدريك الثاني بالوعد الذي قطعة على نفسه للسلطان عندما وصل إلى الشرق إذ قال له حينئذ : "عليكم أن تستريحوا من مواجهة المسيحيين ، ولستم مضطرين إلى إراقة دماء أتباعكم في مواجهتنا" . بل إنه عرض فوق ذلك أن يعمل من أجل جمع شمل القلوب التي فرقها العنف وإراقة الدماء ، في إطار صداقة تقوم على قدم المساواة .

وهي فكرة ڤولفرام نفسها حوالي عام ١٢١٠م التي صاغها شعراً في "ڤيلهلم" ، واتفاق السلام الذي عقد يوم ١٨ فبراير ١٢٢٩م الذي دعا إليه في نفس الوقت القيصر الألماني والسلطان العربي أي إن الخيال والواقع تلاقيا معاً .

إن هذه الروح التي تتمتع بها الفروسية الألمانية والإمبراطورية على حدّ سواء قد ثبتت أقدامها كشيء بالغ القدم وبالغ الجدة في الوقت نفسه بعد أن تخلصت من الروح الانقسامية التي عبرت عنها عبارة كليرفو : "إما تنصير الكفار أو قتلهم" . وقد نشأت عن تلك الروح رابطة فريدة من نوعها مع أصحاب الديانات الأخرى . تآلفت معها مشاعر الدهشة من جانب أبناء الغرب الذين أخذوا يفركون أعينهم بعد أن زالت عنها غشاوة الأساطير السوداء التي تتحدث عن الأعمال الفظّة من جانب الشياطين الوثنيين الذين اتضح أنهم أصحاب حضارة وأسلوب حياة تتفوق من كافة الجوانب على الغرب و تتمتع برونق وبريق لم يسبق أن رآهما أحد ، ومن ثم أصبح لزاماً على هذا العالم أن يحتذي حذوهم ويعمل على الاستفادة من سحر أسلوب حياتهم الفاتن .

الفصل الخامس

التأثيرات العربية تخلق نوعية حياة جديدة

لقد أصبحنا الآن شرقيين

إنهم يأنفون من لعب الشطرنج والنرد، كما أنهم يكرهون الصيد، بل إنهم لا يسعدون بتحليق الصقور وهم يحتقرون الكوميديين. . وكذلك عروض الهزليين كما أن شعورهم مقصوصة لأنهم يعتقدون أنه من العار أن يكون شعر الرجل طويلاً، وهم لا يبالغون مطلقاً في أزيائهم، ونادراً مايستحمون فهم قذرون يكسوهم الشعر وتبدو بشرتهم وقد لوحتها الشمس وحمل الدروع.

من هو الذي يتم امتداحه هنا بتلك التنهدات المسموعة؟ إننا نتذكر أن أسقف كليرفو أراد بمدحه "لطبقة الفرسان الجديدة" أن يضع خطاً فاصلاً واضحاً بين فرسان المعبد والفرسان الآخرين الدنيويين الأقل درجة، إلا أن استحسانه ذاك يخفي إحساساً بالشك والقلق وعدم الارتياح، فما السبب الذي جعله لا يرسم الصورة النموذجية لفرسان المعبد كما هم أو كما يجب أن يكونوا؟ ولماذا يمتدح الخصال التي ليست فيهم وما لا يفعلونه وما الذي لا يسبب بهجتهم؟ إن ما ينم عن ذلك هو اختياره لتلميحاته المستمرة بالشطرنج، والهزليين، وتربية الصقور، والشعور الطويلة، الاستحمام. وعندما تلقى نظرة فاحصة بشكل أكبر يتضح مثلاً أن تلك السلبية لطائفة الفرسان التي يمتدحها ليست شيئاً آخر سوى الجوانب الأخرى "الإيجابية" لفرسان البلاط في الأرض المقدسة، أو بتعبير أكثر دقة: إنها رسم توضحي لأسلوب الحياة العربية في الملبس والعناية بالجسد وقضاء أوقات الفراغ وهي الأساليب التي وجد المناضلون ضد الكفار أنهم قد وقعوا أسرى لها

ولا محيدَ لهم منها . كما أن ما جعل ذلك الأمر أكثر خطراً هو أن العائدين إلى أوطانهم قد أصابوا من ظلوا في أوطانهم بالعدوى وكان ذلك يعني بالنسبة إلى الزعيم الروحي للمسيحية الغربية تضليل الروح المسيحية عن طريق الأفعال الآثمة للكفار وهكذا كانت تبدو الصورة المغايرة التي يصفها برنهارد بسخط عميق نحو فروسية البلاط التي وقعت بالفعل ضحية للأعمال الآثمة للكفار ، أي تجاه فرسان الرب الجدد الذين كان يجب أن يصبحوا مثالاً رادعاً :

" إنكم تزينون جيادكم بسروج ذهبية ، وتغطون أسلحتكم بأغطية كثيفة ، كما أن رماحكم موشاة وكذلك دروعكم وسروجكم ، كذلك تحلّون الأجمة والمهاميز بالذهب والفضة والأحجار الكريمة . وبذلك البريق الذي يمتزج بالغضب الأعمى والوقاحة الحمقاء ، تخوضون المعارك فهل تعد هذه الزينات الباهرة مناسبة للفارس أم أنها تصلح أكثر لبائعات الهوى؟ وهل تعتقدون حقاً أن سيوف العدو سوف تضع اعتباراً للذهب والأحجار الكريمة ولن تخترق الملابس الحريرية؟ لقد علمتني التجربة أن هناك أموراً لازمة للمحارب ؛ يجب أن يكون شجاعاً وعلى استعداد دائم للقتال . ولكنكم تتركون شعوركم طويلة مثل النساء بحيث تحجب عنكم الرؤية ، كما أنكم تحدون من حرية حركتكم بهذه الملابس الفضفاضة كما تخفون أيديكم الرقيقة الناعمة في أكمام واسعة تتدلى حولكم " .

أما بالنسبة إلى العربي المسلم الذي يعرف حقاً كيف يجمع بين الروح والمادة والدين والدنيا ، والعقيدة والحياة ، فإن جمال الروح والتقوى الشديدة والمهارة الفائقة في القتال والعناية بالجسم وواجبات العقيدة كل هذه الأشياء لا تتناقض مع بعضها كما هو الأمر بالنسبة إلى الفكر المسيحي المحكوم على الدوام بين المديح أو الإدانة التامّة .

خلال استعراضه للفروسية سواء من الناحية الدينية أو الدنيوية فإن القس كليرڤو قد امتعض من لجوء المسيحيين إلى تقليد أعدائهم العرب بصورة أصبحت أشبه بالصرعة. ثم ألا يكون من نشأ في ظروف بسيطة وفقيرة في الغرب وفتح فمه وعينية دهشة أمام ذلك العالم الشرقي الأخّاذ. ويغسلها مضطراً إلى أن يقف مبهوراً أمام بريق وعظمة تلك الحضارة الرفيعة؟

وكانت أسرع نتائج تلك الاتصالات التي جرت خلال فترات السلم، طالت أو قصرت، بين الصليبيين الذين استوطنوا هناك وبين الأمراء والفرسان الفلسطينيين والسوريين وبين العمال والفلاحين هي أنها أدت إلى تزايد التجانس بين بعضهم مع بعض. وأدى ذلك إلى اكتساب عادات العرب في معيشتهم تماماً وهي التي كانت فوق ذلك تتلاءم مع البلاد والمناخ بصورة أفضل من عاداته الخاصة. ثم من ذا الذي يمكنه أن يأخذ على الفارس أنه عندما يعود من جولة أو معركة تحت الشمس الحارقة أن يستبدل دروعه الثقيلة بجلباب عربي فضفاض سهل التهوية. وعندما - كما كان يعمل تانكريد وبالدوين الأول- يرتدي هذا الفارس الجلباب الحريري الفاخر والعمامة التي أهداهما إليه أحد الأمراء أو السلاطين العرب؟ أو عندما كان بسبب ندرة الأخشاب يستريح حسب تقاليد البلاد فوق الوسادات والأبسطة والحشيات الناعمة داخل البيوت الحجرية بسبب ندرة الأخشاب، كذلك عندما كان يأكل ثمار البلاد المعدّة على الطريقة العربية وينغمس من ثم ودون أن يدري - لأن صورة جيرانه وخصومة ماثلة أمام عينيه - في طريقة تعاملهم وأسلوبهم في الحياة. أو كان الأمر يصل إلى أبعد من ذلك كثيراً حين قام الملك بالدوين " ملك القدس " بالإعلان عن قدومه بالمزمور وحمل درعه المنقوش عليه شعار النسر أمامه على شاكلة الحكام الشرقيّين وهو ملتحٍ على طريقة النبي

ومرتدياً ثوباً ، قماشاً حريراً عربياً باهظاً؟ وعندما كان فرسان المعبد يضعون على أكتافهم تلك المعاطف السوداء أو البيضاء التي تشبه عباءات أعدائهم العرب الطويلة والفضفاضة ولا يفرقها عنها سوى الصليب الظاهر عليها؟

وليس هناك شك في أن مثل محاولات التأقلم تلك كانت تلقى ليس القبول فحسب أو تبرر الإحساس بالقلق بالشك من أن بعض الوافدين بسبب شعورهم بالغربة والحيرة أدركوا ذلك الإحساس الفريد بالألفة كما أدركوا مدى التغيير الذي طرأ على مواطنيهم في تلك البلاد .

ويتضح المدى الذي وصل إليه فرسان الصليب من الدول الصليبية الفرانكونية في دهشتهم إزاء هذا التعبير حيث قال أحد الفرسان لنا : راقبوا وتأملوا كيف حول الله الغرب إلى شرق ، إننا ، نحن الذين كنا غربيين قد أصبحنا الآن شرقيين . إن من كان يعد رومانياً أو فرنسياً قد أصبح هنا من الخليل أو فلسطينياً . كذلك فإن من كان يسكن - إيمس أو كارتري ، أصبح يشعر الآن كما لو كان مواطناً من حراس طرسوس أو أنطاكية . بل لقد نسينا مسقط رأسنا فلقد أصبح بعضنا لا يعرفه أو على الأقل لم يعودوا يسمعون منذ وقت طويل عمن يتحدث عنه ، ذلك لأن الناس كانوا يمتلكون هنا المنازل الخاصة والعائلات من الفلاحين المقيمين كما لو كانوا ورثو ذلك عن آبائهم . وكان البعض الآخر يتزوج امرأة ليست من مواطناته على الإطلاق . بل من السوريات أو الأرمنيات أو حتى عربية تنصرت وأصبحت تعيش الآن مع عشيرة زوجها . . . . وكانوا يتحدثون لغات مختلفة . وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنوا جميعاً من أن يفهم بعضهم بعضًا . وهكذا فإن تلك اللغات المتباينة أصبحت على العكس نسخة مشتركة بينهم ، كما أن مشاعر الشفقة عملت على التقريب بين الأجناس المتباعدة . ويوماً بعد يوم

كان أقرباؤنا وأحباؤنا يأتون إلينا هنا ويتخلون عمّا يمتلكونه في بلادهم. كما أن من كانوا فقراء في أوطانهم قدجعلهم الله هنا أثرياء، ومن كان يمتلك قطعة صغيرة من الأرض. أصبحت لديه هنا الكثير من الأراضي، كما أن من كانت لديه مزرعة واحدة أعطاه الله هنا مدينة، فما الذي يدعوه إلى العودة إلى الغرب إذا كان يجد الشرق مناسباً إلى هذه الدرجة؟.

وكانت هذه الجاليات الأوروبية الأولى هي المراكز الرئيسية التي نقلت العادات والتقاليد العربية إلى أوروبا.

الملابس العربية تضفي بهاء على من يرتديها:

لا تذكر الوثائق حتى تأسيس الطائفة الألمانية سوى أسماء قليلة لألمان ممن بقوا في الأرض المقدسة. إلا أن عدداً لا حصر له من الحجاج اتصل بعضهم ببعض خلال الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام - من ١٠٩٦ حتى ١٢٩١- سواء كفرسان من الحجاج أو المحاربين أو كتجار مع هذا العالم المثير الغريب. كما تنسموا عبير ذلك الجو الذي يأخذ بالألباب لمدنهم وقلاعهم ذات التأثير الكبير وكنائسهم الموشاة بشكل مبالغ فيه بالأعطيات التي تمنح لها وجوامعها التي تلمع ببريق الذهب، والأسواق التي تجيش بالروائح النفاذة وخيام الحواة والمهرجين والأسواق الشرقية التي تحوطها الأسرار والغموض. فهل كان من الممكن أن تنمحي من أذهانهم ذكرى كهذه كما ينزلق المطر على صفحة زيتية؟ ثم ألم يكن ما خلب ألبابهم هناك (جديراً) بأن يثير لدى العائدين إلى أوطانهم ويعيشون في ظروف متواضعة، الرغبة في أن تصفو حياتهم اليومية الروتينية و أن يعيد تشكيل وجودهم، الذي كاد يستقر على حالته البائسة، بصورة أكثر راحة وألفة وتنويعاً؟ وتحتوي اللغة الألمانية على الكثير من الكلمات المستقاة من اللغة العربية كما

احتفظت أيضاً بكنز من اللغات الشرقية الأخرى - عبر اللغة العربية - والتي لا تزال حتى اليوم تحمل ملامح انتمائها، ونحن نوضحها فيما يلي بالكلمات (بين الأقواس) [١] :

فهناك على سبيل المثال الأشياء اللازمة للراحة العربية والتي يزين بها العائدون إلى أوطانهم مساكنهم والتي نسميها (الكومثين[٢] ، الديوان، الصوفا، الماترتسا[٣] ، الأوتومانة)[٤] . كذلك فإن أشعار البلاط تحمسّ في القصور الحياة اليومية للفرسان وهم يستخدمون وسائل الراحة الفاخرة في الحجرات المدفئة وصالات القلعة وقاعات الاحتفال ، كما أن الشعراء عملوا على تأكيد شعورهم الشديد بالدهشة مثلما جاء في "نشيد نيبلونجن" أن كريمهيلد، وهي سيدة بلاط حقاً، قد استقبلت جونتر وزيجفريد في جناحها ودعتهما إلى الجلوس "حيث جلسا على أسرة وثيرة فاخرة، موشاة بالذهب" . وإذا كان المرء ينتظر ضيوفاً فقد كان المرء يغطي الجدران والأرض العارية بأبسطة ملونة زاهية مليئة بالأشكال والحلي الرقيقة، مرسوم عليها أسود وحيوانات خرافية وغيرها من حيوانات الأساطير . كما كانت تستخدم ستائر غالية تقسم بها الردهات تماماً مثلما حدث عندما استقبل شارلمان العظيم ضيوفه من بغداد" بالعطور والهدايا الثمينة" .

(١) بديلاً عن الكتابة المائلة في الأصل.

(٢) قبة السرير / غرفة جانبية صغيرة للنوم .

(٣) ماترتسا: مَرْتَبَة

(٤) أريكة .

وفيما يتعلق بسلامة التقدير كان صفة مميزة لدرجات الألوان المستخدمة فقد بدأ يطغى عليها الآن تيار من الألوان الوردية الدافئة مثل القرمزي والأحمر القاني والليلاك والبنفسجي والأزرق اللازوردي اللامع والأخضر الزفير والأصفر الزعفراني، وذلك أن هذه الألوان تُحيي وتجمل المواد البراقة واللامعة التي أضفت بها صناعة الحرير السورية بشكل خاص مسحة من الترف على بنك والحرير الدمشقي (نسبة إلى دمشق) والتانتان والأطلس والساتان والموهير والكريب ماروكين وغيرها التي لم تتغير أسماؤها إلى اليوم على الإطلاق. ويصف "نشيد جودرون" الفارسين (هوراند وڤاتين) وهما في زي التجار وهما يعرضان تلك الأشياء الثمينة من التطريز العربي وهي عبارة عن ستين قطعة، من أفضل مايجده المرء، وأربعين قطعة أخرى كانت تحمل إلى الشواطئ مع الصبغات الحمراء والحرير البغدادي.

وقد كان ذلك عبارة عن مواد حريرية عربية غالية: مثل القماش الأحمر الذي يحاك من نماذج رائعة من الخيوط الذهبية الحقيقية. قد أصبح أخيراً عبر اللاتينية الوسطى يسمى شارلاخ، أو الحرير البلداخي الرقيق من (بلداك) أو بغداد واستخدم بشكل خاص في الديكور.

وقد حلّق الشعراء في رسم تلك الحرائر الثمينة والغالية التي كانت ترصع بالأحجار الكريمة كما ترصع السماء بالنجوم:

من الحرير العربي ... الأبيض كالثلج
والزازمنك الجيد ... الأخضر كما العشب
نسقوا الأحجار ... التي صنعت رداءً جميلاً
وقد صنعته كريهيلد ... الجميلة بأيديها

وسواء كان أبطاله يخرجون في " زفة العروس " أو إذا ما استقبلوا ضيوفاً، فإنَّ نشيد نيبلونجن لم يترك مناسبةً دون أن يصف الثياب الفارهة والموشاة بخيوط الذهب والفضة التي تزّين بها أيدي النساء الماهرة ملابس سيدات القصر والفرسان. كما أنّ الحزام الذي سلبه سيجفريد من برونهيلد في ليلة الزفاف وأخذ يتباهى به أمام الحسّاد، إنما يمثل قطعة حلي عظيمة.

من حرير نينفر	ارتدت فستاناً
كان مزداناً بالجواهر النفيسة	ذات الجمال الأخاذ
وكان النطاق ذا فن جميل	ثمين وطويل
كانت أيدي النساء تتأرجح	فوق الملابس الخفيفة
وحول التنورة الغالية	من الحرير العربي

ولا يدع الشاعر أي مجال للشك في مصدر كل تلك الأشياء الرائعة:

من أرض المغرب ومن ليبيا كذلك تأتي أفضل الحرائر التي يرتديها أبناء الملوك ولديهم منها الكفاية ظلت كريمهيلد تستمتع برؤيتها بقدر حبها لها.

إن بعض الجواهر البراقة مصنوعة من الذهب العربي

وكان لدى النساء	وقت طويل
فصنعن الرداء	في أسابيع سبع
وشحذن الهمة	وأعددن العدة

إذ من أين يمكن أن يأتي سوى من هذه الدول العربية التي زاد مديحها بها خلال ذلك العهد (أجمل الأشياء وأنبلها وأغلاها) وهي الملابس المنتقاة بدرجة تكفي

لإلباس الفرسان لكي تراهم السيدات النبيلات وكذلك لتتزين بها السيدات النبيلات عندما يظهرن بها أمام الضيوف .

ولكن أيضاً قماش الكاميلوت " الدافئ و " لما خيكر " أو الموهير من وبر الجمال أو الماعز كان مفضلاً . وكذلك البازخنت (والبوخيرانت) أو البوخاري المصنوع منزلياً من القطن من بخارى والذي كانت ترتديه الجميلات أثناء أداء الأغاني الريفية مثل "نايد هاردت فون رونيتال" ، وكذلك البومباسين من القطن الخفيف والقطن الناعم والموسلين من الموصل بدأت تملأ صناديق ملابس ربات البيوت وتشكل حياتهن اليومية بصورة أكثر تنوعاً . ولقد كان البارخنت بشكل خاص يحظى بقبول شديد في ألمانيا إلى حدٍّ أن شقيقين من جرابن بالقرب من أوجسبورج قد توصلا إلى فكرة إنتاج البارخنت في مصنعهما الخاص من القطن الذي يستوردانه من سوريا وقبرص وحققا ببيعه رواجاً كبيراً - وهي الفكرة التي حققت مكانتهما العالمية بالفعل على أساس بالات القطن وأكياس الفلفل العربي .

لكن هيجان هذه الصرعة الكبيرة لم يكن يأتي فحسب بالأقمشة والألوان والزينات من الشرق إلى ألمانيا ، بل أيضاً بأشكال جديدة تماماً للملابس الخاصة بالمرأة والرجل والتي تأصّل بعضها إلى درجة أننا لم نعد نكتشف فيها أصلها العربي .

كما أنّ الأحذية العربية نفسها أعطت أشكالها للبانتوفلي و " البابوش ، وكذلك فإن " الألشين " أخذ اسمه من مدينة " غاداما " في شمال إفريقيا . ونسيج الحرير من الكلمة العربية " القز هو المصنوع من الحرير الخام الشفاف أو القطن ويستخدم كمادة لصنع الضمادات وكقطع اكسسوار (زينة) هامة لملابس السيدات العربيات " مثل الطرحة التي كانت تنسدل منذ عام ١٢٠٠ على شعر النساء والفتيات

الألمانيات وتغطي مؤخرة الرأس والأكتاف في ثنيات حرة. وسرعان ما أخذت نساء الشعب تلفها بإحكام حول الرأس والذقن والرقبة بصورة لا تختلف عن الكوفية العربية. ولم تختف الطرحة حتى الآن من دولاب النساء، بل إنها حازت لبعض الوقت على قدر من التفضيل إلى حد أن صدرت تعليمات خاصة بالطرحة في المدينة للتصدي بعنف ضد الترف الذي تمثله المناديل الصغيرة المثيرة للإعجاب.

كذلك لم يكن الرجل يرتدي فقط الكوفية العربية كحلية للقبعة التي تدخل ضمن معداته كفارس، بل كان يلف أيضاً منديلاً يشبه العمامة حول رأسه، به حواف متدلية، وظل صرعة الرجال لوقت طويل.

وفي مقابل ذلك فإن الكاسكيت المأخوذة من كلمة "المستبقي" العربية لها شجرة عائلة وهو ما يثير الدهشة وذلك أنها تعتبر الجد البعيد للمعطف العربي ذي الكاب المصنوع من الفرو ذي الأكمام الطويلة الذي جاء إلينا مع المنتجات العربية عبر صقلية وإسبانيا العربية باسم "الموكيا" وعبر الألب. واتخذ هنا منحىً ذا اتجاهين؛ ذلك أنه بينما تحول في ناحية - شبيهاً بالكاب والغطاء - إلى كلمتي "موتسة وموتسن، وبعد التخلي عن غطاء الرأس، تحول إلى جاكت، فإنه فقد من ناحية أخرى المعطف وتقلص ليصبح مجرد غطاء للرأس باسم " الكاسكيت " .

كذلك فإن كلمة "Kittel" أي المعطف الخفيف - ذلك الرداء القطني الشبيه بالقميص الذي يستخدمه الرجال والنساء هي كلمة ذات رنين - مثل كلمة "Kattun" التي تشبه كلمة "قطن" العربية. كذلك فإن ما أخذه بيرنهارد فون كليرڤو على الفرسان من أنهم يرتدون الأكمام الواسعة جداً التي تتدلى برحابة حولهم قد أصبحت موضة شائعة، وأصبحت أيضاً تتدلى من الأيدي الناعمة للرجال والسيدات التي تنسدل وتطول دائماً مثل أكمام الموارنة، .

أما الرداء الخارجي العربي ذو الأكمام الطويلة المسمى "الجبة" فقد سمي في ألمانيا جوبة وهي الشبيه بالرداء الألماني الذي يلبس ومن ناحية أخرى فإنها تطورت بشكل مميز لتتحول إلى المعطف الفرو الذي لا يزال يسمى حتى اليوم في سويسرا "Schube" وهو تطور خاص نحو المعطف المفتوح الياقة عريض الأكتاف الشبيه بالشال الذي كان يغطي غالباً بالفرو. وظلّ الرجل يرتديه في المناسبات الرسمية حتى عصر الإصلاح.

وسوف نلتقي بأشياء أخرى معروفة ذات أصل عربي دون أن يخطر ببالها أصلها العربي ولكن أيضاً بدون أن نشعر بالمفاجأة خاصة في ملابس الرجل المهنية في ذلك الحين أي ملابس الفارس الذي احتك خلال المعارك مع العرب بصورة مباشرة.

الأنامل العربية تطرّز رداء
القيصر الألماني

كانت القوتان اللتان تحكمان في ذلك العهد، وهما الإمبراطورية والكنيسة، بمثابة هدية آتية من العرب وتعتبران بصفة خاصة نتاج موهبة عربية متميزة يجب علينا أن نعطيها بعض الاهتمام، ذلك أنه بدون أن نفهم تلك الموهبة العربية لن يكون في وسعنا أن نعطي تقديراً صحيحاً لأحد الملامح الأساسية التي تميز الروح العربية.

إذا كان الشخص العربي - ليس بدافع الحظر الديني في الحقيقة بقدر ما هو بدافع من الميول الذاتية- يتجنب تصوير الأشكال الطبيعية[١] للنبات، أو الحيوان، أو الإنسان، أو حتى الله، في الفن، فإن كل قواه التشكيلية الخلاقة التي قامت بدورها الخاص بتحويل الحقيقة إلى خيال بتلك الصورة الغنية بالتعبير في الشعر الوصفي، إن هذه القدرة إنما تتجسد في الفن الوصفي للطبيعة. ويمكن أن نقارن بين ذلك الوصف وبين الجرماني الذي يصف الحيوانات وصفاً جمالياً. فالعربي يعمل عن طريق التداعي في إبراز الأشياء التقليدية ويضعها جميعاً بنفس الصورة وعلى نحو متكرر، وفق إطار شامل: تلك هي زخرفة الأسطح التي تسمى "الأرابيسك". وفي تناقص واضح مع الزخرفة الهيلينية - الرومانية ومع "أرابيسك عصر النهضة" الذي يتميز بكثرة تصويره للزهور والذي أعطيت له هذه التسمية خطأ، نجد أن فن الأرابيسك العربي الذي يأخذ أنقى أشكاله في الرسومات الهندسية المجردة، يبدأ في الخروج عن نطاقه الذاتي في ترتيب متناسق إلى حد بعيد ليعبر عن نفسه في عملية تداعٍ لاحدود لها من كافة الجوانب. ويبدأ

(١) المحظور تصويره في الإسلام هو الإنسان والحيوان أما الأشجار والأنهار ومظاهر الطبيعة الجميلة فليست محرمة في الإسلام. أما تصوير الإله فلم يخطر ببال أي فنان مسلم أبداً.

العربي ببساطة في استغلال كل شيء لفرض الزخرفة التي تبدأ في تغطية مساحات كاملة في كافة الاتجاهات وهو مأخوذٌ بالرغبة الجامحة في التكرار المنظم غير النهائي. كل ذلك بدون بداية أو نهاية وبدون حدود وبدون نقطة ارتكاز، بل الأصح بعدد لا نهائي من نقاط الارتكاز.

إن ذلك هو ما يمثل جوهر فن الأرابيسك الذي يشكل العربي من خلاله التعبير الأزلي الخاص عن مكنون نفسه المشبعة بالتدين الدائم، ولكن الأرابيسك يظهر موهبة الزخرفة لدى الإنسان العربي الذي يغدو الحظ له - مثل أسماء الله، وآيات القرآن، وأبيات كبار الشعراء فهي زخرفة بحد ذاتها، والأرابيسك تبدو وكأنها تتحرك وفق قانون محكم ومتناسق عبر المساحات والجدران. ولقد أخذت شرائط الخط العربي تزّين منذ القرن الثاني عشر، وبصورة أكبر في القرنين الثالث والرابع عشر، الكتب والأكواب، وحوائط الكنائس الألمانية في صورة إطارات وبراويز وحليات. كما كان هناك ميل خاص إلى كلمات مثل "على بركة الله" من بين غيرها من التمنيات الإسلامية الطيبة التي كانت توضع دون دراية بدلاً من الكتابات اللاتينية حتى على كؤوس المناولة وأطباق الخبز. وكان يجري وضعها دون معرفة بها على أطراف الملابس وهالات القديسين وعلى قطع النقود، وحيث يمارس القديسون طقوسهم كما حدث في براونشتايج، وفي زيجبورج، وسين تسيج وكولون وترير ومانتز وماريوزج وسالزبورج .

استطاع العرب بفضل عبقريتهم الزخرفية أن يبدعوا أعمالاً فنية تتسم بالبساطة والزخرفة في آن واحد كما تبدو فيها الحركة والهدوء الشامل والماديات والروحانيات الخالصة، حيث تكوّن وحدة متناسقة لا يفوقها شيء وتشع تناسقاً وجمالاً لا حدود لهما. وكما أن العرب قاموا بنحت أعمالهم الزخرفية على

الحجارة، والجبس، والخشب، والعاج ورسومها على الموزييك، والفخار المزجج أو نقشوها على المعادن والجلود فإنهم نسجوا أيضاً أعمالاً فنية حقيقية على الأصواف وحتى على الأنسجة والقطنيات، كذلك فإن نسورهم وطواويسهم وأسودهم والأشكال التي لها رأس إنسان وجسد حيوان، لاتزال تزين حتى اليوم الصناديق الزجاجية في المتاحف الألمانية وكنوز الكنائس، كما تزين اللوحات القماشية، ثمَّ إنهم طرزّوا أعمالهم الزخرفية على الحرير الرقيق والحرائر الدمشقية المتينة التي كانت تتدلى من على أكتاف الملوك والأمراء وهي محلاة بالذهب والفضة واللآلئ.

إن أشهر ، وأغلى قطعة بين رموز التتويج الخاصة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة والتي يعني امتلاكها قانونية وشرعية السلطة، تتجلى في معطف تتويج القيصر والملوك الألمان. كما أن من غرائب التاريخ أن معطف القيصر هذا كان القيصر فريدريك الثاني فون هو هنشتاوفن - وهو الأول في سلسلة طويلة - أول من تم تتويجه من الحكام الألمان وذلك في ٢٢ نوفمبر ١٢٢٠ في روما، قد صنع هذا المعطف بأيد عربية .

وما يزال بريق ذلك المعطف المعروض في قلعة هومنبورج في ڤيينا في مواجهة الحائط الخلفي لغرفة الكنوز الدنيوية يخطف الأبصار، حيث تمّ نقله إلى هذا المكان مع تيجان الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن قضى فترة مؤقته في نبرنبرج وحتى اليوم لا يزال يعتبر عملاً فريداً في فن الزخرفة الذي لا يمكن لأي شكل آخر من أشكال التصوير الفوتوغرافي أن يعطي نفس تأثيره. وكان الأسرى البيزنطيون قد نسجوه من الحرير الأحمر القاني، كما قام صانعو الحُلي واللآلئ العرب بإضافة قدر وافر من خيوط الذهب وصفوف اللآلئ المزدوجة.

وهناك أسد هصور تنعكس صورته على جانبي شجرة نخيل في شكل معكوس كالمرآة، وكان الأسد يعتبر رمزاً لسيادة الرومان وقد أخذ عن العالم الإسلامي هذا الأسد على جمل وهو ينشب مخالبه في الحيوان المتهاوي، وذلك كرمز لانتصار النورمانديين والاستيلاء على صقلية العربية، وكان العرب- على العكس مما هو الحال لدينا - يكنون تقديراً كبيراً للجمل ليس فقط بسبب فوائده الجمّة، ولكن لأن ذلك الحيوان المفضل كان يعتبر أكثر المخلوقات حكمة بل وأحكم من الإنسان، وكما يقول العرب فإن الإنسان يعرف فقط ٩٩ اسماً من أسماء الله، في حين أن الجمل يعرف أسماءه المائة ولكنه لا يفصح عنها. وإلى جانب رأس الأسد العجيبة فإن هناك زخرفة أرابيسكية هندسية تزدان بالأحجار الكريمة الحمراء تزين درع الصدر الذهبي لذلك المعطف الفاخر. كذلك كان هناك على المعطف شريط عريض مكتوب عليه بالعربية: تمت حياكتُه في الورشة الملكية العامرة بالسعادة والشرف، والرخاء والكمال والإنجاز والشهرة، وذلك في مدينة صقلية في عام ٥٢٨» وهذا يعني : أنه وفقاً للحساب العربي للزمن فإن عام ١١٣٣ / ١١٣٤ بعد الميلاد، هو العام نفسه الذي تم فيه في باليرمو تتويج الكونت النورماندي روجر الثاني في أبهة ملوك الشرق ملكاً "وسيداً على الصقليتين" وقد أصبح روجر صهراً لهاينيرك السادس فون هوهنشتاوفن وجد القيصر فريدريك الثاني .

وليس معطف التتويج هو القطعة الوحيدة من أعمال النسيج والتطريز العربية الموجودة بين كنوز التتويج الألمانية. وقد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، ولكن في الحقيقة نجد أن كافّة حُلي القيصر تنتمي إلى المصنع نفسه في باليرمو. وكان الأدميرال العربي الكبير الذي يعمل في خدمة الملك روجرز الثاني، قد أخذ بعض نسَّاجي الحرير البيزنطيين أسرى للعمل في ذلك المصنع وقادهم إلى

باليرمو. وكان يعمل معهم النساجون العرب وصناع الذهب والمتخصصون في استخدامه في التزيين وفق أجمل النماذج. وقد أُوكلت مجموعة للإتيان بهم من كافة أرجاء العالم العربي وإلى جانب القطع الموروثة عن الأمراء النورمانديين فهناك رداء الدلماتيكا[1] الذي صنع أيضاً من أجل روجرز الثاني الأحمر القاتم المائل إلى الزرقة - وهو الرداء الذي يلبس في بداية التتويج وبه شريط عريض عند الساعد- ويبدو في صورة متناسقة نتيجة لرقائق الذهب بين زخارف الأرابيسك الموشاة بالذهب واللؤلؤ فوق الحرير الأحمر، تتناسق مع معطف تتويج روجرز، وهناك أيضاً قميص الرهبان الأبيض الطويل الذي يحمل فوق الدلماتيكا إعلاناً عن الطبيعة الدينية لمنصب القيصر أثناء الاحتفالات الكنسية، وهو مصنوع من التافتاة الفاتحة وزخارف كثيرة وأطراف عريضة على الصدر والأذرع تظهر عليها أشبال لاهية مع مخلوقات لها رأس إنسان وجسد حيوان في صورة حلية والمشكّلة من زخرف اللؤلؤ ذي الخطين من الأرابيسك وتحدّق هذه الأشكال بالعين وكانت قد صنعت من أجل الحفيد الأكبر - للملك روجرز، وهو الملك النورماندي ڤيلهلم الثاني، كما أنّ الكتابات العربية على الجوارب الحريرية الحمراء المطرزة بالذهب واللون الأخضر تشير إلى تتويج آخر ملوك النورمان في صلقية. ولكن كيف وصلت هذه القطع إلى مجموعة حلي القيصر الألماني؟ ثم ألم تكن هناك أردية أكثر قدماً خاصة ببيوت القياصرة الألمان؟ .

كان لفردريك الثاني أسبابه التي تدعوه إلى تذكر ذلك الميراث الصقلي الذي وصل إليه عن طريق والدته النورماندية. كما أن القيصر أوتو الرابع الذي مات عام ١٢١٨، وهو ابن هانيريش الأسد، الذي كان يشعر حتى وفاته بأنه قيصر حقيقي،

---

(١) الدلماتيكا: رداء ديني خاص بالاحتفالات الدينية.

أوصى بأن يوارى الثرى وهو مرتدياً رداءه القيصري في كنيسة براون شفايج .

وكانت حلي التتويج مع تاج القيصر أوتو العظيم بين يدي أخيه هايزيش فون ساكس الذي رفض التخلي عنها ، حتى اضطر فريدريك آخر الأمراء إجبار البابا على التدخل وإلا فإنه سوف يتخلى عن التتويج والحملة الصليبية . ولهذا اضطر إلى اللجوء إلى الأردية الفاخرة لآبائه النورمانديين حتى يظهر أثناء التتويج في روما في أبهى زينة تليق بجلال القيصر . كما أمر مطرزي الذهب العرب التابعين له بإصلاح القميص الأبيض بسرعة واستكمال رداء القيصر الرسمي بقفازات مناسبة من الحرير الأحمر التي كانت تحمل رسوماً لنسور على جانبها الداخلي وأحذية من الحرير الأحمر أيضاً ، والأحجار الكريمة الحمراء والمجوهرات من سمرقند وأحجار شبه كريمة ، وأشرطة مذهبة ذات نعال جلدية . وبدلاً من تاج القيصر القديم كلف الصناع بعمل تاج خاص من الذهب مُرصّع بالأحجار الكريمة واللؤلؤ . وبعد عامين من التتويج وأثناء الوفاة المبكرة لزوجته كونستانس ، وضع التاج مع نعش زوجته الحبيبة التي تم تتويجها قيصرة إلى جانبه . ولا يزال هذا التاج حتى اليوم بين كنوز كنيسة باليرمو .

كذلك فإن مصنع صقلية أنتج قطعة جديدة عبارة عن سيف للاحتفالات طوله أكثر من متر طلي مقبضه بالذهب ، كما أن غمده الملفوف في خيوط من الفضة المذهبة كان أيضًا مرصعاً بالأحجار الكريمة واللؤلؤ ، ورقائق الإيماليا بين مسطحات السيف المشكلة من الجدائل الدقيقة . وهذا هو السيف الذي وضعه فريدريك بعد التتويج على كتف مبعوث نيرنبرج للدلالة على أنه أصبح فارساً .

أحد المسلمين يتحول إلى قديس للإمبراطورية

عندما يتحدث الإنسان عن رموز الإمبراطورية فيجب أن لا يغيب عن باله الإشارة إلى اثنين من أهم الرموز التي تدل على مكانة الإمبراطورية، والتي احتفظت مع الزمن بعلاقة فريدة تماماً وغريبة مع العالم العربي: الرمح المقدس أو رمح موريس الذي يتم عن طريقه (انتقال) سلطة الدولة، وسيف الإمبراطورية الذي كان يلف يطوق في الأصل خصر القيصر أثناء احتفالات التتويج والذي كان يحمله إليه فيما تلا ذلك من الزمن كبير موظفي البلاط الوارث. وكان اسم موريسيوس مرتبطاً أيضاً بسيف الإمبراطورية، والسيف مكون من ثلاثة أجزاء صنعت في ثلاث حقب مختلفة وفي مناطق مختلفة كذلك، ذلك أنه بينما ينتمي غمد السيف إلى صقلية فقد تم صنع النصل في منتصف القرن ١١ في جنوب ألمانيا من أجل هانيريش الثالث، في حين فقد سيف الدولة الذي يوجد ضمن هذه المجموعة، تم صنع السيف الجديد الأكثر بساطة لتتويج أوتو الرابع ابن هانيريش الأسد الذي كان يحمل تاج فريدريك الثاني.

ولكن كيف يعرف أنه سيف موريسيوس؟ إن هذا الاسم يطلق على سكان موريتانيا التي كانت تقع بالنسبة إلى الرومان في شمال إفريقيا في موقع المغرب وغرب الجزائر حالياً. كما أن "الموريسي" وهو الرجل من موريتانيا كان قائداً للفرقة الطيبية التي تنتمي إلى طيبة بمصر، والذي رفض -حسبما ترويه إحدى الأساطير المسيحية عنه- على الرغم من مكانته العسكرية، إطاعة أوامر ماكسيمليان باضطهاد المسيحيين. وتقول الأسطورة التي تسمى "أسطورة الناسك" أن الموريس قد رفض إطاعة أوامر ماكسيمليان بالمشاركة في الأضحيات

الرومانية للرب لأنه كان يرى في ذلك عملاً وثنياً . وأن فرقته المكونة من مسيحيين على استعداد لمقاتلة الباوجونديين المتمردين ولكنها ليست مستعدة لاقتراف الذنوب عن طريق مذابح الأضحيات التي تقام قبل المعركة . ولذلك فقد تم شنقه بالقرب من أجاونوم في وادي الرون عام ٣٠٢ .

وترتبط بذلك الرجل المغربي الذي أصبح شهيداً وقديساً التقاليد المختلفة والمتناقضة فيما بينها والتي لا يزال أثرها باقياً حتى اليوم . ولأن موريسيوس كان جندياً فإن الكنيسة وهي تشعر بالحرج في سبيل إيجاد قديسين للقتال ضد أهل الجاهلية ، قد جعلت منه في القرن الحادي عشر قديساً للفرسان ، وذلك على الرغم من أن هناك رواية أخرى للأسطورة تشير إلى أن رفضه للحرب بالذات هو الذي جعل منه شهيداً .

كذلك بدأ العمل بتقليد آخر عند إنشاء دير سانت موريس بالقرب من " أجاونوم " ، والذي تمت إقامته على الطريق الرئيسي الكبير المؤدي إلى إيطاليا في عام ٥١٥ بواسطة ملك البورجوند ، وهو أقدم أديرة البورجوند وسويسرا حالياً ، وكان يستخدم كذلك مقراً لتتويج ملوك البورجوند . وقام القيصر أوتو الأول عام ٩٣٧ بالنظر لصلاته بالبورجوند بإطلاق اسم القديس الموجود على الدير الذي أقامه في ماجدبورج داخل قلعته الملكية ، قام بإطلاقه على ممتلكاته وأرضه ، ولذلك ظل اسمها مرتبطاً به بشكل خاص . وقام كذلك بنقل رفات القديس موريس إلى ماجدبدرج ، وبذلك أصبح القديس في نفس الوقت راعياً لماجدبورج التي كانت المركز المتقدم نحو الشرق والعاصمة الجديدة لإمبراطورية الساكسون وللأسرة المالكة الساكسونية .

وأخيراً أصبح هذا القديس حامياً للإمبراطورية ! حيث ارتبط اسمه من ناحية مع القديسة (لانتسة)"Lanze" التي كانت تجسد منذ القديم عزّة وسموّ الملك ، وكان السلاح القديم الموروث لرب الأسرة المالكة أودين "odin" وهو رمز ملك الجرمان ، وبقاؤه كان مستمر الوجود في صورة تلك القديسة . ولقد أخذت العديد من الأشكال المسيحية وأصبحت ضمن كنوز التتويج للإمبراطورية بصفتها القديسة " لانتسة الموريسية " (Mauritiuslanze) .

ومنذ تتويج القيصر هانيريش الثالث في عام ١٠٤٦ أصبح اسم موريس يرتبط أيضاً بسيف الإمبراطورية الذي كان يُسلم إلى المقاتل والفارس من الشرق الألماني الذي يبرهن على كفاءته في كنيسة القديس موريس بكاتدرائية سانت بيتر .

إلاّ أنّه لم تنته عند هذا الحد عملية تحول قدّيس شمال إفريقيا من المنطقة التي أصبحت تسمى المغرب فيما بعد ، فأثناء الحروب الصليبية التي كان يقوم بخوضها أمراء شمال ألمانيا كثيراً في الشرق الجاهلي الجرماني والسلاڤي ، فقد أصبح قديس ماجدبورج حامياً للنضال المسيحي ضد الكفار . وكان قد أعلن قديساً بشكل خاص لأنه رفض محاربة المسيحيين وكان العصر الشتاوفي [١] الذي تذكر أصله الأجنبي قد صوره كفارس آل شتاوفن وهو بمعداته وفي وضع الدفاع من خلال نصب حجري في كاتدرائية ماجدبورج ، ولغرابة الأمر كان يحمل ملامح المسلمين المغاربة بالشفاه الغليظة المتورمة والقسمات القاسية التي يتحلى بها الزنوج . ولابد أن هيئة ذلك المغربي ظلت تخلب لب الناس عبر القرون ، ولقد ظهرت صورته في كاتدرائية ماجدبورج في ثلاثة مواضع ، فهنا يبدو كفارس شاب رشيق القوام في رقة بسيطة مرنة وهناك في هيئة مشدودة بقوة مليئة بالمعاني

(١) نسبة إلى آل شتاوفن .

تكاد تثير في الذهن صورة راقصي الموريسك، وفي كل الأحوال مرتدياً زي الفارس هو يحمل الرمح المقدس والشعار الخاص بالإمبراطورية وعلى رأسه شعر معقود (في بوكلات) بطريقة غريبة في أكمل صورها وشفاه واضحة المعالم.

التي كانت تعني التجسيد الكامل للوثني النبيل.

وفي كنيسة سان موريس في "هالة" وضع على تمثال القديس لباساً أسود قاتماً وعلق عليه حزام ذو أجراس تحدث صليلاً، في حين كان التمثال يعطي انطباعاً غريباً حقاً بالعينين السوداوين تحت خصلات الشعر السوداء المبعثرة والذقن السوداء والشفتين الغليظتين.

وهكذا استمرت محاولات التذكير بأصله. مستمرة كما أن الجيوش العربية البربرية التي عبرت مضيق البحر عام ٧١١ مع قائدها العسكري طارق منطلقة من موريتانيا والمغرب واستولت على إسبانيا فلقد كانت تحصل بصفة مستمرة من هناك على بعض الإمدادات الحربية أحياناً وغيرها من الإمدادات أحياناً أخرى وذلك عن طريق جيوش المرابطين والمهديين مثلاً. الإسبان المسيحيون يسمونهم "الموروس" أو "الموارنة"، كذلك فإن الموارنة تحولوا إلى "موهريين" سود في تصور أبناء الغرب وهؤلاء لم يكونوا أبداً في إسبانيا نفسها، فما بالك في المغرب، كما لم يتعلموا التمييز بين سكان شمال إفريقيا وبين الزنوج.

ولكن وفقاً لما تؤكده الأعمال النحتية الراقية والجميلة في كاتدرائية ماجدبورج، فإن الألمان قد تعلموا كيف يحترمون فيمن ينتمي إلى الموارنة صفات الفارس وصفات الإنسان النبيل. كذلك فإن "نشيد الجودرون" قد سمي بطله الكبير القادم من آتسابة "Azabe" سيجفريد فون موهرن لاند أي من بلاد الموهرن

"Siegfriedvon Mohrenland" ، كما اعترف النشيد بملك الموهريين الذي يتميز عن غيره، بأنه يحمل فوق بشرته السمراء شعراً "كما لو كان مجدولاً من الذهب" ولم يكن في وسع أي فارس أن يصبح أكثر منه شجاعة، وكان الجميع يحبونه "على الرغم من أن جسده كله ذو بشرة سمراء" . وعلى الرغم من أن من جاؤوا من بلاد الموهريين كانوا يسمون كفاراً إلا أنه كان معروفاً منذ وقت طويل أنهم أفضل من سكنوا أرجاء المعمورة . " كذلك فإنه بالنسبة إلى ڤولفرام فون إيشنباخ فإن الشخصيات المفضلة لديه هي "فايربفتز" و "رينيڤارت" اللذان وصفهما كمثال للفرسان، كانا أبناء لعز الدين أحدهما عربي والآخر ألماني . ولذلك فإنهما كانا حسب تصوره "ذوي لون أبيض وأسود" أشبه برق الجلد المطبوع : " وكان وجه البطل أسود ذو بقع سوداء" كذلك فإن ماتياس جرينيالد صور حوالي عام ١٥٠٠ في لوحته " لقاء مع القديس إرازموس " القديس موريس كرجل موهري أسود كالقطران وسط أسلحته اللامعة، وهي رموز جديرة بالتقدير لأنها تدل على التسامح الفرساني الذي مكنّه من أن يرى في "الموهريين" نموذجاً للفارس والقديس .

وحتى اليوم لا يزال موريس يمارس دوره القديم على الرغم من تراجع مكانته بعض الشيء . وذلك كراعٍ لسلاح المشاة رغم احتفاظه بلونه القاتم وأخيراً فإنه لايزال موجوداً في أسماء رجالنا القديمة الجميلة مثل "موريس" ، ذلك الذي يجب أن يتعذب أولاً لدى ڤيلهلم بوش داخل المدخنة حتى يصبح أسود كالغراب مثل "الموهريين" .

الهبات العربية للكنيسة والمنزل والحدائق

ولنعد إلى ميراثنا العربي . ولكن علينا فقط أن ندرك أن الكنيسة هي الأخرى لم تكن بمنأى عن تلك التأثيرات ، ذلك أنه بغض النظر عن أن الأقمشة الحريرية النفيسة الرائعة الألوان جاءت عن طريق الوثنيين ، ولم تعد بيزنطة وحدها قادرة منذ وقت طويل على إرضاء الطلب عليها – وكانت أغلبها تطرز لشخصيات أسطورية من الذهب أو اللؤلؤ – فإن تلك الأقمشة كانت تُلقى على الهياكل والمنصة وتتدلى من سقوف الهياكل فوق رؤوسهم . وعلى الرغم من أن القديس بيرنهارد قد انفجر غاضباً إزاء السماح لوجود مثل تلك الشخصيات المريعة في الأماكن المقدسة وأثناء ممارسة الشعائر الدينية» – إلا أن الجلالة القيصرية نفسها كانت تبرز بهاء رجال الدين الذين تحلوا بالأردية المحلاة بالجواهر الشرقية البراقة والحلي التي نسجت بأيدي الوثنيين من الحرير ، والقصب العربي و كذا بالأرابيسك والكتابات الكونية . وهذه نجدها حتى الآن في كافة كنوز الكنائس القديمة ، وفي الهدايا الثمينة التي أتت من الشرق مباشرة بواسطة الحجاج والفرسان الصليبيين مثل الموجودة في كاتدرائية "هالبرشتادت " منذ عام ١٢٠٩ هـ وفي كنيسة ماري في "دانزج" وفي مينستر بآخن وفي كاتدرائية "كور" أو في دير لوبنيه حيث لم يجد المسيحيون الأتقياء غضاضة في التسبيح بالمسبحة التي نقلها العرب عن الهنود منذ القرن الثامن الميلادي ، فاتخذت من العالم الإسلامي لها موطناً وتسمت في الألمانية باسم (Rosenkranz) أي باقة الورود لخطأ في الترجمة ظن صاحبه أن بابا مالا (المسبحة) وبابا ملا (باقة الورود) شيئاً واحداً .

وتصور أن المسلم يحرك بين أصابعه حبات المسبحة التسع والتسعين مع أسماء الله الحسنى وكأنه يضمها إلى باقة من الورود. وبنفس القدر أو أقل نجد أن المسيحيين الأتقياء يذكرون أسماء باثرونوشر وآقا ماريا مستخدمين " باقة الورود التي أخذها المسلمون عن الهند منذ القرن الثامن واستقرت لديهم. وكلمة باقة الورود ترجمة خطأ لكلمة المسبحة " وهو العقد الذي يحوي ٩٩ جوهرة بين كبيرة وصغيره وهي التي تنزلق بين أصابع المسلم وهو يسبّح بأسماء الله الحسنى الـ ٩٩، وهي لا تزال مستخدمة حتى اليوم في العالم الإسلامي دون انقطاع سواء في الصلاة أو لشحن القوى الذاتية أو لمجرد اعتياد الأصابع عليها وهو يمتطي ناقته يجلس الرجل فوق ناقته أو خلال تبادل الأحاديث داخل الخيمة أو في السوق، وفي قاعات الفنادق، ومحطات البنزين حيث إن هذه العملية تتكرر أشبه بنبضات القلب بين أيدي ملايين المسلمين بشكل تلقائي.

وكما أن الكنيسة جلبت المرّ والأبخرة من البلاد العربية، فإن الشرق يهدي اليوم الغرب الكثير من مواد عطوره وأكسيره مثل: العنبر، والمسك وزيوت الورد، وغيرها من الزيوت الأثيرية، من اللوتس وزيت زهرة الخيرى، وثمار البرتقال، والهندباء، والموسك، وخشب الصندل، وثمار جوزة الطيب وكذلك بالعقاقير والأدوية العربية ومواد التلوين (الصبغات) اللازمة لورش النسيج، ونجد أسماءها موجودة أيضاً في العقاقير الألمانية وفي كلمة دروجة "Droge" نفسها مثل: الأليزارين والقلويات، والكحول، وعود الند، والنيلة، والأنتيمون، والعرق، واللازورد، والبلسم، والبنزين والبنزهار ولبان الحادي والبورون، وماء البورون والبرورق، وأبو العرق، والجص، والكافور، واللاكية وأحجار اللازورد والنطرون، والسكارين، والسفلور (زهرة الفلوريس) وصمغ

الك (الشيلاك)، والشربات (سيروب)، والصودا، والكلوركم، والتلت، والشاش، الذي يشتق من القطن .

كذلك فإن التجار الإيطاليين من "أمالفي " وجنوا وفينسيا أضافوا إلى قائمة المطبخ- منذ أن أصبح الطريق البحري عبر البحر المتوسط أكثر أمناً، توابل الطعام التي كانت تصل شحيحة حتى ذلك الحين مثل، الفلفل المفضل كثيراً والذي يستخدم أيضاً في حفظ الأطعمة مع جوزة الطيب، والقرفة، والزنجبيل، والكارية، والكمون، والكبابة، والأراجان، والزعفران، وجذور الخلنجان . كذلك فان الخرشوف (أرض شوكي) والهدبا، والشيكوريا، والهليون، والسبانخ، والقفلوط، أو الزبيب، والأرز والقهوة، والبن تغني قاعات الطعام الألمانية، وبصفة خاصة السكر الذي لا غنى عنه مع (القند)، الذي يستخرج من قصب السكر، الذي كان العرب يزرعونه في إسبانيا، وصقلية، وبدأ استيراده من ليفانتة "levante"، حين انتهت زراعته هنا . تلك النباتات الشبيهة بالدريس والتي صادفها الصليبيون العطشى بعد تجوالهم في الصحراء، وذلك من أجل ابتلاع ذلك "العسل القوي " كما أسموه بسبب عصيره الحلو، وبسبب جوعهم الشديد. ولأن السكر، ظل لفترة طويلة، باهظ الثمن في ألمانيا - حيث كان المرء يدفع عام ١٤٨٨ من أجل رطل من السكر قدر ما يدفع ثمن خنزيرين ونصف، فقد كان يتم خلال الصوم صنع خبز من العسل. وتوضع كافة التوابل العربية في خبز من الفلفل أو الكمك وكحل الفلفل و ثمرة الفلفل، والقرفة التي تُعّد على شكل النجوم .

وكان هناك منتج عربي يجري من السكر واللوز وماء الورد قد مرّ بمسار غريب، ذلك هو المارتسيبان . وبالرغم من أن الدلائل التي تبدو واضحة على

تطور الكلمة في العهود التالية اشتقاقاً من اسم " مارس بانوس " أو خبيز ماركوس فإن الاسم اشتق في الحقيقة من الكلمة العربية "ماوتبان" والتي تعني في الأصل " الملك الجالس " . فقد أطلق العرب هذا الاسم على عملة بيزنطية تظهر المسيح جالساً على العرش . وتطورت الكلمة إلى "العلبة" . وفي نهاية المطاف إلى الحلويات الموجودة في هذه العلبة . وتحولت في فينسيا إلى ماوتبان، وفي ألمانيا إلي مارتسيبان . وفي فرنسا وإيطاليا وسويسرا حيث ترك الزحف العربي الذي وصل لبعض الوقت إلى "إنجادين" مع بداية القرن العاشر بعض التأثيرات، كما حدث في باورستين وفي أسماء العائلات مثل (ساراز) وفي أسماء الأماكن والردهات مثل (بونتر زينة)، وفي (بونس ساراكانا) وفي (أينا) أي . النبع ، كما أن القمح الذي يصنع منه الخبز لا يزال يسمى حتى اليوم "قمح الشرقيين في حين ذكر في اللهجة الشقابية على أنه "قمح الكفار" وتم اختصار التسمية في لهجة بافاريا إلى " مايدن " .

ولم يتم استيراد الذرة من أمريكا وهايتي بل قام بونيڤاس فون فونيتفرات بإرسالها من الشرق إلى الغرب وكان ذلك عام ١٢٠٤ .

ولم يكن العرب هم وحدهم الذين أثروا قائمة الطعام الألمانية، ولكن أيضاً الشرقين الأدنى والأقصى، حيث اشتملت القائمة على : المشمش، والبرتقال والموز والكمثرى، والليمون، والخوخ، والتين، والبرقوق، والراوند، والقيدونيا، والتمرهندي، والجريب فروت والقراصيا، كذلك فإنهم زودوا حدائقنا بالفيلدر والياسمين والكاميليا والفورسيا، وكذا بكافة أنواع الزهور التي جاءت في الأصل من فارس . وقام العرب بزراعتها خاصة في سوريا والبروڤانس مثل الزهرة الدمشقية التي يستخرج منها زيت الزهور، وكذلك الزريكون،

والليلك، وورد الماء، وأبو فروة. كما أن وسائل الرّي العربية وفنونهم الراقية في استخدام المياه، أدت إلى تجميل تلك الحدائق. كما أن طواحين الماء والهواء، التي تحول العناصر إلى طاقة دافعة، والتي ظلت تسيطر على الزراعة الأوربية بقوة حتى مئة عام مضت، تعد كذلك ميراثاً عربياً.

وكما أن العرب أظهروا ملكاتهم الفنية في الاختراعات الميكانيكية، مثل تصميم مختلف أنواع الساعات، وأجهزة القياس الفلكية والبوصلة، وكما ذكرنا في كتاب "شمس الله تسطع على الغرب"، فإنهم فكروا أيضاً في أساليب فنية خاصة بالحرف المتعلقة بإنتاج الورق والمعادن والجلود والزجاج والسيراميك وتصنيعها. وقد وجدوا في أوروبا بعض المتحمسين لاقتناء تلك المنتجات، التي بدأت أوروبا من جانبها في ذلك الوقت في تصنيعها في مصانعها الخاصة وتمَّ إنجاز ذلك في البداية بمساعدة العرب.

ولقد كان إنتاج الورق والكرتون المخصص للاستخدام اليومي ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى الحياة الفكرية للغرب، وكان الورق قد أخذ عن الصينيين في القرن الثامن غير أن العرب هم الذين أدخلوا عليه التحسينات الضرورية، وقد نقله التاجر أولمان شترومر عام ١٣٩٠ من ياتيڤا في إسبانيا إلى نيرنبرج. وفي الحقيقة كان هناك مصنع للورق موجود بالفعل منذ عام ١٣٢٠ على الراين بين ماينز وكولون. وفي عام ١٤٠٧ بدأ تشغيل مصنع بالقرب من راڤينسبورج وفي عام ١٤٤٠ تبعه مصنع ثالث في بازل.

واستطاع أسلوب الزخرفة الذي ابتدعه العرب، أن يجد صدى خاصاً لدى الغرب. فقد كان يتم بمقتضاه إنتاج أروع النماذج التي استندت عليها أيضاً شهرة السيوف الطليطلية والدمشقية. ويتمثل ذلك الأسلوب في وضع خيوط الذهب والفضة في مسارب تزيين من الأرابيسك على مساحات من الحديد، أو البرونز أو

النحـاس، وذلك فوق الشمعدانات والأطباق، والزهريات ومعدات الكتابة، وكذلك على الأسلحة، والرماح، والسيوف والخناجر. كما كان هناك إقبال خاص على أعمال الحفر (النقش) السورية على الأسطح الخشبية، والحوائط، والأثاث وقطع الديكور من الأخشاب و العاج، والأصداف الملونة.

وما زالت أسماء جلود "الكور دواني" و" الماروكي" القادمة من قرطبة والمغرب و(صفيان) المصنوع من السوماك تنم حتى اليوم عن المكانة العالية التي احتلتها صناعة الجلود العربية. وعرف العرب بفضل تصنيعهم وإعدادهم لمنتجاتهم الجلدية كيف يعطونها نوعية خاصة ويضفون عليها ذلك السحر التقليدي الذي تشتهر به الحرف العربية الفنية، عن طريق رسم النماذج الزخرفية والأرابيسك عليها وتطعيمها بأوراق الذهب. وتعد صناعة الجلود في زوفنباخ خير مثال لذلك الفن .

كما أن الفن العربي في معالجة الزجاج والأساليب الفنية في التزيين به يُعدّ واحداً من مجالات تفوق العرب التي استفاد منها الغرب بشكل كبير. كذلك فإن تزيين المنتجات الزجاجية والصلصالية والطينية، مثل الفناجين والأباريق المغطاة بطبقتين من الصيني، والتي تزدهر بشكل خاص في بغداد، ودمشق وحلب، قد أدخله صانعو الزجاج العرب في القرن الثاني عشر في فينسيا، التي حصلت بمقتضى اتفاق مع دوقها على الأساليب السرية من صناع الزجاج العرب. وظلت تحافظ على ذلك الاحتكار في أوروبا حتى القرن السابع عشر. أما الألواح الزجاجية المستخدمة في تغطية النوافذ والمرايا الزجاجية فقد وجدت طريقها إلى صقلية حيث أتقن سكان باليرمو العرب طريقة إنتاجها. وكذلك إلى فينسيا ومنها انتقلت إلى ألمانيا. واخترع العالم العربي ابن فرناس - الذي صمّم أيضاً أول

طائرة أمكنها الارتفاع عن سطح الأرض- اخترع في نهاية القرن التاسع الكريستال في معمله بقرطبة ، التي ظلّت تملك لوقت طويل احتكار صناعة زجاج الكريستال، في حين كانت مصر تصنع الكريستال الجبلي وتصقله لتحويله إلى أكواب فازات وصناديق حنظر، والتي لا تزال تضمها الكنوز الكنسية الألمانية حتى اليوم، ووصلت عبر فينسيا أساليب تصنيع الكريستال وفنّ صقله إلى باڤاريا وحتى إلى المناطق في غاباتها. كما قامت مصانع إنتاج الفن "والبلاط والأطباق والأواني وأطقم المائدة في جزيرة مالوركا حيث كانت تعرف باسم "مايوليكا" (Mjolika) وفي فانيسا الإيطالية باسم "فاينس" وفي كل من ديلفت ، هاناو، فولدا، برلين ، أنسباخ وبابرويت.

وبدأ يتدفق على أوروبا التي كان لديها استعداد لاستيعاب تيار من المنتجات الفاخرة الممتازة التي سرعان ما أصبحت من ضروريات الإستهلاك وكان التجار الألمان الذين يسافرون لمسافات بعيدة هم أداة توصيل ذلك التيار من مراكزه الإيطالية الوسيطة في ڤينسيا وباڤيا، عبر مضايق الألب إلى مراكز التجارة الألمانية، وبداية من الفلفل حتى الطرحة ومن المرآة حتى رؤوس الرماح الدمشقية كانت تلك المنتجات العربية مرغوبة إلى حد أنها ظلت تحافظ على دوران عجلة الحياة الاقتصادية وتمدها بأسباب بقائها لفترة طويلة من الزمن.

"الدينار الذهبي العربي"
أو "دولار العصر الوسيط المبكر".

كان للامتداد الإسلامي الذي طال كافة البحار وصولاً إلى جبال البرانس أثره الخاص على الحياة الاقتصادية في أوروبا وقد سدت السبل أمام الملاحة في البحر المتوسط، لأن القوة البحرية العربية والقرصنة أديا إلى إصابة التجارة التي كانت تتم حتى ذلك الحين بين الشرق والغرب بالشلل، ولكنها لم تُحاصر تماماً. وحين قام أحد التجار في "ماينز" بوضع بعض الدراهم العربية بين أيدي مبعوث الخليفة الإسباني "الطرطوشي" الذي عاد لتوِّه من قصر الإمبراطور أوتو الأكبر إلى قرطبة. لاحظ الطرطوشي مندهشاً، أنه توجد هناك توابل لا مثيل لها إلا في الشرق النائي - في حين أن "ماينز" كانت في أقصى الغرب - مثل الفلفل، والزنجبيل، والقرنفل، و الزنجبيل الفالاندشان، والكوستوس. وبذلك اتضح أن الستار الحديدي بين الشرق والغرب لم يكن ستاراً بلا منافذ، ذلك أنه عبر الطرق البعيدة التي تصل بين الشرق العربي مخترقة أراضي الروس والفايكنج السويديين، وكييف، وبراج إلى "المغرب النائي" وصلت إلى ألمانيا وعلى نفس الطريق انتقلت المناديل أو الأسلحة التي تصنعها قبائل الفلاندر أو الفريزين وسيوف الفرنجة والعسل والتصدير إلى أسواق بغداد، مثلما حدث لهدية شارلمان - منديل أسود فريزي- التي وصلت إلى أيدي هارون الرشيد، خاصة بعد أن تمكن أوتو الأكبر عام ٩٥٥ من وقف إعصار قبائل آسيا المدمر في ميدان "ليش"، فأصبحت الطرق أكثر أمناً وازدهرت التجارة أكثر من ذي قبل.

وأثبتت الأبحاث الحديثة أن الدنانير العربية الذهبية والدينار العربي الفضي الذي كان إنتاجه يتدفق من مناجم الذهب المهمة في نوميديا ومن مناجم الفضة الغنية في غرب التركستان والتي بدأت تتدفق في ذلك الوقت بكميات كبيرة على الدول الأوروبية بسبب فيضان التصدير، ظلت طوال قرون هي العملة الرائدة في العالم المتحضر كله. وهكذا كانت النقود العربية هي "دولار" ذلك العصر. وكانت قيمة الذهب والفضة في العالم العربي تحدد ارتفاعه أو هبوطه وتدفقه على أوروبا أو انحساره عنها، ولذلك كان أيضاً للإصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبدالملك حوالي عام ٧٠٠هـ، وإصلاحه لنظام سك العملة، ولكافة شؤون الاقتصاد النقدي أثر مباشر على التطورات الاقتصادية والاجتماعية برمتها لدى الغرب. كما أن حركة دورة الدينار الذهبي الغربي أو ما يسمى "مانكوس Mancus" التي تقابل بالعربية "منقوش"، الذي يعتبر وسيلة الدفع الفعلية في إيطاليا، وإنجلترا، في القرن السابع، كانت تربط على الأقل هاتين الدولتين مؤقتاً في شكل من أشكال الاتحاد النقدي.

ولكن ما الذي تعنيه في مقابل ذلك الحقيقة الخاصة بأنه وجدت في ألمانيا كميات بسيطة نسبياً من العملات العربية ؟ إن عدم قدرة التاجر الصغير في ألمانيا على قراءة النقوش العربية على العملات، جعلته لا يقبل عليها، ولذلك سرعان ما اختفت من عمليات التداول، حيث قام العديد من كبار المتعاملين بالعملات على المستوى المحلي بصهرها. كما أن ثبات القيمة المعدنية لتلك العملات العربية جعلها تظهر من جديد، ولكن في صورة جديدة في أكياس اليهود، والمشتغلين باستبدال العملة.

جرى حدث في شمال أفريقيا العربي ، لم يكن له عظيم الأثر هنا إلا أنه ترك بصماته بالنسبة لأوروبا ، حيث أسهم في تخفيف حدة القيود في البحر المتوسط ، وذلك حين نقلت الأسرة الفاطمية محلْ إقامتها من القيروان الواقعة في غرب أفريقيا إلى الفسطاط في مصر . لقد بدأت تخف قبضة القراصنة العرب ، الذين كانوا يعودون إلى المنطقة كل عام . كما أن المدن البحرية الإيطالية ، وعلى رأسها بيزا ، وجنوا ، قامت بإبعاد عرب سردينيا ، وكورسيكا وتمكنت منذ ذلك الحين بالإضافة إلى ڤينسيا وأمالفي من إرسال سفنهم التجارية إلى عرب شمال إفريقيا ، وإلى بيزنطة وليفانتة[١] حيث كانت تلتقي طرق القوافل والممرات البحرية من الشرق الأقصى والهند ، وذلك قبل وقت طويل من الحروب الصليبية التي حققت لهم إزدهاراً لم يكن يخطر ببالهم وجعلت منها إمبراطوريات تجارية مستقلة وقوية .

وكانت تلك المدن هي المستفيد الوحيد من العملية التي استمرت قرنين من الزمان تقريباً وانتهت بهزيمة فريدة للمسيحية الأوروبية الغربية في مواجهة الإسلام . وكانت أكبر عملية تقوم بها تلك المدن هي نقل الجيوش الصليبية وعقد الصفقات المتبادلة والقروض مع الفرسان الصليبيين والحجاج . كما أن استيراد المواد الخام من الشرق ، ومنتجات الحرف العربية الفنية أصبح يسير بسهولة أكبر لأن تلك البضائع كانت تشغل حيزاً تخزينياً صغيراً للغاية ، كما أن تلك التجارة حققت ازدهاراً جديداً في اللحظة التي انتهى فيها زمن رحلات السفن الممتلئة دوماً كما تم ذلك بصورة زاد معها الطلب في الوطن على الملذات المشتهاة والمنتجات التي أصبحت شائعة ، وانتعش معها الاقتصاد وزادت الثروة .

(١) ليڤانتة : تطلق على دول آسيا الصغرى في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكان لدى المدن البحرية الإيطالية في كافة موانئ شرق البحر المتوسط وشمال إفريقيا، مراكز تجارية ومستودعات تخزين دائمة. كما كانت تمتلك طرقاً وأحياء خاصة. وبينما كانت السفن تربض هناك طوال الشتاء في مراسيها، كان تجارها يكتسبون التجربة العملية القديمة في الشؤون المالية، والجمركية، والضريبية، المتعلقة بالقروض، والحياة الاقتصادية بشكل شامل. بالإضافة إلى تمرسهم في فنون الحساب، ومسك الدفاتر العربية، وأسلوب مراقبة الأسعار والموازيين. وهكذا فإنه عندما كانت السفن تقلع من جديد كانت تعود إلى أوروبا محملة بالبضائع العربية ولكنها كانت تأتي معها بالأساليب والطرائق العربية في عقد الصفقات مع التعبيرات نفسها المتخصصة المستخدمة في تلك المجالات، مثل: الباراك (مبنى خشبي بسيط) والمجازين (مخزن) والمخاطرة والشيك والسمسار (سنسال) والطرحة، والإسترليني والتعريفة، والتفريق (ترافيك: تجارة)، ودار السك (دار السيكة) (Darassika) والآڤال (الضمان التبادلي) وهي الكلمة القديمة، كذلك فإن كلمات: الترسانة (أرسنال) والأدميرال (أمير البحر)، والترجمان (Tardschuman) والفلوكة والبوارية (أي البضاعة الفاسدة) والكابل، والإسفلت، والفرقاطة. وحتى كلمة الروح كانت كلها دلائل على التعامل التجاري القوي الذي استمر قروناً بين العالم العربي وإيطاليا حيث انتقل منها، وبصفة أساسية من ڤينسيا، التي كانت تعتبر أكبر مركز تجميع للمنتجات العربية، انتقل منها بواسطة التجار الألمان إلى ألمانيا عن طريق القديس بيرنهارد العظيم وعن طريق أهالي سيبتمانيا، ويشمل ذلك أيضاً "الكرڤان".

وهو التعبير الذي كانت تطلقه طوائف الفرسان الألمانية على مرابط الجياد في حين كان اليوحانيْون يطلقونه على أطقم الحصون والسفن.

كما تشمل القائمة كلمة "الفندق" وهو مكان الإيواء والتعامل بالطريقة التي جهزته بها دولة ڤينسيا للتجار الألمان على الجانب الآخر من الألب. و هو مكون من ستة وخمسين مسكناً وغرفة لإيواء الناس، والجياد مزودة بأفرانها الخاصة وورشة للعمال، ومخزن للبضائع وصالات للبيع. وكان اسمه "فندق دي تيدش (Fandaco deitedeschi) ويقع بالقرب من جسر ريالتو، ولا يزال قائماً حتى اليوم، حيث يستخدم مقراً رئيسياً لهيئة البريد. كما أننا نعترف باختراع غيَّر وجه العالم هو البوصلة التي صنعها العرب استناداً إلى الإبرة الممغنطة الصينية وذلك في القرن الحادي عشر وكانت قد وصلت إلى الغرب عن طريق الفارس الصليبي بطرس فون ماريكورت" أو بطرس بيرجبرينوس الذي أصبح فيما بعد أستاذاً لروجر باكونس. وهو ألف عام ١٢٦٩ عقب عودته من حملته الصليبية أثناء حصار لوكيرا في جزيرة صقلية، والتي استخدم فيها معلوماته الفنية التي اكتسبها في الشرق، كتابه عن المغناطيسية والبوصلة كما تعلمهما عن العرب.

وبينما كانت منافذ العالم العربي تنفتح وكانت التجارة الشرقية تفيض على الأرض الأوروبية والألمانية بالتأثيرات الحضارية العربية، فإنها بعثت في الحياة اليومية الجافة، الجرداء والمتواضعة ليس فقط نوعية جديدة من الدماء، بل لقد نشأ إحساس جديد تماماً بتلك الحياة.

الكتاب السادس

التأثيرات العربية تخلق أسلوباً جديداً في الحياة

يقظة الروح

إذا كان صحيحاً ذلك الذي حاولت الكنيسة أن تجعل الأتقياء يؤمنون به من أن القتال ضد المسلمين بمثابة قضاء الله، ولو كان صحيحاً ما اضطر "ڤالترفون ديرفج لڤايدا" إلى الإيمان به من أن الله سوف يقضي بين المسيحيين واليهود والكفَّار بالحق"، وذلك الرب الذي تعتبر الأرض المقدسة ميراثه، فماذا يعني أن الله قد منح المسلمين النصر النهائي؟ لقد كان ذلك هو التساؤل المهين للغاية الذي أثار منذ وقت مبكر وبكل الحدة المتسمة باليأس نتيجة الهزيمة، أثار الشكاوى والاتهامات والشكوك تجاه القضية العادلة لذلك الصراع. فهناك تساؤل لأحد رجال الدين يقول: ألم يغلب سلام محمدﷺ سلام المسيح؟ وهل أراد المسيح نفسه أن يكون مسلماً؟ كان ذلك تساؤل رجل آخر. وهكذا أخذت الشكوك تتجمع فوق بعضها البعض والتي وصلت حتى إلى ممثلي المسيح في الأرض، و المسؤولين عن ذلك الشقاء والبؤس الذي أصاب مئات الآلاف من المؤمنين الصالحين. ثم أثبت الجاهليون حقاً أنهم هؤلاء الوحوش الذين أرسلت الكنيسة الشعوب المسيحية إلى القتال لمعاقبتهم واعدة إياهم بالسلام ومنذرة بالجحيم، ذلك القتال الذي راح معظمهم ضحيته؟ ثم ألم يكن هؤلاء أيضاً من الأشقياء؟ وكذا ألم يكن "فالتر فون ديرفوجل فايد" يرى في نداء ڤولفرام" إلى أبناء الرب بأنهم" إخوة من

الأصل نفسه ويخدمون جميعاً رباً واحداً يطعمهم جميعاً بصورة رائعة؟ أليسوا هم بشراً أيضاً؟ يجدر بالمرء أن يتعلم منهم بعض الأمور؟ لقد حدثت هزة عميقة في الثقة الورعة والطفولية بالبابا والكنيسة تجلّت في صحوة واختفاء للحس الكنسي والشعور بغربة داخلية لقد مدت الكنيسة يديها إليها دون حذر وإن كان من أجل ما تزعم أنه في صالحها ذلك أنها عندما منحت الفروسية الدنيوية والبطولة الدنيوية بركتها كان ذلك يعني أنها أحدثت ثغرة في السد الذي أقامته عالياً، ودافعت عنه بحماس والذي كان من المفروض أن يفصل بين المملكتين الدينية والدنيوية، ولا يقدر إنسان على ارتقائه؟ ثم ألم تكن الكنيسة بذلك قد فتحت حرية التنازلات أمام إغواء الاتجاهات الدنيوية ؟

كان الفارس خلال الحملات الصليبية يعتمد على شجاعته وسيفه كلَّ الاعتماد. وكان ذلك الدافع المحرك له. وقد ترك مسألة الحياة أو الموت لله مباشرة. مما حدابه لأن يتخلى عن وساطة الكنيسة والقساوسة إلى حد بعيد ويصبح أكثر استقلالاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. كما أن اتساع دائرة معلوماته المكانية أسهم في نفس الوقت في اتساع أفقه الفكري المحدود؛ نتيجة للظروف الاجتماعية الضيقة والسلطات المستبدة التي تتحكم به. وهكذا أصبحت الرحلات التي يقوم بها الفارس إلى الشرق تحريراً لحواسه ولروحه وفكره، كما أنها أتاحت للفرسان الصليبيين أن يستمتعوا بأسلوب في الحياة لم يكن في وسعهم أن يحلموا بوجوده والذي أيقظ أحلامهم فجأة. كما أن إشعاع الحياة البهيجة الأكثر جمالاً، وسعادة، قد سقط على إحساساتهم، التي كانت تسيطر عليها القسوة الرهبانية وإذكاء الإحساس الجامح بالخطيئة الذي يكبلهم به رهبان دير "كلونيه"، ذلك الإحساس الذي كان يجعلهم يرفضون بهجة الدنيا،

واللذات الحسية، وينظرون إليها بتوجس. كما أن الاحتكاك مع العالم الذي يعمل ببهجة الوجود، التي تتقبل الحياة وتشعر بلذتها ويتميز بعالم من الألوان الخلابة قد أيقظه الغرب من كوابيسه المتمثلة في الخوف من الخطيئة والأماني التي تركز فقط على الحياة الأخرى وكان من شأن ذلك الاحتكاك أن أوجد لدى الألمان بهجة بكل ما هو جميل كانت في سبات عميق، كما أيقظ ميلهم إلى الاتجاه الرومانسي، وجرأتهم على إنجاز أعمال البطولة، والتطلع إلى بعيد. كما كان من جرّاء ذلك أن انطلقت مكامن إبداعات وجودهم ومقدرتهم التي لم تكن تخطر على البال إلى مرحلة من الانعتاق والتحرر.

وهكذا أخذعددٌ من الألمان ينزعون الأغلال التي (كبّلت) حياتهم. تلك الحياة التي ضاقت بسبب القيود، والخطر والقهر الخارجي. بدأت الأنظار ترنو إلى الأعلى إلى عالم المستقبل. وأخذت تتكشف الحقيقة الآن وينظر إليها على أنها إلهام من الإله. كانت حياتهم جامدة من قبل، لا معنى لها وليس لها أية ملامح خاصة، والآن بدأت تدب في القوالب الجامدة والأطر الصارمة حياة جديدة.

كما أنَّ تجربة الحرية التي خاضَها فارس الصليب، وفارس الأمبراطورية، التي كانت مرتكزة أساساً على الإيمان بالله وبالقدرات الذاتية، أي على قوة ساعد الفارس، أصبحت تتمتع بقدر جديد من الحيوية والنزوع نحو «الدنيا" التي لم تعد موصومة دائماً بالإدانة، ولم تعد صفة ملازمة للكراهية. اكتسبت الدنيا قيمةً جديدة فيها كثير من السمو، ثم انتقلت لتطالب بأشكال وقيم جديدة، تأخذ طابعها من أخلاقيات الفرسان النبيلة. إذن بدأ الإحساس الذاتي الدنيوي يأخذ أبعاداً أوسع ويتعمّق بشكل مغاير.

ومما لاشك فيه أنه لا يمكن تفسير تكون تلك الفروسية، وروحها، وثقافتها بجذورها الجرمانية وحدها التي تظل حقاً هي الأصل والأساس - كذلك لا يمكن بتأكيد أكبر تفسيرها بالمصادر المسيحية - الرهبانية التي يبالغ الكثيرون في تقدير قيمتها . فلقد أسهم في نشوء تلك الفروسية مع تلك الثقافة الفرسانية المميزة لشكلها بشكل خاص أسلوب الحياة المنمق، والمتحضر والمتقدم الذي أصبح المرء في الغرب شاهد عيان عليه في إسبانيا العربية، وفي صقلية وفي دول الشرق وذلك إلى جانب الوفاء بالتزامات الإمبراطورية التي تحدثنا عنها في موضع آخر، كما أسهمت بشكل حاسم في المعركة المسلحة، وعلاقات الصداقة على السواء مع الفرسان المسلمين، والإعجاب الظاهر بالفروسية الأجنبية (العربية) المتقدمة والجذابة، والإعجاب الذي لا حد له بأفكار تلك الفروسية المتفتحة وأشكالها المحسنة، وأسلوبها المتحضر في الحياة، واهتمامها بالناحية الاجتماعية والفنون .

كما أن الكثير مما خلب الألباب قبل سبع مئة وتسع مئة عام، وأثّر على الناس حينذاك وما تم اكتسابه من إشعاعات القصور والمراكز الشعبية، لا يزال الكثير من ذلك يعيش حياً حتى اليوم . وأسهم في تغييرنا بدرجة قوية تجعل من الصعب علينا أن نميز مصدر تلك الإشعاعات . وكان أسلوب حياة المرابطة بشكل خاص، أي طوائف الفرسان المسلحة التي ترابط على الحدود، هو الذي ترك لدينا العديد من التأثيرات .

وتقف القلاع جريئة شامخة

وبينما كان شارلمان يعيش في قصور غير محصّنة كما كانت إمبراطوريته لا تضم أية منشآت دفاعية ماعدا بقايا البنايات الرومانية التي كان يستشعر المرء غربتها والمتاريس الخشبية الأرضية الخاصة بالجرمان الذين كانوا يلجؤون إليها . وبينما كانت الأخطار الناجمة عن هجمات النورمانديين في القرن التاسع تضطر المرء إلى إقامة القصور المحصنة داخل القلاع وإلى تسوير المساكن الحصينة بالدعائم الخشبية والأخاديد المائية أو الحوائط المقامة فوق هضاب صناعية أو مرتفعات جبلية ، بدأت أولى الأبنية الحجرية تحل في أواخر القرن العاشر محل المساكن الخشبية . واقتصر ذلك فقط على المقاطعات الملكية والأديرة والكنائس على حين لم تنشأ القلاع بأعداد كبيرة إلا في القرن الثاني عشر كما بدأت ترتفع أبراج الحراسة الحجرية ، إلى جانب المساكن التي كانت لا تزال تُبنى من الخشب داخل الأسوار العالية المحيطة بالمكان . خلال تلك الأثناء قامت منذ القرنين السابع والثامن بالفعل مجموعة كثيفة من القلاع الحجرية العربية على طول حدود مملكة الخليفة الهائلة وحول البحر المتوسط . . مئات وآلاف من القلاع التي بنيت كلها حسب خطة واحدة في البناء تختلف عن القلاع البيزنطية وتلائم المتطلبات الخاصة بالهرب وتتشابه فيما بينها كما كانت تتشابه كأوراق الشجرة الواحدة . فقد كان الأساس مربعاً ترتفع فوقه داخل الأسوار الملساء تماماً التي يبلغ سمكها عدة أمتار مبان من ثلاثة أدوار . كان كل منها يضم في البداية أربعة أبراج فقط عند الزوايا ، وسرعان ما أضيفت إليها أبراج نصف دائرية على كل من الجوانب الأربعة ولكنها ليست مرتفعة كثيراً ، مهمتها تسهيل مراقبة الأسوار فيما بينها جيئة وذهاباً . وكان هناك برج واحد في إحدى الزوايا هو الواقع إلى يمين المدخل ، يرتفع أعلى من الأبراج الأخرى ولكنه أقل سماكة .

وهكذا كانت تقف على مدى البصر كنوع من حماية الحدود والشواطىء في مواجهة عمليات الإنزال والغزو. وكانت الأبراج قريبة من بعضها إلى حد أن العين يمكنها أن ترى وميض النار، أو إشارة الراية، من برج لآخر حتى يمكن للحراس القريبين امتطاء صهوة جيادهم سريعاً وأن يصلوا في أقصر وقت ممكن إلى مسرح العمليات.

وكان الحراس يتكونون من خمسين فارساً تقريباً. وكانوا يعيشون حياة بسيطة بعيدة كل البعد عن الرفاهية، داخل غرف مفردة، ليست بها نوافذ، وتطل على الساحة الداخلية. وفي الفترات التي تتخلل المعارك كانوا يذهبون إلى المحراب في قاعات الصلاة والاجتماعات الكبرى إلى تدريباتهم الروحية ويتلقون دروساً في القرآن ويأوون الحجاج العابرين الزوايا الأكبر حجماً - كما يعتنون بالمرضى، وذلك المكان الذي يصلي فيه الناس ويسمى «المسجد» عبارة عن صالة واسعة يتقاطع فيها مع المحراب قسمان مكونان من عشرة أقواس مترابطة وفي الطابق الأرضي توجد مكتبة وغرف للأسلحة - والتخزين واسطبلات للخيل. أما أماكن جلوس الحراس فإنها توجد في مبنى البوابة الأمامي وفوق برج الإنذار.

ومع مرور القرون أدت عمليات استكمال وتعديل سلسلة الحصون في الشرق والغرب، مثل رباط المونستير في تونس، إلى تدميرها أو إلى تعرضها لعوامل التعرية. وتفكك معظم أجزائها أمام ناظري الغرب مباشرة. وكان هارون الرشيد قد عمل على تعزيز حدوده مع بيزنطة من جديد بواسطة تلك القلاع، واستكملها لتصبح ولاية حصينة على الحدود. ولكن المؤرخ البيزنطي الذي عاش في القرن العاشر "ليون ديالونوس" يتحدث عن معارك مدمرة ميؤوس منها

وعن عمليات استيلاء وتدمير لا حصر لها لتلك القلاع، التي يملكها العرب الذين يتباهون بنصرهم الماضي على الرومان أو «الأجاريين» كما يسميهم. وهكذا أصبح على الصليبيين فيما بعد أن يشقوا طريقهم خلال تلك الصفوف التي تهاوت بشدة. حيث عمدوا إلى الاستفادة من بعض تلك الخرائب والبنايات الأساسية في دعم حصونهم الخاصة.

إلا أن قادة حصون العرب الأقوى كثيراً قد كشروا عن أنيابهم، فلقد كانت تلك القلاع تعتبر جديدة حتى بالنسبة إلى البيزنطيين، وبعثت في نفوسهم الرهبة ولم يكن في وسعهم الاستيلاء عليها، فلقد كانت حصونًا هائلة لها أسوار حصينة غير عادية، يصل سمكها من ٣-٥، أمتار مصنوعة من الحجارة المخلوطة بشعر الماعز والخنزير. وكانت من الضخامة بحيث يمكن أن تسير فوقها عربتان إلى جانب بعضهما. كما كانت تحيط بتلك الأسوار خنادق مائية عريضة وعميقة، في وقت ليس بعيداً عن ميلاد السيد المسيح تم بناء قلاع هائلة مماثلة وصل ارتفاعها حتى ارتفاع عشرين طابقاً. وكانت لها أسوار تتوجها الأبراج، ولها نفس القوة. ونقل هذا الطراز قبل التوسع العربي حوالي عام ٥٠٠ إلى سوريا بواسطة الغساسنة، الذين تنصروا هناك، وظلوا بمثابة الشواهد الأولى والنماذج، التي تشير إلى تلك القلاع الصليبية القوية، والتحصينات الهائلة. وكان الفرسان الفرنجة قد كلفوا مهندسيهم بإعادة ترميم أجزاء من تلك القلاع واستكمال بعضها الآخر وفقاً للمثل الصليبي القائل بأن القلعة المدمرة تعتبر نصف مبنية، وذلك على الرغم من أن الغرب لم يكن قد اعتاد بعد على إقامة البنايات الحجرية الضخمة. وأشهر الأمثلة على ذلك هي حصون طائفة الفرسان الراوية (مارجات) وكراك الفرسان والتي كانت تسمى قبل ذلك قلعة الحصن العربية.

وهناك تعلم الصليبيون أيضاً النظام العربي الذي كان غريباً عنهم حتى ذلك الحين، والخاص بالتحصن بالقلاع المزدوجة عن طريق إنشاء ممر بين سورين، أحدهما خارجي، والآخر داخلي، وذلك لتوفير الحماية ضد آلات الحصار ومحاولات تدمير الحصن. ويعتبر ذلك أيضاً أسلوباً في المحاصرة لا يقتصر على العرب وحدهم، كما أن الصوت المتهدج للبيزنطيين ليون وياكوندس ينمُّ عن مدى الرعب الذي شعر به قائد الجيش الذي كانوا يسمونه «الموت الشاحب للعرب»، بسبب فقدان الأمل في الاستيلاء على مثل ذلك الحصن العربي؛ ذلك أن تلك القلاع كانت ترتفع إلى أعلى بصورة لا يمكن وصفها يحيطها سوران. بالإضافة إلى ذلك كان يحيط بها خندق عميق ذو عمق كبير بنيت جدارنه من أحجار بيضاء ملساء. وكان يلامس أسوار الحصن وحين ضخ العرب تياراً جارفاً من المياه إلى ذلك الممر، اضطر القائد إلى التخلي عن محاصرة الحصن وبدأ يهاجم القلاع الأصغر حجماً.

ولقد اقتبس الفرسان من تلك المناطق، وأحياناً من إسبانيا مجموعة من عناصر بناء الحصون العربية - التي تأثرت إلى حد ما أيضا بالحصون البيزنطية - التي كانوا يقاتلون حولها ويستولون عليها ويعيشون فيها ليستخدموها في قلاعهم الخاصة التي بنوها في أوطانهم. وقد فعل ذلك على وجه الخصوص الفرسان الصليبيون الذين شقوا طريقهم وهم متجهون من القسطنطينية براً عبر مناطق الحدود الواسعة إلى فلسطين وسوريا. كما أن بعض المؤثرات العربية الخاصة قد أضفت طابعها بشكل واضح على صورة القلاع الألمانية إلى حد أنها أصبحت ترمز بالنسبة إلينا إلى الحصن ببساطة؛ فهناك مثلاً البروز الحجرية والقلاع وأسوار المدن التي تتوجها كالحلية. وحسب علم شعارات الأسر والمدن الشعارات تعتبر

الأبراج البارزة والأسوار رموزاً تدل على الحصن وعلى المدينة الألمانية، ولكنها كانت في الأصل أكثر من مجرد حلية للتزيين. ولقد استطاعت المخيلة الفنية في الدول العربية أن تخلق قدراً لا ينضب (حتى بالنسبة إلى البنايات الدفاعية) من الأشكال التي تستخدم في التنميق. وفي الوقت نفسه تفي إلى أقصى حد بالمتطلبات العسكرية العملية. وسواء كانت تلك البروز التي، تكاد تقارب هامة الرجل على شكل ذيل العصفور أو مسننة ثلاثياً، أو على هيئة سلالم، أو مستديرة كالقوس، أو ملفوفة في هيئة أرابيسك، فإنها كانت تستخدم في الجنوب العربي كدرع يحمي الجندي ، يمكنه من إطلاق وابل سهامه على المهاجمين.

وتمثل الحصون العربية المربعة بأبراجها، وأسوارها السميكة والمنيعة، فكرة دفاعية جديدة للغاية، وصلت إلى ألمانيا. وهي فكرة جديدة بالمقارنة بالقلاع الدائرية القديمة. التي تحيط بالبرج الموجود في وسطها. ذلك أن الأبراج التي في الزوايا وعلى الجوانب في الحصون العربية تتيح إمكانية المراقبة التامة، بالإضافة إلى كشف الجوانب تماماً، والدفاع مباشرة في كافة الاتجاهات، على البرج الذي يوجد في وسط القلعة. ويعتبر حصن سوسة في تونس، وهو حصن يأخذ الشكل المربع تماماً، مثالاً حياً اليوم على تلك الحصون «الرباط» . كما أن ذلك الشكل لا يزال باقياً في الحصن الواسع من «مونستير» الذي بقيت بعض أجزائه فقط ولكن يمكننا أن نميزه من بنائه كما أننا نجد الشكل نفسه في بقايا حصن " حمط سوق " في جربا وبخلاف البروزات الحجرية وأبراج الأسوار فإن حصن سوسه الذي تم بناؤه عام ٧٨٧م ويعتبر من أقدم بناء دفاعي عربي في شمال إفريقيا مايزال باقياً حتى الآن، فإن هذا الحصن يضم تجهيزات دفاعية بدأنا نستخدمها في قلاعنا بعد ذلك بعدة قرون، كما أن الفتحات التي تخترق السور الأملس من

ناحية البوابة وحدها عبارة عن ست فتحات تطلق منها العيارات النارية . وعلى الرغم من أن عرضها ٨ سم تقريباً وارتفاعها ٨٠ سم إلا إن السور يمتد خلفها في زاوية عريضة إلى الداخل بدرجة تتيح لرامي السهام مكانا كافياً للحركة بحيث يغطي بسهامه المهاجمين عند البوابة الأمامية . ومما يتعارض مع الاعتقاد بأن تلك الفتحات مجرد فتحات لدخول الضوء فإن قاعة الصلاه المنبسطة ينفذ إليها قدر كاف من الضوء من خلال الأبواب الأربعة ، وأنه ليس هناك أي مسجد به نوافذ في اتِّجاه المحراب .

وهناك إنجاز عربي آخر أخذه الغرب يتركز في أكثر مواضع الحصن حساسية وذلك هو البوابة فلقد رَصّت أعلى المداخل برقائق حجرية على مسافات متقاربة يستطيع المدافع من خلال الفتحات التي بينها أن يصب فوق رأس الذي يتمكن من الاقتراب من ذلك الموقع ، زيتاً ساخناً وقطراناً وكان ذلك يتم وفقاً للمبدأ نفسه المتبع في قوالب الصّب العربية القديمة ، وأنابيب القطران في القلاع الألمانية التي تسمى "**Machiculis**" . ولكن قبل ذلك الاستقبال الساخن مباشرة كانت تنتظر المهاجم عقبة أخرى . فقد كانت هناك رافعة يجري حلْها بسرعة فتسقط شبكة حديدية مزودة بأسنان مدببة تسد الطريق نحو المداخل كانت تدعى في إيطاليا "**Sarracinesca**" وبالإضافة إلى كل ذلك يوجد في حصن جربا مدخل البوابة المنصوب بزاوية يعوّق تدفق مجموعة المحاصرين .

إن فكرة البناء القائمة على إنشاء برج مربع على السور والتي كانت تلبي بصورة تامة . حاجة العرب إلى وجود التناسق والتناغم ، وإلى تنظيم وبالتالي الحد من كثرة الأشكال وتنافرها ، إن تلك الفكرة قد لاقت استحساناً في الغرب لدى صديق العرب الكبير ، القيصر فريدريك الثاني . كما كانت تتفق مع إحساسه

بالسلطة، والالتزام الصارم بالنظام. وكان فريدريك الثاني عرف منذ شبابه تلك القلاع البسيطة الضخمة التي أقامها المهاجرون العرب من تونس التي كان يحكمها الأغالبة منذ غزو صقلية حوال عام ٨٢٧م، ولذلك فإنه قبل أن يبدأ حملته الصليبية عمل على ترميم أجزائها المتداعية وتوسيعها، بإضافة أبراج عند الزوايا الأربعة للبناء يغطي أبوليا وصقلية بشبكة كثيفة من القلاع الرسمية ذات التأثير المهيب، التي تمثل قوة القيصر ورجاله، وقد اعتمد في بنائها لحد ما على الفكرة العربية وأكثر ما يتضح ذلك في قلعة أورسينو في كاتنيا ومانياسا في سيراكوزا، أو بصورة مشابهة لهذه الحالة مع ما جرى عليها من تعديل طفيف مثل قلاع تراني، باريوباريتا، ووبريندیزي، ومانفريدونيا، وتارينت الواقعة معها على البحر. وهنا يستخدم القيصر أيضاً القاعدة العربية التي من شأنها أن تعوق المهاجمين الذين يستخدمون معدات الحصار، وذلك بحفر الخنادق العميقة. كذلك أخذت طائفة الفرسان الألمانية - التي ترتبط بالقيصر بصلات وثيقة - استقت من سوريا وفلسطين فكرة البناء العربية ونفذتها (كأسلوب للبناء) بشكل فريد ومتميز في قلاعها مثل ميقبة، ورميسهدن، هيلسبرج وأرنسبورج، وقد مزجت الطائفة تلك القلاع بالأقواس المدببة أيضاً. مثل تلك التي تزين منذ أيام هارون الرشيد خزانات المطر. بالقرب من يافا، شمال غربي القدس. أضيفت إلى ذلك في ألمانيا في القرن الثالث عشر بصفة خاصة الأشكال نفسها المميّزة للقلعة ذات الزوايا الأربعة التي تتحكم بها الأبراج المقامة عند الزوايا ونقصد بها قلاع هاردبنبورة، وهرتزبرج، وفريد يفالد في ولاية هيسن، وفرستناو في غابة أودن (**Odenwald**)، وليشينش في راينلاند وتسيلبيش في ڤستڤاليا. كما أن قلعة قاسرنوا مارشلينز في جراوبيندن تشير إلى وجود صلة مباشرة بينها وبين

قلاع فريديك الثاني . كما أن ذلك الطراز الخاص بالقلاع العربية الرباعي الزوايا شائع في سويسرا كذلك . وهناك القلاع المربعة القوية التي ترتفع على بحيرة نوينبورجر مثل سامبڤنت ، وجراندسون التي تحيط بها عند الأركان أبراج مستديرة وكان اثنان من أبناء صاحب القلعة : وإيبال ، إميبال الرابع فون جراندسون ، قد قاما ببناء هاتين القلعتين أو بالأحرى أجريا تعديلات عليها وفقاً للطراز العربي وذلك بعد أن عادا من الحروب الصليبية في فلسطين حيث كانت القلاع الدفاعية من ذلك الطراز منتشرة انتشاراً واسعاً . كذلك كان بيتر الثاني فون سافوسين يهوى ذلك الطراز العربي المؤثر في بناء القلاع وقد قام بتقليده يفرادون ، وغيرها من القلاع المربعة الشكل ، ولذلك سميت «مربع سافوسين» .

إن قلعة شامبڤنت الشامخة احتفظت في شكلها الأصلي بالنموذج العربي ، خاصة فيما يتعلق بفتحات النبال ومكان إلقاء القطران فوق بوابة المدخل .

التأثير في مجالات الدفاع والأسلحة والملابس

من الطبيعي ألا تقتصر الجهود في مجال الشؤون الحربية على البنايات الدفاعية وحدها . إذ كيف يمكن ألا يؤدي أي اتصال بالعدو - كما حدث في كافة العصور - إلى حدوث توازن في القوى خلال وقت قصير ومحاولة التكيف مع العدو المتفوق في المعدات والأسلحة والتكتيك . وكما كانت الحرب الأهلية الإسبانية في القرن العشرين مسرحاً لتجارب القوات الألمانية ولسلاحها الجوي وصناعة طائراتها ، كذلك قامت الحروب الصيلبية الإسبانية في القرنين العاشر والحادي عشر ضد الموريسك (عرب الأندلس) بالدور نفسه بالنسبة إلى جماعات الفرسان من كافة الدول الأوروبية . فلقد كانت تلك الحروب تعني حدوث مواجهة مع التجهيزات الحربية للعرب الذين اعتادوا القتال وأصبحوا من ثم بفضل الالتزام الديني على أهبة الاستعداد الدائم لخوضه، وكما كانوا على دراية كافية بأحدث الإنجازات في صناعتهم الحربية المتطورة وأصبحوا بذلك يتدربون ويتعلمون باستمرار الفروسية الغربية الناشئة .

إلا أن تلك كانت أشبه بنزهات فردية بالمقارنة بالأعداد الضخمة التي أتاحت لها الحروب الصليبية المشاركة فيها وكذلك قياساً بالتفوق العددي لمن يدافعون عن وطنهم ضد الغزاة والمستعمرين . وكان على هؤلاء أن يدركوا سريعاً أنه لا بد أن يحدث تباين واضح في التكتيك القتالي والتكتيك الحربي الناشئ عن تصادم جيوش الشرق والغرب .

ذلك أن الفارس من الفرنجة بمعداته الحربية المكونة من السيف والرمح والدرع كان مهيئاً بصورة أساسية لخوض المواجهة الفردية عن قرب مع محاربين - كأفراد- وسط جماعات غير منتظمة في حين أن العرب والأتراك كانوا مُهيئين

لخوض المعارك عن بعد من فوق جيادهم السريعة بصفتهم رماة سهام مهرة على ظهور الخيل من خلال وحدات قوية منظمة تكتيكياً. وكانوا يمثلون منذ وقت بعيد العمود الفقري للجيوش العربية التي يعملون لديها أشبه بالمرتزقة الأجانب، فقد كانوا يوجهون سهامهم نحو العدو من على بعد ثمانين متراً، وكان ذلك السيل الكثيف المنهمر من السهام، التكتيك السريع للغاية للمهاجم الذي ينطلق ثم يفرّ تمويهًا ثم يعيد الكرّ من جديد على حين غرة كل ذلك كان يؤدي إلى إصابة الفرسان الصليبيين بالحيرة والإرباك إلى حد جعلهم يقفون في البداية شبه مشلولين في مواجهتهم وأحياناً كانوا يلجؤون إلى الفرار. ويصف ڤيلهلم فون تيروس الأثر المدمر لتلك الهجمات بقوله: "كانت هناك سحب من السهام مثل أسراب الجراد كثيفة إلى حد أنه لا الأمطار ولا البرد كان من شأنهما أن يسببا قدراً أكبر من الظلمة كانت السهام تخترق أجسام الكثيرين منا، وحين أفرغ المهاجمون من الصفوف الأولى ما في جعبتهم، جاء بعدهم السرب الثاني الذي كان يضم عدداً أكبر من الفرسان وبدأ في إطلاق سهامه بصورة أكثر كثافة إلى درجة يصعب تصورها وكان ذلك الأسلوب في القتال غريباً تماماً بالنسبة إلى مقاتلينا. كما لم يكن في وسعهم الصمود أمامه دون أن يتأثروا وهم يرون جيادهم تتساقط كل دقيقة دون أن يستطيعوا القيام بأي شيء لإنقاذها دون أن يكون بمقدورهم الدفاع عنها. وأما هم فكانت يتعرضون لإصابات غالباً ما تنتهي بموتهم من غير أن يستطيعوا النجاة. ولم يكن أمامهم سوى الانقضاض عليهم بالسيوف والرماح. ولكن لم يكونوا يستطيعون الصمود أمام هذا النوع من الهجوم، لذا كانوا ينسحبون مما يضطر جنودنا إلى الإنسحاب. أما أولئك الذين أصيبوا بجراح مميتة غالباً ما كان يصعب عليهم النجاة ولذلك فإنهم كانوا

ينسحبون على الفور . . . لأن جنودنا لم يجدوا أمامهم بعد ذلك أي شخص ، فإنهم اضطروا إلى الهجوم عليهم مستخدمين السيوف والرماح ، ولأنهم لم يستطيعوا من ناحيتهم احتمال هذه النوعية من القتال ، فإنهم انسحبوا على الفور وعندما لم يجد جنودنا أحداً أمامهم اضطروا إلى الاستدارة للانسحاب ، ولكن بينما هم يتراجعون إذ بالأتراك ينظمون صفوفهم سريعاً ويبدؤون في إطلاق سهامهم من جديد التي كانت تنهمر كالمطر فوق صفوفنا ولا تكاد تترك أحداً دون أن تصيبه . "

لقد كانت تلك مدرسةً مرعبة ، وذلك أن القتال عن قرب وعن بعد كانا يخضعان في الهجوم والدفاع لقوانين متباينة ، ولقد اتضح أن القمصان المدرعة البسيطة والواسعة الثقوب أو "الدرع» لا تصلح على الإطلاق في مواجهة تلك السهام القاتلة ، على حين أن الدروع العربية المصنوعة على هيئة السلاسل كانت بها دائماً أربع حلقات تربطها خامسة الأمر الذي كان يتيح قدراً أكبر من الحماية ويدعمها قميص أسفل الدرع مبطن بالقطن .

وحتى الحرب الصليبية الثالثة ظل الأوربيون يتعلمون في تلك المدرسة القتالية . ويحكي أحد شهود العيان من العرب عن معركة عكا فيقول : «لقد أصبح الفرسان الصليبيون يرتدون الآن سترة سميكة ودروعًا محكمة واسعة قوية تحميهم من سهام الأتراك ورأيت جنوداً انغرزت في أجسامهم سهامٌ بلغ عددها واحداً وعشرين سهماً . "

وممّا يدهشنا وجود بعض أجزاء المعدات العربية حتى اليوم في الملابس المدنية التركية التي لا تزال تستخدم حتى اليوم . ولقد اشتق من القميص القطني المبطنْ الذي كان يلبس أسفل الدرع ، اشتق منذ عام ١٢٠٠ تعبير بامبك عن الفارسية

الوسطى أي القطن الفارسي، كلمة «وامبوس» أو ڤامس «**Wams**» واشتق عن نفس الأصل اسم المادة القطنية بومبازين "**Bombasin**" . ولأن الإنسان كان يستخدم القطن في تبطين القميص، جاءت أيضا كلمات بومباست والصفة منها، بل واسم الجنس تومباسب، الذي أطلق على باراسيليوس فون هوناهايم كما اشتق عن الكلمة العربية "شك» **Sakk** أي القميص المدرع. وعبر الكلمة الإسبانية «باكو» كمتي (باكت ، جاكت) وجاكت وخرجت عنها فيما بعد كلمة «ساكو» التي يبدو أنها إيطالية.

وأجبرت تلك الخبرات المكتسبة في الشرق المرء على اتخاذ إجراءات مضادة أخرى. فلقد أصبح من الضروري بشكل خاص تغطية الرقبة الأمر الذي أدى إلى ظهور الغطاء الثقيل للرقبة. كما أن بقية معدات المحارب أصبحت أكثر ثقلاً وكثافة. وأما الخوذة الصغيرة البيضاوية الشكل التي توفر حماية للرأس فقد تركت فتحة صغيرة للعينين. وعلى هذا فإن فرسان العرب الذين كانوا مدرعين بشكل مرن من قمة الرأس إلى أخمص القدم كانوا مثالاً يحتذى في توفير حماية شاملة أيضاً للأيدي والأذرع والأرجل إلا أن إحلال الدرع الحديدي الباهظ الثمن محل الدرع الذي كان على شكل سلاسل، جعل القليلين فقط قادرين على اقتنائه. ونفس الشيء حدث بالنسبة إلى حماية العرب لجيادهم. على الرغم من أن الفارس الذي بدأت تثقل أسلحته يتزايد باستمرار نتيجة للسيوف التي أصبحت أكثر طولاً والرمح الحديدي والدرع الكبير الطويل غير المريح للجياد، كان لا يجارى أثناء قيامه بهجوم الجرْي، إلا أن حركته ازدادت ثقلاً باستمرار تحت وطأة ذلك الحمل الثقيل إلى الحد الذي جعله يحتاج إلى عدد من العبيد يساعدونه في امتطاء صهوة جواده والنزول عنه. لقد ظلّ المقاتل هو نفسه المهيأ

على القتال القريب وعلى الهجوم والمعتمد أصلاً على مهاراته الذاتية .

ولذلك ظهرت الحاجة إلى تكوين تشكيلات جديدة تماماً من الجيوش لكي تستطيع مواجهة جيوش المسلمين . انقسمت تشكيلات الفرسان ذوي الأسلحة الثقيلة على غرار تشكيلات الفرسان العرب الذين أثبتوا جدارتهم في المنازلة في ساحات الوغى الواسعة وفي استخدامهم الرمح والبلطة ، ثم هناك تشكيل الفرسان المتفوقة عدداً ، وتشمل رماة النبال ، الذين يتسمون بالنشاط وبحرية الحركة والسرعة ، ويتم زجّهم عند اتخاذ القرارات المفاجئة في المعركة ثم هناك المشاة التي تضم رماة النبال والمدفعية ورماة المنجنيق الذين يرتدون زياً مقاوماً للنيران . وأخيراً المهندسين ولم يكن هناك أهم من فرقة الفرسان الرماة التي تم تشكيلها من المخلصين والوطنيين الذين يطلق عليهم لفظ «التركو بولن " الذين كانوا يصلحون بصفة خاصة للقيام بالهجمات المفاجئة القوية ولأعمال التجسس والاستطلاع وكان أكثر من استخدمهم هم طوائف الفرسان كما أن طائفة الفرسان الألمان استخدمتهم أيضاً . وإن كان النورمانديون الذين جابوا العالم يملكون داخل جيشهم وحدات لرماة النبال حسبما يظهره بساط «بايوه» الذي نُسج عام ١٠٩٠ وهو الجيش الذي غزوا به إنجلترا عام ١٠٦٦ ، ويوضح البساط الجنود النورمانديين والأنجلومالونيين وهم يرتدون زياً يشتمل على خوذة مدببة ورداء مدرع على شكل سلاسل ، وذلك مثلما فعل الخليفة المتوكل قبل ذلك في منتصف القرن التاسع حين أمر بتوحيد السلاح والزي "للجند" المؤّلفين من العبيد والأتراك أو التركمان المكونين للفرسان والمشاة .

ويستكمل سلاح الفرسان بواسطة فرسان خيّالة ذوي تسليح بسيط مزدوين بالرماح أو الأقواس القاذفة وذلك لمساعدة القوات ، ويذكر (نولخر فون

كارترس) أن الفرنجة كانوا غير متمرسين في استخدام الأقواس القاذفة . وعلى الرغم من أن السيادة ظلت للفرسان ذوي التسليح الثقيل ، إلا أنهم كانوا يعتمدون على رماة النبال . وهكذا عندما كان المرء يأخذ بأساليب القتال العربية ، حيث يبدأ الرماة المعركة ، من أجل إفساح المجال أمام الفرسان عن طريق التفريق أو الانسحاب من جانب جموع الزاحفين . أو عندما يتبعون أسلوب " القنفذ " العربي الذي يتمثل في الدفاع ضد قوة أكبر حيث يقف المشاة في دائرة محكمة الإغلاق وهم جاثون راكعون على ركبهم ويثبتون الدروع أمامهم في الأرض . ويقف في ظهرهم رماة النبال والفرسان حيث يتلقّون العدو بالرماح المقذوفة .

ومن أجل توفير الحماية من الشمس السورية القوية والتي تزيد الدروع الحديدية من لهيبها بصورة غير محتملة ، عمد المرء إلى التقليد العربي المتمثل في نشر عباءة خفيفة على أجسادهم وتغطية الخوذة بالكوفية العربية وكذلك حماية الجياد بواسطة أغطية خفيفة رقيقة بحيث لا يبدو من رؤوسها سوى الأعين وكانت معرفة تلك التأثيرات من جانب العدو الوثني هو الذي دفع باب كليرفو إلى تحذير الفرسان الصليبيين قائلاً : إنكم تزينون الجياد بالأزياء الحريرية وتغطون أسلحتكم بأغطية هفافة " وحذر من أن زينة الفرسان تلك تليق بصورة أفضل بالعاهرات .

ولكن الأمر تعدى ذلك لأن المرء سرعان ما بدأ يكتسب وبسعادة تحيطه تلك العادة العربية والتي بدونها لا يمكن مطلقاً تحديد هوية الفارس أثناء العراك وقد أصبح الآن مغطى تماماً. تلك العادة هي تطريز القميص والغلالة التي فوقه بشعار الفارس. وهكذا بدأت أشكال الحيوانات الشرقية والشعارات تظهر فجأة حوالي منتصف القرن الثاني عشر على الدروع والقمصان وأغطية الجياد والرايات التي يحملها الفرسان المسيحيون. كما تظهرها لنا قصائد ما نسجه المصور على كل جانب. وهذا هو السبب في أن الشعار حتى اليوم يأخذ شكل الدرع العربي الصغير الذي يمكن استخدامه بسهولة والذي يسمى تارتشة عن الاسم العربي «دركة» وذلك عوضاً عن الدرع الطويل الضخم الذي كان يستخدم فيما مضى ولم يعد له استخدام في ذلك الوقت. ولذلك أيضاً فإن الخوذة وما يزينها أخذت مكانها في شعاراتنا العائلية على حافة الدرع، تلك الزينة التي كانت ترفرف على أغطية الخوذات التي أخذت عن غطاء الرأس العربي، أو ما يطلق عليه «كوفية» البدوي العربي.

وسرعان ما أخذت الأسود التي يرسمها العربي، والنسور تبرز فوق الأختام والعملات والرايات، وفوق الحصون وعلى أسوار المدن. ومع منتصف القرن الثاني عشر بدأ سيل من الشعارات الرسمية العامة يجتاح ألمانيا. وتقليداً للنموذج العربي أخذ القيصر شعار ذلك الطائر الغريب الذي ظهر بالفعل على آثار السومريين والحثيين رافعاً رأسيه معاً: ذلك هو النسر ذو الرأسين. كما أن العملات العربية كانت تحمل صورته. ومع بداية القرن الثاني عشر بدأ السلاطين السلاجقة أيضاً يستخدمونه في شعاراتهم. وعلى حين فجأة بدأ هذا الشعار

يحتّلُ مكانه بقوة ليصبح شعاراً للإمبراطورية رمزاً إلى سيادة الإمبراطورية الألمانية والمدن الأخرى المستقلة التابعة لها (Vichsfreie)، وللمملكة النمساوية وروسيا القيصرية. ولكن، هل ظهر على الأعلام أيضاً؟ فلنحاول أن نتذكر : حين قام الباباوات لأول مرة بمنح ما يسمى "بأعلام القديس بيتر" ، استجابوا لطلبات المحاربين الملحّة، الذين عادوا لتوهم من المعارك مع المسلمين في إسبانيا وجنوب إيطاليا أو الذين كانوا على وشك الالتحاق بتلك المعارك. ويرجع ذلك إلى أن الشرق كان يعرف بالفعل أعلام القبائل والحروب منذ العصور القديمة المبكرة، ومع بداية العصر الإسلامي بدأ النبي ﷺ والخلفاء الراشدون. وكان هؤلاء يرفعون راية النبي ﷺ الخضراء - التي تحتفظ بها (القسطنطينية)[1] الآن كأثر له - وحملوها عبر نهر مش متوغلين في بلاد ما وراء النهرين حتى وصلوا إلى فرنسا. وهناك شيء آخر كان غير الشعور العربي المتدفق فيما يتعلق بنشأة الرايات في الغرب : ذلك أنه خلافاً لما هو معمول به بالنسبة إلى الرايات المقدسة التي كانت بيزنطة تمتلكها قبل روما بمائة عام والتي كان يتم عقدها عند بداية المعركة حتى لا تسقط فإنه كانت هناك على عهد محمد ﷺ عادة عربية تتمثل بعقد الراية قبل الحرب أو المعركة في سن الرمح، وقد ظهرت هذه العادة نفسها في القرن الحادي عشر عندما تم منح الرايات المقدسة لأول مرة، كذلك تحمس الفرسان للأخذ بهذه العادة، وهكذا أخذت تلك الرايات الصغيرة الطولية والمشقوقة والمزدانة بالزينات وفقاً للنموذج العربي، ترفرف على رماح المحاربين الممثلين لمختلف التشكيلات والأقسام وعلى المئات من الشعارات والرايات

(١) استامبول الآن . المترجم

الصغيرة . وكانت شعارات الرماح تلك هي التي تميز حاملها عن بُعد، وكان قائد الجيش الآن يتقدم حاملاً الشارة ويقوم بنصبها فوق السور أو البرج معلناً بذلك استيلاءه على الحصن، تماماً كما يفعل اليوم رواد الفضاء فوق القمر ، أو يقوم بإنزال الراية دليلاً على هزيمته .

وعندما بدأ زيجفريد في ملحمة «النيبلونجن - الشهيرة» قتاله مع قبائل البورجونديين ضد الساكسون أنشد يقول :

طلبنا من البوجوند أن يعقدوا رايتهم
فأمسك المحارب الشجاع بالراية
وحمل سلاحه وسار على رأس الجماعة

وحين قام محارب مدرع مجهول بكسر درع ملك الساكسون ليديجر فقد كان شعاره الذي هو نمّ عنه :

ورأى الملك ليديجر على أحد الدورع
تاجاً مرسوماً أمام ساعد زيجفريد

وبدون درع أصبح ملك الساكسون غير قادر على مواجهة زيجفريد الذي لا يقهر ، ومن ثم طلب من جيشه أن يكف عن القتال :

طلب خفض الرايات في المعركة . . . لأنه ينشد السلام .

ومن الأمور المميزة لروح الفرسان المسلمين ، تلك اللفتة التي قام بها السلطان الأشرف عند استعادة مدينة عكا . فلقد أرسل راية إلى فرسان المعبد

والفرسان الألمان الذين استسلموا ، وكان عليهم أن ينصبوا هذه الراية على معبدهم بغرض حمايتهم من أي ضرر يصيبهم أو يودي بحياتهم ، إلا أن بعض الذين أعماهم الغضب قاموا بأعمال النهب ولم يتوقفوا عند البرج ، فقام فرسان حفظ النظام بتأديبهم .

وإذا كان الألمان ينشدون بين الحين والآخر أناشيدهم الحربية التي اعتادت الجيوش في الأزمان الغابرة على ترديدها وهي في طريقها إلى المعركة وفي حين يطلق الفرنسيون صيحات الحرب ، نجد أنه كان من عادة العرب أن يقوم بعض الشعراء باستثارة حماسة المسافرين إلى المعركة بأناشيدهم الحربية ، ولقد كانت هناك على وجه الخصوص عادة عربية أصبحت مثالاً يحتذى لدى الألمان ، كما أنها أصبحت تمارس بواسطة من يمارسون الألعاب من العبيد بين الأتراك والألمان ، ثم بواسطة جماعات الموسيقيين فيما بعد ؛ ذلك أن الموسيقيين اعتادوا أن يتقدموا المحاربين العرب في معاركهم الحربية . وهكذا نافخو الأبواق الصغيرة والكبيرة ، وعازفو المزامير .

وبالإضافة إلى ذلك كان ضاربو الطبول يقرعون طبولهم ، وكثيراً ما كانت النساء وهن يمتطين سنام الجمال يقرعن الطبول ويضربن الصاجات وكان الصبية ينفخون بالمزمار ويقرعون الطبول ، ولقد كانت موسيقى الميدان العربية هذه جزءاً أساسياً من التكتيك العسكري . ولقد كان مراسلو الحروب الصليبية يصفون استخدام تلك الموسيقى والتأثير الذي يصم الآذان والذي كان من الصعوبة التغلب عليه في بادئ الأمر : عندما كانت الطبول الكبيرة تقرع قبل انبلاج الصبح بصوت عال جداً ويهاجم العرب عند سماع تلك الطبول ذات الصوت المرعب الهائل .

ولقد بدأ الفرسان الصليبيون يعتادون بصعوبة بالغة على موسيقى الميدان تلك التي تعلن عن بدء المعارك كتب أحد رفاق السلاح لصلاح الدين تقريراً قصيراً ووافيا واصفاً الجو المشحون الذي يسبق هجوماً عربياً : "اعتاد المسلمون مهاجمة الجيش المسيحي من ثلاث جهات ، من الشرق والشمال والجنوب . وكانت جهة البحر هي وحدها تبقى خالية وفي تلك الأحوال كنت أرى السلطان وهو يتنقل بين الجيشين في خضم سيل منهمر من السهام وليس معه سوى صبي أو اثنين إلى جانبه، متنقلاً بجواده بين تشكيل وآخر . ولقد رأيته وهو يثير حمية محاربيه ويشعل فيهم الرغبة في القتال . كما كان الجو مشحوناً بصخب الطبول والمزامير وصيحات الجنود الذين يزداد حماسهم مع صيحات «الله أكبر - الله أكبر» ، وعلى الرغم من ذلك احتفظ الجيش المسيحي بتشكيله . "

كذلك سرعان ما تعلم الفرسان الصيلبيون طريقة العرب في التفاهم بواسطة إشارات الطبول ودقات الطمبور ، وضجيج الطبول وكذلك إشارات الرايات ، كما فعل صلاح الدين مع سكان عكا المحاصرين، الذين استخدموها بدَوْرهم ، وكما أخذوا عن العرب تزيين المباني أثناء احتفالهم بأعيادهم وانتصاراتهم .

الحركات التي تقدم على ظهور الجياد

نشأ العربي جنباً إلى جنب مع جواده، إلى جانب هذا كان يتصف بحبه الشديد للهو فهو يهوى منذ نعومة أظفاره ألعاب الفروسية بكافة أشكالها . فكان يخوض سباقات الخيل فوق مضمار بيضاوي طوله عشرة كيلومترات، ويعقد المراهنات عليها . كما يمارس ألعاب قذف الكرة وهو على جواده، وهي اللعبة التي أخذها عنهم الإنجليز وأسموها البولو، أو هوكي الخيل . وكان العرب يقومون بتلك الألعاب على عهد الخلفاء الراشدين في بغداد وفي مقر الخلافة في

سامراء، وكانت لعبة «الجريد» من أفضل الألعاب. الرياضية المحببة إليهم، وهي عبارة عن قتال ثنائي بين فرسان يلبسون الدروع. وتقتصر ممارستها على الأمراء والملوك. ويسعى كل فارس إلى إلقاء الآخر عن سرجه بواسطة رمحه، الذي كان إما مغطى أو بدون نصل معدني. وكانت كل مدينة عربية بها واحدة أو أكثر من ساحات السباق المخصصة لهذا الغرض. وكان الناس يتدفقون إليها ويشاركون فيها بحماس. وفي الأندلس العربية كانت ألعاب الفروسية تتم غالباً في قصور الأمراء، وكانت النساء تجلسن في الحلبة أو في أماكن مخصصة للمشاهدين حول ساحة القتال المحاطة بالحواجز في حين يصارع الفرسان بعضهم بعضا وفق قواعد محددة، وهم يربطون وشاح محبوباتهم فوق الخوذة أو معطف القتال الأحمر أو الأزرق المزدان بالشعار ويغطى الدرع أو يربطونه على الرمح.

ومن هذا النموذج من فروسية الجريد أخذ الفرسان الفرنسيون، بعدهم في القرن الثاني عشر أخذه الفرسان الألمان - الذين مارسوا منذ وقت طويل لعبة البوهرت وهي عبارة عن قتال شكلي بين مجموعتين من الفرسان، أخذوا عادة القتال عن المحاربين. وكانت بالرماح سواء ذات نصل حاد أم غير حاد، إلا أن ذلك لم يكن مجرد ألعاب، ففي عام ١٢٤١ أسفرت إحدى هذه المعارك عن ستين فارساً قتيلاً في ساحة القتال في نويس على نهر الراين. وتجدر الإشارة هنا إلى تركيب لغوي طريف من فترة انهيار ألعاب الفروسية وهو تعبير يرتبط بكلمة غير واضحة الأصل، ربما تكون شرقية، وذلك أنه عندما كانت سعادة المشاهدين تبلغ مداها وهم يشاهدون مثل تلك المسابقات ويزداد هذا الضجيج الذي يحدثونه كان المرء يطلق على ذلك لفظ جرالين أو جرولين استعارة من أسطورة: الجرال [(١)].

(١) الجرال: في شعر العصور الوسطى عبارة عن حجر كريم لا يراه إلا من كان صاحب رسالة.

إن ملحمة "النيبلونجن" المليئة بشكل خاص بالحديث عن إجراء المسابقات تقول : فإنه تم منع البوهرت والضوضاء تماما ، على الرغم من ذلك فإنه عندما كان الضيوف والأصدقاء يلتقون معاً للتسلية كانت الفتيات الجميلات يقفن خلف النوافذ وكان المرء يسمع تكسير النصال على السيوف التي تحملها الأيدي كما أن ضربات السيف تحدث صليلاً على الدروع ، ولقد تكسرت أمام النساء بعض النصال القوية لأنه وفقاً لقتال البلاط كانت النساء يستمتعن بوقتهن وهن ينظرن إلى الفرسان ، وكان الفارس المنتصر يتلقى وهو جاث على ركبتيه حسب التقاليد العربية الشكر من أيدي السيدة التي خاض المعركة على شرفها . وهكذا شهدت بلاد ألمانيا ازدهار آداب الفروسية على أرضها ولقد أخذ اللفظ أيضاً عن اللغة وطريقة التفكير العربية ، إذ يسمى الشهامة .

يجب علينا أن نستعيد ذلك الخلاف الصارخ لأذهاننا ذلك أن المرأة التي تخضع وفقا للتربية المسيحية، والتقاليد المفروضة، لأنها بنت حواء العاصية لزوجها في المنزل روحاً وإرادة وجسداً، تلتزم بطاعته بصفتها خادمة توجيهاته الخاصة في المنزل والمطبخ والفراش. هي نفسها التي تبدو في البلاط في صورة السيدة الرفيعة الشأن التي يخطب المرء ودها والتي تتقبل ما يؤديه نحوها من خدمات. وأعمال فارس خاضع لإرادتها، والذي هو بالصدفة يسمى زوجها، وتمنحه حبها وتكافئه برضاها عنه. كذلك فإن الرجل نفسه الذي يظهر هناك كرب بيت، وحامي زوجته، ومربيها ويجعل جسدها يزرقّ من الضرب كما فعل زيجفريد النبيل، طالما أنها لا تنفذ رغبته في كل شيء، فإنه ينحني على ركبته أمام زوجته الأخرى ويطلب حظوتها عن طريق وضع نفسه تحت إرادتها تماماً ويخوض المعارك والمغامرات على شرفها.

يا له من تجديد بالغ الغرابة! ذلك الأمر الذي كان يعد تقليداً جديداً (صرعة)، لا يمكن تصور حدوثه من الفارس الشجاع، الذي صورته ملحمة رولاند أو من محارب العصر الكاروليني وعهد الملك أوتو وهي الصرعة التي طغت فجأة على تصرفات الفروسية في الغرب وكان من نتيجته الخضوع لفكر معين تجاه العالم، وهي الصرعة التي تختص بسيدة ذات مكانة رفيعة - وليست فتاة صغيرة - ولكنها زوجة لشخص آخر، فيتقدم الفارس طالباً رضاها لأنه اتخذ لنفسه أشق المهن؛ ولأن الحروب والمعارك والقتل هي محور حياته. ولقد كانت تلك التقاليد أيضاً موروثة عن العرب ونشأت عن فكر عربي خالص، وهو فكر وقف على طرف نقيض من فكر عالم آخر في الغرب المسيحي وألمانيا

المسيحية واعتنقته بنفس الشخص المسيحي رغم تناقضه.

إذ ما هو فن الحب العربي ذاك الذي انتاب مقاطعة البروتانس أولاً ثم فرنسا وألمانيا؟

إن بادرة ثني الركبة أمام السيدة، المسلك الخارجي والداخلي المتمثل في إذلال النفس وإخضاعها أمام المرأة وكذا أمام الحاكم، أو الإقطاعي هي أمور تتماشى مع موقفهم الديني إزاء الله، كذلك فإن العلاقة بين الرجل والمرأة تكتسب دائماً دافعاً ميتافيزيقياً عميقاً في كينونة الإنسان بنفس الصورة التي تسير عليها علاقتهما الألوهية وفي هذا الشأن نقول: إن الإسلام يعني التسليم لإرادة الله أو التواضع والتذلل والخشوع والصبر تجاه الله - والمحبوب، وأن تكون علاقة عبودية، كخضوع العبد. هذه هي الأمور التي يتسم بها المؤمن - والمحب أيضاً، وهي في الوقت نفسه العلامات والفضائل التي يتسم بها المحب العربي تجاه محبوبته.

إن المرأة من هذا النوع تريد أن تكون متقلبة المزاج سواء في مشاعرها أو أحاسيسها أو تصرفاتها التي لا يمكن توقعها بين لحظة وأخرى. كما أن الرجل يستمتع بذلك التقلب في مزاجها، فهو يريدها مرة متشددة ومرضية مرة وحيناً فظة، ثم تعود إلى حنانها ورقتها، ثم تكون كالآلة الغاضبة، وعليه في كل هذه الحالات أن يبرهن على خضوعه لها كسيدة جديرة بذلك:

كوني متكبرة   سوف أحتملك.
كوني مزهوة   سوف أصبر عليك.
تعالي بذاتك   سوف أخضع لك

تناءي عني سوف أتجه إليك

تحدثي وسوف أسمعك

مري وسوف أطيعك

تلك كانت الكلمات التي خاطب بها ابن زيدون (١٠٠٣ - ٧٠) شاعر الحب. الأندلسي الكبير، والمحب الكبير، يخاطب بها حبيبته، وهو الذي كرس حياته كلها لحب الأميرة الأموية ولادة. ولقد أحب الرجل ذلك الخضوع الكامل، لتلك النظرات البراقة ولتلك القوة التي لا تقارن:

عذبيني واظلميني وانأي بنفسك

ستظلين جميلة في كل الأوقات

وافعلي ما تشائين فمهما فعلت

ستظلين كما أنت وسأتحمل سواء أردت أم لا

كما أنني سأتحمل قسوتك

حتى عندما يغفر الشاعر لمحبوبته قسوتَها ويشكو لها الآلام التي يعاني منها بسببها، فإنه أيضاً يمتدحها، كما فعل الشاعر سعيد بن العاص حوالي عام ١٠٠٠ والذي ينتمي إلى قبيلة النبي (ﷺ):

أنشد حمايتك من تلك الآلام

لقد هوى قلبي كالقمر

عندما يخبو، فإن قلبي ينكسر

كم أتمنى أن يشدني أكثر إليه

ولكنه يظل نائياً كما لو أنه لا يعرفني

ويقتلني بقسوة، أنا الذي أهواه

إنني أصبح من الحماس كَمَن
ينحني أمام لفح النار ولا تنهمر دموعه
وهو يتعبد فيه رغم أنه يحرقه

وهكذا يصبح الحب مرضاً لا شفاء منه . ومن المشاعر الحقيقية العربية هذا التساؤل : أي مرض أشد قسوة من الحب؟

إن من يصاب بهذا المرض
لا يطلب البرء منه
ومن يعانيه
لا يتمنى الشفاء منه

ويدخل تقبل الاتهامات الباطلة ضمن إطار إذلال الرجل لنفسه أمام محبوبته وللدلالة على مدى خضوعه لها . ويقول الفيلسوف والمُنَظِّر الشهير لفن الحب "ابن حزم" - الذي عاش في قرطبة (٩٩٤ - ١٠٦٤) في كتابه «طوق الحمامة» : " من أروع ما يحدث في ا لحب خضوع المحب لمحبوبته ، وعندما توجه المحبوبة إليه اتهامات باطلة ، فإنه يطلب صفحها عن كل ذنب ويعتذر عما بدر منه على الرغم من أنه بريء ، وذلك لمجرد إظهار خضوعه لكلامها وقبوله لمعارضتها . . وخلال ذلك يكون طوال الوقت خافضاً بصره نحو الأرض ، في حين تلقي عليه هي بين الحين والآخر نظرة من طرف خفي ، وفي بعض الأحيان تتركه جامداً على هذا الوضع فترة طويلة ، ثم يفترُّ ثَغْرها آخر الأمر عن ابتسامة خفيفة . وتكون هذه علامة منح الرضى من جديد . وهذا المشهد تعجز كل التفسيرات عن الإحاطة به وتعجز الألسن عن وصفه .

إلا أن الحب العربي هو دائماً أمر بالغ الجدية ، حتى وإن كان يبدو في بعض

الأحيان لعبة مسلية، فإذا كان المؤمن عبداً لله فإن المحب يجعل من نفسه خاضعاً ومنفذاً لأوامر سيدته " لا يهم إن كانت فتاة بسيطة أو حتى تعمل في الخدمة :

لقد جعل مني الحب عبداً لك
ووضعني في مكانة العبد الذي
لا ينشد خلاصاً من عبوديته

وتصل سطوة الحبيبة على قلبه حداً كبيراً تجعله يشعر أن مجرد تفانيه يرفعه إلى مصاف أفضل وأنبل، كما أن خضوعه يجعله جديراً بعطفها ويجعلها تمنحه إما الحياة أو الموت .

عندما تنظرين إلي بحنان
فسوف تبعثين فيَّ رحمتك
بنبض الحياة وتحيين ما لم يمت فيَّ بعد

وهكذا فإن المحبوبة تصل بالنسبة إلى العربي إلى من يملك بين يديه مصير الناس ويحدد بقاءهم من عدمه، كما أن جوهر الإسلام هو[1] الاتكال التام - وهذا أيضاً هو جوهر ذلك الحب المتسامي، وهي فكرة رددها أيضاً المتصوف ابن الفريد الذي عاش في مصر، حين يطرق في شعره كافة الموضوعات الرئيسية في فن الحب العربي وأسلوب التعامل بين الأحبة .

---

(١) من مبادئ الإسلام، التوكل وهذا يقتضي العمل أولا . ولعل المؤلفة لم تقصد ما تقوله . فالاتكال ينهى عنه الإسلام لأنه عجز تام .

فن الحب العربي يصبح فناً رائجاً

إن تلك الفكرة الخاصة بالرجل المحب الذي يطلب في خضوع ودَّ سيدته، التي يتعبد في محراب حبها، كانت تعتبر بالنسبة إلى الغرب في عصر كانت المرأة فيه تشعر بمهانة عميقة بصفتها ابنة حواء الخاطئة وجعل منها زوجة خاضعة لسيطرة زوجها، كانت تلك الفكرة تعتبر بمنزلة صدمة وفي آن واحد معاً شيئًا مريحاً. ولقد سيطرت هذه الفكرة في البداية على مجتمع البروتستانت والبروڤانس بكل قوة إذ. تخلى فيها العرب عام ٩٧٥ عن آخر معاقلهم في "لاجارو٩٠٢ فرنينه" وكان أغنى رجل في البلاد وأكبرهم سلطة بعد الملك، هو الدوق جويلام التاسع من أكويناشان، والكونت فور بوميتير، قد تلقفا تلك الفكرة وحولاها إلى لعبة ذكية تخلب اللب. وقد وصفه أحد المعاصرين بأنه واحد من أكبر رجال البلاط في العالم وواحد من كبار من يمكنهم الإيقاع بالنساء، وفارس شجاع، وهو يحمل سلاحه ولا يجاريه أحد في خطب ود السيدات. إن التروبادور الأول الشهير أصيب بعدوى تلك الفكرة العربية في بلاط والده الذي أحضر معه من الحروب الصليبية الإسبانية مئة مغنية وراقصة عربية أسرن بالقرب من ماباسترو وكذا بعض شذرات من اللغة الإسبانية وما تناولته أفانينه من شعر الحب العربي. بالإضافة إلى ذلك فإن روابط أسرية تربطه مع بيوتات الأمراء الإسبانيين، كذلك فإن لفظة (تروبادور) مشتقه من الكلمة العربية: طرب التي تعني الغناء والعزف وهنا يتضح بالفعل أن السلوك الإنساني خاصة عندما يتعلق بدور الأجناس، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة فإن أي شعب لا يأخذ عن الشعب الآخر شيئاً كأنه يحصل منه على مادة للاستخدام ليس كما لو أنه يقوم بصباغة رداء قديم بلون جديد يتمتع بأسلوب مميز وحركة وموقف

مميزين، ذلك أنه ما كان العربي - سواء أكان رجلاً أم إمرأة - يمر به يعيشه أو على الأقل يشعر به، لا يمكن أن يكون شيئا أصيلاً أبداً بالنسبة إلى من ينتمون إلى أسلوب مختلف في الحياة، كما أنهم لا يقلدونه تماماً . وعندما يغني برنارت دي فينا دورن.

إني لا أطلب منك . . أيتها السيدة النبيلة
سوى أن تقبلي . . أن أقوم بخدمتك
ومهما كلفني الأمر . . فسوف أخدمك كما يؤدي العبد واجبه
ألا ترين أنني أضع نفسي في خدمتك
راضياً سعيداً خاضعاً لك

فإن ذلك الإنشاد من جانب هذا المطرب الذي قد يكون هو نفسه السيد الذي يعمل عنده الزوج - يعتبر مجرد تعبير عن الكياسة وتقديم شيء جذاب للسيدة لكي يحوز إعجابها. ولذا فإن ما يعتبر بالنسبة إلى العربي طبع أصيل في السلوك، يصبح الآن رؤيا شعرية في إطار اللعبة بين الفارس والسيدة - في إطار من روح أو فيرس - وهي لعبة أصبحت مألوفة وطبيعية في المجتمع الفرنسي والروماني. ولأن الموضوع العربي قد أثر على هذه الدوائر البلاطية، خاصة في شكل الإنشاد العربي في الغزل فإن تقليده لم يكن سوى حلية مثيرة في اللعبة الاجتماعية غير الملزمة من أشكال الكياسة العربية - وإن كان ينظر إليها بجدية على طريقته الخاصة. وهكذا فإن لفظي - جالانتري، جالانت- مشتقان من العربية كما أسلفنا القول، ومن الدلائل الثابتة على قواعد لعبة البلاط هذه، ما يؤكده الفارس بقوله :

إنني (أيتها السيدة) بين يديك

على استعداد دائماً لأن أخدمك

ومن بينها أيضاً اشتياقه لأن يكون بجانبها عبداً لها ، وهذه أيضاً مجرد استعارة وحلية شعرية ذكية تقدم إلى السيدة لكي يبدو الفارس في نظرها في أبها مظهره ويحوز إعجابها . وهكذا فإنه عندما ينشر بيرفيدال حسب الأسلوب العربي ويظهر لمحبوبته شعرياً خضوعه التام وغيبة إرادته - أيضاً في شكل تصويري ويمتدح سطوتها التي لا تقارن بالوضع القانوني الفعلي - أيضاً مجازاً - لها بين السيدات ذات الحظوة الكبيرة ، وهو ما يؤكده عن طريق امتداح قسوتها :

لقد وجدت نفسي خاضعاً تماماً لسطوتها

ولذلك فإنها أبداً لا تقول لي كلا

إنني مرتبط بها بشكل لا فكاك منه

إذ يمكنها أن تبيعني أو تهديني

إنه لأحمق من يقول حينذاك إن الخطوة الغريبة تسرني

إن قسوتها تبعث النشوة في أعماقي أكثر من أية نشوة عداها

كذلك فإن الشاعر يتناول فكرة الاتهام الباطل قائلاً :

دون ذنب طلبت الغفران

ودون جريرة طلبت الرحمة

تواضعها الجميل سلب افتخاري أمامها

وإذا لم يهب أحد لمساعدتي في القتال

فسوف يساعدني ركوعي وطلب المغفرة

وعلى الرغم من ذلك يجب أن تظل تلك اللعبة دوماً معلقة فهي التي تجعل التوتر الناتج عن الإثارة لا يتوقف - إذ لا يمكن تحقيق القرب من السيدة ، كما أن الحصول على رضائها صعب . ويظل الرجل دوماً في خدمتها شاكياً قسوتها ، وإذا لم يكن في وسْعه المحافظة على قواعد اللعبة فإن عليه على الأقل أن يحافظ على المظهر . إن ذلك الارتقاء الخيالي بالسيدة يجعل المرء يشعر بالدوار - على الرغم من كافة أشكال الحظر المسيحية - تأخذ شكلاً دينياً أشبه بتأليه المرأة . ووفقاً للنموذج العربي تمارس المرأة "الرحمة" تجاه الفارس ، الذي يتبتل فيها ، وتكون هي "السيدة الرحيمة" حسب مفهوم (جراتياداي)[1] وهكذا تتطور خدمة المرأة إلى شكل من التقديس من قبل التروبادور (شعراء الحب) وبسبب نفورهم الهرطقي من الكنيسة ومبادئها على شاكلة تقديس القديسين المسيحيين . كما أن ماريا لم تتحول إلى "المادونا - العذراء أو "السيدة" أو المحبوبة التي تمنح الرحمة أو تمنعها حسب مزاجها ، إلا في إطار كهنوت الحب المثير ، فتحول الفارس بتقاليد حبه نحوها فأصبح يمتدحها كأجمل النساء " محبوبة السماء " مستخدماً أشكالاً تعبيرية حسية طاغية ليس بينها وبين لغة الحب الدنيوية علاقة كبيرة . نعم لقد بدأت الكنيسة الآن تستعين بكهنوت الحب الجديد لكي تستعيد الكفرة الذين ضلوا في متاهات اللذة الدنيوية . إلا أن تلك الطفرة المارقة بدأت تذبل بشدة حين أخذت أعاصير الحروب الصليبية الألبيجية الدموية التي نشبت عام ١٢٠٩ تهب طوال عشرين عاماً على جنوب فرنسا .

---

(١) تعبير إيطالي يعني الرحمة - الحظوة- الشكر .

ولكن ماذا يحدث أيضاً حين يطأ ذلك المخلوق العربي الساحر في عباءته المحلية الأراضي الألمانية . فهو قد جاء إلى ألمانيا بطريقة غير مباشرة وتكونت عنده نظرته حال أغاني الحب وتقاليد خدمة الحب الألمانية . إن تأثره يكون متنوعاً ومتبايناً؛ فهو ينعشه ويثير خياله ولكنه يشعر أيضاً بغرابته ، أما بالنسبة للألمان فقد حدثت ثورة ، ذلك أن البوح أمام المجتمع بالمشاعر والأحاسيس ذات التأثير العميق والتي كان المرء يفضل كتمانها في صدره ، كان يعتبر أشبه بقعرية النفس . وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرين قد شعروا بخيبة أمل مريرة ورفضوا بشدة أن يساء استخدام الإفصاح عن هذه المشاعر في شكل لعبة بريئة خفيفة خالية من أية لمحة جدية (بالإحساس الجذري الحقيقي ، وتتحول إلى لعبة معروفة صفحاتها سلفاً لا تهدف سوى إلى إثارة المتعة وإحداث تأثير انفعالي للعب بتلك الصرعة الآتية من الغرب وتصويرها بعد أن يتم تهذيبها هناك والخاصة بالمشاعر العاطفية والطاعة والشوق . وهكذا تجد الشاعر الكبير فيليب فون مورونجن يشكو من تلك اللعبة الفنية التي لا يهتم فيها المرء بالمشاعر الصادقة :

يا ويل من يظن أن من المناسب

أن يشكو من شيء لا يعتمل في قرارة نفسه

إن ذلك الخلط بين الظاهر والواقع " منذ أن بدأ المرء يقترف الحب الخاطئ مستخدماً تلك الكلمات الحلوة ، وأن السيدة لا يمكنها أن تعرف من الذي تعنيه المشاعر وهذا استهجنه الشاعر فالترفون ديرفوجل فايدي إنما يظهر شكوكًا كثير من النساء في الكلمات الحلوة ، وهذا ما ينبغي على الشاعر الفارس راينمارفون هاجينا حماية نفسه منه . ما انتقده الشاعر الفارس رانيمار فون هاجينا :

كثيراً ما توجه إلي الانتقادات المرةّ

فهم يقولون إنني أتحدث عنها كثيراً

وإن الحب الذي أكنُّه لها كاذب

وإنني عندما أتحدث عن سيدة الحب

فإنني بذلك لا أقصد بها خيراً

ولذلك فإنه يؤكد تماماً للسيدة بأنه عندما يقول إنه خادم مطيع فإنه يعني ذلك فعلاً :

إنني أقول دائماً وقت ما أريد يتاح لي

أيتها السيدة كوني رحيمة بي

إلا أنها لا تكاد تلقي بالاً إلى ذلك المطلب البسيط

ولكني أريد خدمتها على الرغم من ذلك

خدمة صادقة أعنيها حقاً

حيث إن السيدة الجليلة لا تبدو أنها تفهم معنى خدمته ولا تريد تقبلها . كما أنها لا تعيرها أي اهتمام . ويرتكز إجلال المرأة الجرمانية على الإحترام الذي لا مراء فيه من قبل الرجل الندّ وعلى قوة شخصيتها وأهميتها . فهي لا تمرّغ جبهتها بالتراب أمام عتبة الباب ذليلة صابرة صاغرة ، كما أنها ليست بحاجة لأن يرتفع مقامها من خلال إذلال الرجل لنفسه أو من اللاتي يطربهن تعبير «يجب أن يكون «سيّدك» .

وليس ذلك بالشكل الجديد على الرجال والنساء وقد أحسّوا أنه هو الدور الذي يؤديه جنسهم البشري ، بقدر ما أنفَذَ صبرهم تلك الشخصية الشكلية

للمشاعر والتي أفرغتها اللعبة الاجتماعية من مضمونها، وأساءت استخدامها وأملتها عليهم العادة الجديدة القادمة من البروفانس. ولقد كثرت شكوى الفرسان الذين تربوا في البلاط ، كما يقول هنا رانيمار فون هاجينا :

ستذهب جهودك سدى

إذا خدمت من لا يستحق

إلى متى هذا التردد أيتها السيدة

لقد حاولوا إقناعك بأن البخل في الحب

شيء جميل وهو قول غير صحيح

إن بيتك مليء بالناس وبمشاعر الحب

ولكنك لا تشفقين على أيٍّ من يبذل نفسه فداك

فليس لك قلب يعطف على الناس

إن صدرك هذا مليء بالقسوة

بل إن جوانحك الصغيرة أشبه بالحجر

وهكذا تعلمت القسوة من هذا القلب المتحجر

وجرت العادة في ألمانيا أن يكون للشكوى من قسوة المرأة أنين للكبرياء الجريح وعلى الرغم من المحاولات التربوية التي تهدف إلى تغيير السلوك لم يستطع المرء القضاء على مطلب الالتزام المتكافيء والمتبادل وهو ما عبر عنه ڤالتر فون ديرفوجل ڤايدي معارضاً لتلك التعليمات الغريبة :

عندما لا أستحق تحية ثناء على إنشادي

فإنني أدير ظهري بظهري ووجهي كرجل ذي كرامة

وهذا يعني أنني أهتم بك كما تهتمين بي

أريد أن أمنح ثنائي لسيدات يشكرنني عليه

فما الذي يشرفني أكثر من الفخار؟

إن الحب وحده لا يساوي شيئاً

وإنما يجب أن يكون مشاركة معك

وأن يجوس خلال قلبين

ولا يشاركهما ثالث فيه

وإذا كنت لا تبالين بي

فقوليها بوضوح

حينذاك لا يكون هناك داع للخلاف

ولكن النساء أيضا يشكين مر الشكوى ومردُّ ذلك إلى أنهن قد صدقن تلك الكلمات المعسولة التي تصدر عن الرجال وسرن وراءهم فوق الشوك. أما الشاعر هارتمان فون فإنه قد صرف النظر نهائياً عن خدمة المحبوبة ويحكم على تقاليد الحب قائلاً :

لا أريد تحطيم سفينتكم

يامن تنشدون أغاني الحب

إن ما يصيبكم من أفعالكم

وعلى الرغم من إبداء التحفظات الكثيرة والانتقادات فإن ذلك الوليد الخلاّب لمشاعر الإثارة العربية - الذي يظهر لدينا بصورة مباشرة في الرداء الرومانسي والمشهور لدى دول المتوسط - قد ترك أثراً عميقاً ، كما أثار حماساً واضطراباً شديدين ، وهي آثار تصل إلى عدة مئات من السنين ولم تنمح حتى الآن . ولقد عملت تلك الآثار من ناحية على إعادة صياغة دور الرجل والمرأة وإبرازهما في سجل جديد فيما يتعلق بأحد مجالات الحياة - وهو السلوك الاجتماعي - أعد في شكل الفارس ذي الأريحية والخادم الخاضع والقانع وبشكل " السيدة الفاضلة " التي تكتفي بقبول مدح الرجل لها وسعيه الشكلي لنيل رضاها . وفي الحقيقة إذا كان الأمر يتعلق بالحفاظ على الشكل المجرد وحيث تقف الشهامة عند الباب لاتتعداه كان يتم وصف الرجل بأنه «فارس شكلي " كما صوره ڤالترفون ديرفوجل ڤايدي :

إن البعض يبدون في صورة طيبة أمام الغرباء

وهم مخطئون في ذلك

فمن كان طيباً في القصر سيكون كذلك في البيت

وقد تبدو التربية والحياء أموراً مبهرة

أمام الغرباء لبعض الوقت

ولكن البريق الكاذب سرعان ما يختفي

فإذا أردتم معرفة الحقيقة

انظروا داخل سريرة المرء

ولكن حين تعلم الألمان أن الشهامة لا يُؤخذ بها بشكلها الجدي وأنها لا تعني الحب بأي حال وإنما تعني تلك الأكذوبة الرقيقة الخفيفة الأبدية المسماة الحب. كما وصفها مدنتكو ، وحين أدركوا أن قيودها غير متلائمة ؛ لأن ذلك الحب يخفي دون تحرّج ذلك البعد الداخلي كما أنها تهدف إلى امتلاك ناصية المشاعر والمؤثرات الشخصية حينذاك أخذ الحب مكانه الطبيعي لديهم وظل محتفظاً به حتى اليوم .

ولكن النموذج العربي أحدث تأثيرات أكثر عمقاً ، ذلك أنّ المرء قد بدأ الإفصاح عن ذاته، وتحديد ماهيتها، وبدأ يدرك ما كان يعتمل ، حتى الآن داخل أعماق الشخصية ، وأن يتعرف المرء على أشكال جديدة للاقتراب بين الرجل والمرأة ويحاول أن يجد نفسه فيها ، ويشعر بما تشعر به أو حتى يوجه إليها الاتهام . إنّ كلّ ذلك جعل أشكالاً جديدة تماماً لم تخطر قبلاً على البال بالنسبة إلى طبيعة الألماني تتفاعل مع بعضها ، وهكذا فإن النموذج العربي الخاص بالخضوع والفناء في مخلوق أرفع ، والنظر إلى شخص سام والشعور بحبه ، والذي يطلق كل الطاقات المطهرة والساقية للأعلى ، قد بدأ يأخذ طابعاً خاصاً وعمقاً مميزاً نتيجة للمثالية الأخلاقية الألمانية الجديدة ذات الطابع الخاص .

لقد كان الأمر يبدو كما لو أن التقييم الكبير لشخصية المرأة الجرمانية ، التي طغى عليها بشكل مؤلم الكراهية للمرأة النابعة من الإنجيل ، والرهبانية ، قد وجد منفذاً له في ذلك التقدير الجديد للمرأة . أو كما لو أن الوعي الذي لم تدّمره تماماً وسائل الكنيسة القهرية بأن هناك "شيئاً مقدساً" يطلق عليه لفظ **Tacitus** داخل المرأة ناتجاً عن جذورها العميقة داخل وجودها ، يحاول الهرب في صورة المحب الذي يخدمها بخضوع من خلال حب نظيف روحاني في شكل واضح .

وهكذا تحول الفناء في الحب إلى نوع من التطهير للمحب . . كما تصبح المرأة المحبوبة تجسيداً للقيم الأبدية وموصلة لها وهي التي يسمو الرجل بها إلى أعلى وذلك في إطار الفكرة الأساسية (المبتغاة) التي عبر عنها غوته في ختام رواية فاوست حين قال : " الأنوثة الأبدية تجذبنا إليها " .

جرتشن في الزنزانة وحين يرسم «السيد الرب» في بداية مسرحية فاوست الشعرية طريق فاوست على أنه الطريق إلى " الوضوح " فإن جرتشن في النهاية هي التي تقود الحبيب مرتين إلى « الوضوح » ، وهذا هو المشهد، لقد عادت هيلين لتوها إلى مدينة الموتَى ، وهنا تظهر أمام عيني فاوست من إحدى السحب صورة خلابة ، هي صورة المحبوبة الأولى جرتشن وفي ذلك المنظر يتم التمهيد للفصل الختامي من فاوست :

إن الشكل الجميل يتسامى كجمال الروح

لا يتحلل ، وإنما يرتفع في الأثير

ويأخذ معه أفضل ما في النفس

وفي النهاية : تنقذ الملائكة فاوست وهو يحتضر من مغستو ، ثم يصدر نداءه إلى جرتشن التي تقترب من معبد الآلهة :

تعالي وارتفعي إلى السماء

وإذا أدركك سوف يسير في ركابك

وهكذا يحدث في نهاية المسرحية أن " الأنوثة الأبدية " تجذب من ظلّ طوال عمره يحب جرتشن . وفي الحقيقة فإن جوتة قد خلق في "فاوست" وفي" شكوى مارينبادر شكلاً وسطاً لتبجيل المرأة في التقاليد العربية – الألمانية حيث

يقترب بحب المرأة من المجال الديني، وحيث تمثل المحبوبة الشيء الأبدي غير المحدد، أي الإلهي :

هناك دافع يعتمل في صدورنا النقية

لأن نفنى في شيء سام ونقي ومجهول شاكرين بإرادتنا الحرة

نحلّ اللغز الذي ظل أبداً مجهولاً

نسميه : كن تقياً - إنني أشعر بذلك القرب الروحي

عندما أقف أمامها .

إن اللغة ، والإشارة، والموقف في رمز الإثارة العربية، وفي الحب الذي يدنو إلى التسامي والرقي تجاه المرأة الجديرة بالابتهال، سواء كان ذلك نوعاً من المجاز الاجتماعي غير الملزم أو لخوض تجربة تهز كيان القيم غير السوية في مواجهة المحبوبة صعبة المنال، وسواء كانت استعارة شعرية أصبحت من المكونات الثابتة لقانون الحب السامي، يمكن أن يستخدمها كل محب حتى في العصر الحاضر، فإنها لم تختلف أكان ذلك في أشعار الحب الألمانية أو في العلاقة الخاصة بالصلات بين الجنسين، على الرغم من أنّ أسلوبها لم يكن هو نفسه أسلوبنا في الأساس .

الفصل السابع

نبضات الفن العربية

القافية العربية : " " الصورة المقابلة للحب " ويشترك أسلوب فني عربي في في المصير نفسه ، ونعني قافية الختام ، والذي ينعش في الوقت ذاته أشعار الحب العربية التي أصبحت مألوفة لدينا على الرغم من أنها لم تنشأ من بلادنا .

ومن البديهي أنه مع ذلك التأثير الثقافي الذي طرأ على تقاليد الحب قد تدفقت أيضاً الأشكال الفنية والأساليب التي كان يسير عليها الشعر العربي (من أسبانيا وصقلية) جالبة معها الجرس الموسيقي وشكل البيت وقواعد العروض إلى ألمانيا . إلا أن كل هذا لم يكن شيئاً بالمقارنة بالأهمية البالغة التي كان من شأن القافية أن تحظى بها لدينا تلك القافية التي تتناسب تماماً مع اللغات السامية بفضل قواعد التركيب اللغوي فيها بل وتمثل تحدياً لها حتى قبل العصر الإسلامي وإلى تجميل الشعر العربي الباقي - حسب التعبير العربي - (كحلية من الدرر المتناثرة جمعت في عقد) ، ثم حدث ذلك بشكل خاص في الأندلس العربية التي كانت خلال القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر قد أصبحت بالفعل روضة تزدهر بفن الشعر وحيث كان الفلاح نفسه وراء محراثه بل والطفل الصغير يقرضون الشعر . وأدى ذلك إلى ظهور جيل من الشعراء يصقل شعر القافية ويجعل منه أحجاراً كريمة متلألئة . ومن ثم فقد عمد شعراء الأندلس أنفسهم - مثل الزايقل ، وجعفر بن عثمان إلى تسمية احتفاء وإيجاد القافية المزدوجة بالصورة الذاتية للمحبوبة التي هي مثل العذراء التي تحن إلى مثيلاتها . " كما أسموها بالجمال المشع الذي يسرع لكي يعانق الجمال المشابه " .

ويجدر بنا الاشارة، إلى أنه بعد تسلّل شعر القافية في بداية القرن العاشر، شيئاً فشيئاً، من صلوات الجاليات اليهودية عبر الأشعار المسيحية الأولى للكنيسة الرومانية الشرقية إلى الشعر اللاتيني في الكنيسة الرومانية الغربية قد أدى إلى فرص الوسيلة الفنية العربية المتمثلة في القافية نفسها فجأة في القرن الثاني عشر على مستوى كبير نتيجة التأثير العربي القوي. وهنا حدث شيء يثير الدهشة: " فقد كانت القافية توافق بلا حدود هوى الألمان إلى درجة أنها حلّت دون قيد أو شرط وبلا منازع محلّ القافية في بداية البيت، التي كانت سائدة في العصرين الجرماني والأنتيكي مما نتج عنه إلى انتهاء عصر أشكال البيت التى تقاس حسب الطول والقصر. ولقد تعودنا على تلك القافية حيث كانت تبدو مناسبة، وطبيعية بالنسبة إلى إحساسنا بالعلاقات المتناسقة، تعودنا عليها إلى حد أن القصائد الشعرية بقافية البداية أو بحر الهكامتير تبدو بالنسبة إلينا، نحن المعاصرين، شيئاً غريباً ولا تتفق مع ميولنا مطلقاً، وأنه ليس في مقدورنا أن نتصور أغانينا الشعبية، ولا أشعار جوته، وموريكة، وريلكة بدون تلك الحلى العربية التي تعانق بعضها بعضاً، أو بدون هذه السلسلة التي تنظم ما لا يمكن ربطه معاً ولن تبدأ جاذبيتها التي ترتكز على التناظر، والعذوبة ختفي إلا في أيامنا التي تتجه فيها الميول إلى كل ما يخالف التنظيم والقواعد.

ولم تقتصر سيطرة مواضيع الحب، والفروسية العربية على الشعر وحده ولكنها امتدت لتشمل أيضاً الشعر النثري. لا بل إنّها تمكنت في المواضيع القديمة مثل أشعار النيبلونجيليون. وأدت قوة تأثيرها إلى جعل مناخ الشعر البطولي الذي يطبع تلك الأشعار بالجفاف والبرودة يبدو أكثر خفة ويتسم بالألوان المحببة فيها معنى وسموّ أخف حيث أصبح وجوده متسماً بالألوان الجذابة ذات المعنى وذات

السمو . وبدأت روح جديدة تطوف بشكل خاص خلال الجزء الأول والذي لم يكتف بتصوير الأشكال من الظاهر بشكل جميل وتزويده بالفخامة الشرقية التي تتسم بالمغالاة الشديدة، إنما لامست الجوهر أيضاً. وفي ظل ذلك المقياس الجديد لأبهّة البلاط تغيرت أيضاً مقاييس الناس كلية؛ فقد تحولت "برنهليد" [١] المزهوة الممتلئة فخراً إلى عذراء قوية الشكيمة، وأصبحت "امرأة شيطانية" لا تتمثل عظمتها سوى في قوتها الجسدية الواضحة، وتستطيع قهر الرجل بشجاعتها من خلال المنازلة، كما تحولت جودرون [٢] الملتهبة العواطف إلى امرأة صغيرة تتسم بالسذاجة والطفولة . كما تحولت بطلة الحب كريمهلد [٣] إلى كيمناتة، وهي التي يتصارع الفرسان كل لحظة من أجل أن يخطبوا ودّها، وهم فرسان لا هم لهم سوى ارتداء الثياب العربية الغالية الفخمة أمام السيدات .

المترجم يبوح بأسرار العالم

وحتى بالنسبة إلى أشعار الحكمة نجد أن هناك معبراً صغيراً عربياً يؤدي إليها نجده في أنشودة "تراوجموند" ، وهي أنشودة ألغاز تستنطق عن طريق السؤال والجواب للطبيعة وأحداثها . وهذا موضوع نادراً ما كان يُطرق . وتتحدث عن شاعر مجهول يعرض وبالحاح على أحد عابري السبيل ضيافته، ويكرر عليه نفس العبارة .

قل لي فحسب ياسيد ترادجيموند

يامن تعرف اثنين وسبعين بلداً

فكان يسأله بعد ذلك عن الشمس والرياح، والشجر، والغراب، وشجيرات

(١) شخصية أسطورية .

(٢) شخصية أسطورية .

(٣) شخصية أسطورية .

التوت، والبجع والخفاش. وكان حل اللغز يقدم إليه في صورة إجابة مكررة، بَيْدَ أنّ ذلك الاسم القديم ذا الجرس الألماني "ترجيموند" ليس في الحقيقة ألمانيا إذ إنه يرجع إلى أصل سامٍ قديم يسمى بالعربية "تارجومان» وهو مرادف "للمترجم" الذي يعد خبيراً باللغات، والبلدان الأجنبية، والذي يستطيع وحده إجراء الاتصالات التجارية، والدبلوماسية مع الغرباء، والذي يمتلك قدراً من الحكمة وبعد النظر أكثر من كل الآخرين. وبالنسبة إلى الفرسان الصليبيين الذين أقاموا في الشرق فإن كلمة "تارجومان" كانت تعتبر من وسائل الاتصال الدائمة مع سادة البلاد العرب. وهكذا عادوا بتلك الكلمة معهم إلى بلادهم في شكل مسميات عربية عديدة، مثل "دارجومان" كما نعرفها حتى اليوم "ترتوتسلمان" و "تارجيموند" اللتين صبغتا بالألمانية وأصبحتا تسميان "تراوجيموند".

وفي الحقيقة نجد أن أشعار الألغاز كما جاءت فيما أوردناه تمثل تقليداً قديماً بالفعل في المنطقة الجرمانية، ذلك أن أودين الذي خبر العالم نتيجة تجواله وأصبح متميزاً في علومه وأسراره قد اعتاد أن يجلس إلى المدفأة مع الناس دون أن يفصح عن هويته ويجرب قدرتهم على حل الألغاز أو يعلمهم أو يتراهن معهم حول المعلومات، وكان أحياناً يتسمى بأسماء مثل جرغيير وجانجارد، ومثل أشعار الأغاز هذه التي ترجع بعضاً منها إلى عصر تجول القبائل القديمة تظهر شيئاً يدعو إلى الدهشة وهو أن هذه الألغاز - كما هو الحال في ترادجيوند تحيطها صيغ مكررة من الأسئلة والإجابات إلا أنها تغوص في العمق، فهي تتناول جوهر العالم ونشأته ونشأة الإنسان، وأسرار الكون وأبعد الأسرار التي وضعها الله شكل استفسارات وإجابات، الله الذي خلق الأرض - حيث صور فيما بعد في القرن الثالث عشر تحت الاسم العربي لغة الإنسان وهذا يعد بدوره لقاءً عربياً - ألمانياً.

ولكن الأثر العربي في الشعر الألماني المعاصر أكثر وضوحاً ، وعلى سبيل المثال فقد تحولت موضوعات كاملة للروايات العربية والفارسية وبخاصة من " ألف ليلة وليلة " وعبر الصياغات الفرنسية إلى موضوعات ألمانية في : الملك روتر " و " الدوق أرنست " و " أوريندل " و " راودليب " وفي أشعار أسطورة هايزيش ، وسالمان موردیف " وغيرها . . .

كذلك فإن أشعار الفروسية التي تلقى في البلاط كانت مجالاً مناسباً لتلك الموضوعات : مثل " هايزيس المسكين " ، " تريستان وألزولدة " ، " وأبدولدا فايسلاند " ، " وبارتسيفال " ، " وتيبتوريل " و «فلورا وبلانشيفلور " . بل إن كافة الأشعار أيضا تفيض بالموسيقى والأماكن العربية ، التي تدور فيها الأحداث والأزياء العربية في الملابس وفن البناء في المسكن وعادات المأكل . كما تمور بالشخصيات العربية ، والفتيات العربيات ، والفرسان والأبطال العرب ، الذين يمثلون نماذج للفضائل المناضلة وسلوك البلاط ، ونماذج الأخلاق العالية بالنسبة إلى الفرسان المسيحيين ، باستثناء الأشعار التي ألفها رجال الدين المسيحي . ولقد قابلنا بالفعل بعضاً من تلك الشخصيات لدى لوفنرم فون إيشنباخ ، وفابرنيز ، ورينيشارت وأرابيلا التي سميت بعد التعميد باسم جيبورج زوجة فلهلهم وكانت تدعو المسيحيين للحفاظ على " الوثنيين " لأن الجميع من أصل واحد . وهذا هو اقتناع ڤولفرام الشديد ، إذ قال منادياً بحماس :

إنها لخطيئة أن يذبح الإنسان

من لم يتلق التعميد ، كما تذبح الأغنام

إنني أعني هنا الخطيئة الكبرى ذاتها

لأن الكل مخلوقات لله

كل الناس الذين يتحدثون اللغات الاثنين والسبعين .

التي خلقها الله

وبتلك الكلمات المليئة حماساً ، كان ڤولفرام يوجه النقد للحركة الصليبية عموماً ولعدم التسامح والتعالي الذي اتسمت به تلك الحرب العقدية . وعندما يشير إلى ذلك فإنه يؤكد وبإصرار على تساوي الناس في الخلق . ولا يقف عند هذا الحد ، بل نراه يتنكر لحركة كانت تهيمن على العصر ، ونعني بها تلك الموجة التي تفشت في البلاط والتي سخرَ منها في عمله المسمى «فيلهالم» وكما يثبت الغلمان «أصحاب الشعور الملساء» الذين أشبعهم سخريةً وتهكماً لبقائهم بعيدين عن الفروسية .

وهكذا كانت معارضته المزدوجة مثالا تقليديًا للاحتجاج على الطريقة الألمانية . ولكنه استخدم في ذلك رمزًا عربيًا ، ذلك هو الجرال (فأس مقدمة - حجر مقدس) .

الجرال .. رمز عربي

أراد فولفرام عن طريق روايته . . بارتسيفال أن يقتحم المهمة الشاقة المتمثلة في إعطاء مجتمع البلاط الخاوي روحياً والذي كان يستهلك نفسه في المظهر والشكل الخارجي اللذين يطغيان على كل شيء ، مضموناً عميقاً ذا معنى واضح ، كما أراد أن يعطي مبرراً جديداً للعلاقة التي اهتزت بين الله والإنسان ، وقد فعل فولفرام ذلك بطريقته الخاصة ، ذلك أن بارتسيفال الذي أصبح أكثر وعياً وإدراكاً نتيجة للأخوة التي بدلته شأناً آخر والتي بدت له بصورة أخوية من أخيه

غير الشقيق "الوثني" الذي لم يكن يعرفه (فايرفيتس) انطلاقاً من قيم الفروسية أدى إلى أن يدرك بارتسيفال طبيعة ذلك . وإن الإنسان يستطيع أن يثبت أهليته كإنسان ويحقق وجوده في هذا العالم عن طريق فروسية البلاط لدى دائرة الملك زرنوس المستديرة، وليس عن طريق طاعة محبوبته وحدها. إنسانيته تتحقق نتيجة لأخوة الفروسية، كما يسميها والتي ترفع شعار خدمة الإنسان. وبناء على ذلك فإن قواعد سلوك البلاط، التي وضعها جورميمانس، لا تصبح كافية لاقتناء الحجر المقدس (الجرال). كذلك لا يحقق الإنسان المكانة الرفيعة التي أرادها له الله عن طريق الموت بعد تحقيق الارتقاء الذاتي نتيجة للشهرة أو المكافأة التي تمنحها له محبوبته، وإنما عن طريق تحمله عن وعي تام لمسؤولية النظام، وتقديم يد المساعدة، وهي الأمور التي يجعل منها البؤس والشقاء في العالم ضرورة قصوى، وأخيراً عن طريق مسؤولية الإنسان عن أخيه الإنسان ؛ كذلك فلم يكن السعي نحو الارتقاء بالذات، وتحقيق الشهرة، أو كسب ثناء المحبوبة، هو الذي يمكنه من تحقيق المكانة التي أرادها الله له، وإنما يأتي ذلك من الاستعداد الواعي لتحقيق النظام، وتقديم العون وهو ما تدعو إليه الظروف السيئة في العالم والحاجة إلى ذلك، كما يتحقق ذلك عن طريق تحمل المسؤولية التي يلتزم بها الإنسان تجاه أخيه الإنسان.

وبذلك يكون قد خدم الله عندما يخدم الإنسان . ويجسد فولفرام هذه المسؤولية في رمز (الجرال) الذي تخدمه تلك الفروسية. ولكن تلك الخدمة ليست ذات طبيعة رهبانية ولكنها بمثابة خدمات فعالة ذات تأثير تربوي نضالي على هذا العالم. وبنفس القدر لا يوصف هؤلاء الفرسان بأنهم رهبان، كما أن المطالبة بالتخلي عن تقاليد الحب في البلاط لا تعني العداء للجسد، ولعن

الإثارة. كما أن الحب الناشئ عن الزواج يمثل قيمة أخلاقية رفيعة، كما أنه حق طبيعي لملك الجرال وللفرسان الذين يسعون في الأرض بتكليف منه. وبالإضافة إلى ذلك كان رفض القتال كمغامرة لا يستبعد مطلقاً القتال في ظل قيم الفروسية، خدمةً للمجتمع والبلاد.

وبهذا المفهوم فإن الجرال لا يعتبر بالنسبة إلى فولفرام، كما هو الحال في الأصل الفرنسي لكريتيه دي تروابي - إناء مقدساً، أو كأساً يحتوى قطرات دم المسيح. كذلك فإن سرية الجرال ليست شبيهة بالسر المقدس الكنسي لصلاة الشكر الذي يقدم حقيقة وصدقاً جسد ودم وروح وألوهية المسيح كضحية حقيقية ذلك أن الجرال وسريته بالنسبة إلى فولفرام حالة مشابهة تقف معه على قدم المساواة ولكنها في أعماقها ليست مسيحية، وإنما شيء مقدس خاص خلقه فولفرام عن قصد ليقف إلى جانب الكنيسة. وهكذا أصبح الجرال بالنسبة إلى فولفرام حجراً مقدساً يأتي بالمعجزات لأنه نزل من السماء. وأياً كان معنى تلك الكلمة الذي لم يتضح حتى اليوم - والذي يقال أيضاً إن لها جذوراً عربية، فليس هناك شك في أمر واحد: ذلك أنه تتركز في هذا الحجر أفكار قديمة مستمرة من تقديس العرب القديم للأحجار حيث تعتبر بعض الأحجار الخاصة - مثل النيازك - ظواهر مقدسة تنم عن الوجود الإلهي، ويذكرنا بالحجر الأسود في الكعبة، المكان المقدس لدى المسلمين، والذي يقال إنه سقط على عهد النبي إبراهيم من السماء كنيزك[1]. وكان ذلك الحجر قد وضع في مكة قبل وقت طويل من مولد محمد (ﷺ) ليكون الحجر المقدس لكافة القبائل. وبعد أن تعرضت الكعبة

---

(١) ماورد في هذه الفقرة يمثل المفهوم الخاطئ لدى الغرب عن الحجر الأسود، فالحجر الأسود له مكانته عند المسلمين اقتداء برسول الله ﷺ عندما قبله، ولكننا لا نقدسه بدليل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».

لحريق كبير وعند إعادة بنائها قام النبي(ﷺ) بنفسه بوضعه في مكانه الحالي عند آخر الأركان حيث يقوم المسلمون من كافة أنحاء العالم بلمسه والطواف حوله(١). إلا أن ذلك الحجر المقدس الذي تكتنفة الأسرار الإلهية قد فقد بالنسبة إلى الكيميائيين العرب وكما فسرهبعض العلماء بدورهم على أنه حجر قادم من الجنة ليكون مجرد «حجر الحكماء" الذي من شأنه أن يمنح الشباب الدائم والصحة والعمر المديد.

أما بالنسبة إلى فولفرام فإنه يرى وحدة متجانسة في التقاليد، حيث يمثل الحجر الأسود الغذاء الروحي الذي يبث القوة في نفس من ينظر إليه، الغذاء الذي يمد حياة الفرسان الذين يقيمون معاً في حصن يقع وسط الغابات المتوحشة فوق جبل مونتيالفج بشمال إسبانيا، وينشد فولفرام:

يندفع تيار من الخير من باطن الحجر المقدس

يمثل سيلاً عارماً من الخير الذي يعم العالم

... كما أن من ينظر إلى ذلك الحجر

لا يشعر أبداً بالألم

ولا يلحقه الموت في القريب

ومنذ ذلك اليوم لا يناله العجز

في لونه أو ملامحه أبداً

إن الكل يزدهر

(١) الطواف حول الكعبة وليس حول الحجر الأسود الموجود في أحد أركان الكعبة ومن عنده يبدأ كل شوط من أشواط الطواف وينتهي عنده.

سواء الرجل أو الفتاة

وكما يحدث في أحلى أوقات العمر

يمكنه أن يرنو إليه عبر مائتي عام

دون أن يناله سوى أن يجلل الشيب خصلات شعره .

وهكذا يمنح هذا الحجر الإنسان القوة التي تحفظ عليه حيويته ولونه وشبابه رغم مرور الأيام، هذا الحجر الذي اسمه الجرال .

كذلك يحيط فولفرام ظهور الجرال قبل باتسيفال بمجموعة من الرموز والموضوعات والطقوس العربية . أما المعبد الذي يوجد فيه الجرال فتغطيه قبة غالية ثمينة (وهي كلمة عربية)[1] عبارة عن ردهة تبرق بالأحجار الكريمة الشرقية والروعة الشرقية . وتقوم الملكة حسب التقاليد العربية ، بإرسال معطف (من الحرير العربي النفيس) إلى بارتسيفال هدية ضيافة . وحين دخلت بالجرال كانت ترتدي أجمل الثياب العربية ، وكانت تتقدمها العذارى ، يحملن آنية البلسم المتوهجة والبخور ، والراتنج المعطر من أشجار البلسم التي تنمو في سوريا ، كذلك تشتمل المأكولات التي يقدمها الجرال بوفرة ، على الفلفل ، والتوابل العربية ، والمشروبات العربية التي تسمى بالشراب[2] .

والأمر الذي يحير كل الآراء حول المصدر العربي لحجر الجرال لدى فولفرام هو أنه في نفس الوقت ، الذي كتب فيه فولفرام تقريره عن الجرال ، فإنه يستند إلى مصدر عربي ذلك أن "كيوت" من مقاطعة "البروفانس" قد وجد في توليدو (طليطة) التي تعتبر أكبر مراكز ترجمة الكتب العربية ، كتابة وثنية كتبها الوثني

---

(١) تسمى بالألمانية – كوبيل – .
(٢) تسمى بالألمانية – سيروبيل – .

(فلنجانس) مستمدة من الكلمة العربية «فلك» فلك ثاني ، وتعني العالم الآخر (المجال الآخر) ومن الواضح أنه كتاب عن النجوم، والأفلاك لعالم الفلك والرياضي العربي الشهير ثابت بن قرة الذي يذكره فولفرام في موضع آخر مع الفليسوف العربي الكندي من البصرة .

إن الجرال يمثل بالنسبة إلى فولفرام موقفاً من الحياة له ما يوازيه بشكل واضح في العالم العربي ، كما سنرى لاحقاً .

ذلك أنه بالنسبة إلى الفروسية التي اكتسبت إحساساً جديداً بالحياة وفتحت لنفسها آفاقاً جديدة ووعياً جديداً وثقة جديدة ، كان الجرال مشكلة يبدو أنه لا حل لها بل لقد أصبحت ببساطة مسألة حياة كاملة . كيف يمكن رأب الصدع الذي حدث منذ باولوس وأوجستينيوس وبكل حدة منذ الإصلاح الكلاوسينزر الذي طرأ على الذات كلها ، والعالم ومن ثم الإنسان نفسه . وكيف يمكن تجاوز الانفصام بين الله والعالم ، وخدمة الله وخدمة العالم وحب الله وحب الدنيا وبين نقاء الروح وبين الكرامة وتوحيدها في قلب واحد . إن ذلك يحدث عند إدراك الإنسان الذي يقال له : " إن الصداقة مع الدنيا تعني عداوة الله ، ومن يريد أن يصبح صديقاً للدنيا سيصبح عدواً لله " .

وهكذا فإن الأمر الذي كان يعني شيئاً متميزاً بالنسبة إلى الجرماني ، قد أصبح أهم الأمور بالنسبة إلى الفروسية ؛ أو كما يقول فالتر فون ديرفوجل ڤايدي : كيف يمكن أن يتحد داخل القلب الواحد الكرامة والطيبة على الأرض / والاتجاه إلى الله وكيف يمكن للمرء - حسبما يقول فرايدانك : الإبقاء على حب الله والدنيا معاً أو وفقاً لما جاء في تأريخ القياصرة : الحرص على نقاء الروح وفي نفس الوقت التمتع بالشرف الدنيوي . وقد استسلم فالتر أمام اليأس من علاج ذلك الانفصام ؛ ذلك أنه إذا لم يلق المرء بالاً إلى العالم فإنه يبدو من المستحيل أن يبقى حياً ، إلا أن فولفرام استطاع مواجهة ذلك الانفصام وحده في بارتسيفال ، أي ملك الجرال ، ويقول في ملخص جوهر شعر الجرال :

إنه من تتوج حياته

بحيث لا يتنصل من الله

بسبب أدران الجسد التي تعلق بالروح

و من يستطيع مواجهة الحياة بكرامة

حينذاك سيكون عمله نافعاً

وكان الجرال بالنسبة إليه هو المفهوم الضمني للاتحاد بينه، وبين العالم، والله استناداً إلى وحدة الجوهر(١) التي تشكلت من جديد والتي يؤمن الناس بها منذ الأزل، وبذلك فإنه أعطى الإنسان الفارس كرامته الخاصة بعيداً عما تحاول الكنيسة إقناعه بخطيئته وقدرتها على التوسط بينه وبين الله.

وبذلك لا يقف فولفرام على تلك القمة المتفردة لأخلاقيات الفرسان والمرتكزة مع الأخلاقيات الدينية. ذلك أن هناك فارساً آخر معاصراً لفولفرام فون آيشنباخ قد وصف "الكرامة" على أنها أعلى تعبير عن الذات و "كأساس" للإنسان الفارس؛ ذلك هو فريدريك الثاني فون هوهشتاوفن. كذلك كانت هناك بالنسبة إلى القيصر صلة دينية مع تلك الكرامة والعزة الفرسانية بعيداً عن المفهوم المسيحي - الكنسي، وقريباً أو بمفهوم بيلاجوسي خصم أوجستنيوس، وبمفهوم بيكتوس أويوجينيا والمعلم الفارس إيكهارت. وبالنسبة إلى فريدريك فإن تلك الكرامة ترتكز على أن "الفارس متصل بالحدث الإلهي". وكما هو الحال بالنسبة إلى فولفرام، فإن الكرامة بالنسبة إلى فريدرك الثاني - كما هو الحال بالنسبة إلى الملك البروس آنذاك الذي كان يحمل نفس الاسم - لا تتمثل في النجاح والمجد

---

(١) هذه فكرة فلسفية تقوم على نظرية باطلة هي وحدة الوجود كله، الإنسان والعالم والله. وهذه باطلة عندنا نحن المسلمين.

فحسب بل في خدمة الآخرين أو العدالة والدولة والمملكة، إنّها الكرامة - البعيدة عن توجيه الكنيسة - وهي إذن البوصلة الداخلية لأسلوب خاص في الوجود وفي الوقت نفسه تمثل "التزاماً وشرفاً" للعمل الفرساني.

لقد كان لأحد الشعراء الألمان وأحد القياصرة قصب السبق في التوصل إلى وحدة التفكير انطلاقاً من ضرورتها الجوهرية والنظر إليها شيئاً واحداً، ذلك أن الازدواجية في المذهب الكنسي قد عملت على تقسيم الحقيقة كلها إلى سماء وأرض، كهنوتية ودنيوية، نقاء الروح ودنس الجسد، كل ذلك كان بعيداً عن العالم الإسلامي إلى حد بعيد. وعلى الرغم من أن المسيحية والإسلام من الديانات التي جاءت نتيجة للوحي وعلى الرغم من أنهما تستندان إلى تقاليد مشتركة، إلا أنهما تختلفان عن بعضهما بشكل أساسي في تركيباتهما الخاصة بالإدراك الذاتي، ولذلك فإن تنافي التناقضات بمفهومها المسيحي مثل المقدس والأرض لم تكن لتصبح مشكلة على الإطلاق بالنسبة إلى الإسلام الذي ظل بمنأى عن التزييف؛ ذلك أنه بطبيعته الجوهرية يوحد بين القيادة الدينية والرسمية في شخص الخليفة أو السلطان. كما أن كتابه المقدس، وهو القرآن، يحل مكان القانون الديني والمدني وينظم الحياة الدينية واليومية، وهذا يعني أن الإسلام يتخلل دينياً الحياة كلها. ولأن المسلم لا يفصل الروح عن الجسد ولأن الله يُعد بالنسبة إليه موجوداً في كل مكان فإنه من الطبيعي أن يوحد بين البطولة في الحرب والتقوى. كما تمثل العقيدة القتالية للفرسان العرب - مثلما يفعل كبار رجال الدين بحس مرهف للغاية. ولهذا السبب فإن المسلم أقل تعرضاً على الدوام لعوامل التشويش المادية، فما بالك بالطرق الملتوية المتطرفة المعارضة للروح بالصورة التي جعلت الغرب المسيحي ينتقل بين الشيء ونقيضه.

لم تكن نبضات العالم العربي قاصرة على الشعر الكلاسيكي في العصر الوسيط ، الذي ازدهر فيه الثراء والعمق في ظل المدّ القادم من "اشقابيا" أو تحت حكم قياصرة الشتاوفن نتيجة للتحمس للشرق ، وأشعار الحب والرثاء ، فلقد تدفقت موضوعات قصصية شرقية في مجموعة تمثل مفاجأة للأدب الألماني خلال العصر الوسيط كله وحتى العصر الحديث ، وسواء جاءت أساساً من الهند أو فارس ، أو من الأدب العربي نفسه فإن الفن القصصي العربي كان دائماً تقريباً هو المصدر المباشر الذي يستقي منه الغرب . وهكذا نجد آثاره – بوفرة مثيرة للدهشة– في العديد من الأساطير الألمانية وخاصة تلك التي وضعها الأخوان جريم ، مثل أسطورة «الجبل الذهبي» و "مياه الحياة" ، "جبل سميلي" و "الدكتور الذي يعرف كلَّ شيء " و "الفلاح الحالم" ، و "الملك في الحمام" وغيرها . كما توجد تلك البصمات أيضاً في أساطير فيلاند وتيك ، وأندرسن وهاوف . ومما يثير الدهشة بشكل أكبر هو أن تُعزى أساطير القديسين المسيحيين المستقاة من موضوعات شرقية بحتة إلى حياة أولئك القديسيين مثلما نرى في أساطير كريستفروس ، هربيرقوس واستكيوس وسيلفستر ، وكيبريانوس ، وأجستنوس وجوزفات وفي أسطورة " الناجون السبعة» .

وإذا كان الشعراء من أمثال دانتي ، وشكسبير وميزبيترارك ، وبوكاتشيو يستلهمون في أشعارهم الراقية أفكاراً عربية ، أو عندما يقوم ديغو في روايته روبنسون كروزو بالسير على النهج نفسه أيضاً فإنه في وسعنا أن نتتبع تلك النماذج التي جاء بها هؤلاء حتى مصادرها الرئيسية . كما أننا نفاجأ من جديد عندما نجد أن تلك الشخصيات العربية تمارس تأثيرها على الشعر الشعبي ، أو

طرائف هانزساكس، أو قصة جريملس هاوزن" جوزيف الخجول"، إلا أن كلا من جريغيوس، وهاجيدورن وهالر ولانجباين وجليرت ولكينجرو وجريلبارتزور ونوفاليس جميعهم يستخدمون موضوعات شرقية. كذلك فإن ليسنج يصور في مسرحية "ناثان الحكيم" صلاح الدين أنموذجاً للحكمة والإنسانية. كذلك يمكننا أن نجد إيقاع الموسيقات العربية الشهيرة في شعر الملاحم لشيلر، خاصة في "الممر إلى المطرقة الحديدية" و "الضمان" وفي رواية أوهلاند: «خط إيدمنهال" و "مقالب الشقابن" وفي رواية كاميسوس "عبدالله" ورواية أيشندورف " قبر هرقل".

ولقد كان طوفان الترجمات من العربية والفارسية الذي بدأ في القرن الثامن عشر، بشكل خاص قد فتح عالم الأفكار الشرقية بواسطة البارون فون هامر، بورغشتال سبباً في إثارة وجذب اهتمام عالم الفكر في الغرب، وفي هذا الخصوص يقول هامن: "كيف يمكننا أن نعيد بعث لغة الطبيعة التي اندثرت إلى الحياة إن ذلك يمكن أن يحدث عن طريق رحلات الحج إلى بلاد العرب السعيدة وعن طريق الحملات الصليبية إلى دول الشرق".

أما الرومانسيون فإنهم توقعوا من الهند وفارس وبلاد العرب نهضة شعرية كاملة، ولقد بدأت تلك النهضة عن طريق هردر وبشكل خاص عن طريق شليجل؛ هنا بدأ تيار جديد، ذو طابع شرقي، يطغى على الشعر إلى درجة أن ذلك الطابع بدأ يفرض أشكالاً لبيت القصيدة العربية الجديدة مثل المقامات، والرباعي والغزل. كذلك تولى ريكرت ترجمة الأشعار العربية والفارسية وأنجز أول عملية نقل شعرية للقرآن حتى ذلك الحين، وقد تلاه كلاً من بلامين، وبرويتناندوشاك وجايبل وبود ينستدت رهابنت وغيرهم.

ولكن تلك الحركة الهادفةما كانت لتصبح بمثل هذه القوة ، لو لم يكن "جوته" قد تناول الشرق في أفكاره وأشعاره وسعى إلى صهر العناصر الشرقية والغربية في بوتقة واحدة وكان "جوته" قد اهتم منذ فجر شبابه بالشرق .

وخلال الفترة التي قضاها في شتراسبورغ وضع خطة الدراما المحمدية والتي اقتصرت في النهاية على بعض الشذرات المحدودة من تلك السيرة . ولقد كان "محمد" (ﷺ) يعتبر بالنسبة إليه ذلك الزعيم الديني الذي أراد أن يقود شعبه من عبادة الآلهة والأصنام الدنيوية إلى الألوهية اللانهائية التي تنفذ إلى كل الكينونات وكل الوجود. كان يشعر في أعماقه بالقوة على دفع الألوهية الربانّيه اللامتناهية إلى أعماق روحه لكي يتوحد معها والتي تفصح له عن نفسها في كافة الكائنات وتربطه مع الكل في وحدة واحدة. وعندما تتساءل حليمة ، أمه (ﷺ) من الرضاعة: "هل رأيت الله ؟ ، يجيب محمد (ﷺ) في بعض أجزاء رواية جوته : ألا ترينه أنت؟ عند كل نبع هادئ ، وأسفل كل شجرة وارفة يقابلني بدفء مشاعره[1] ، كيف يمكنني أن أوفيه حقه من الشكر ، لقد شق صدري وأزال الغلالة الصلدة من قلبي كي أحسَّ بقربه» .

- هل لربك رفاق ؟

- لو كان له رفاق فكيف يكون إلهاً ؟ !

- أين مسكنه ؟

- في كل مكان .

- هذا يعني أنه لا سكن له ، هل لديه أيد يستطيع أن تحيط بكل ما هو ناء؟

---

(١) هذا وصف لا يليق بالذات الإلهية .

- بل أقوى وأشد تأثيراً من ذلك . . فهو محيطٌ بكل ما تدركه الأبصار ومالا تدركه الأبصار كما وسع علمه كل ما في هذا العالم كله! وإذا لم يكن هذا يحدث بصورة كلّية إلا أنّ ذلك موجود في كل جزء من الكون .

وخلال دراسته يلتقي جوته مع ترجمة الشعراء الفارسيين حافظ والفردوسي وسعدي وشعراء الجاهلية العرب الذين يلهمونه ديوانه "الشرقي الغربي" وفي هذا الشأن يقول : " كان عليّ أن أتصرف بشكل إيجابي إزاءها - يقصد الترجمات - لأنه من دون ذلك لم يكن في وسعي الصمود أمام تلك الظاهرة القوية، ولقد ظهر إلى الوجود كل ما كنت أحتفظ به داخلي أو أثار مافي داخل نفسي من مادة أو معنى

كذلك فإن الشخصية الدينية لمحمد (ﷺ) قد أخذت تجتذب جوته باستمرار وتستولي عليه وذلك لأنها وجدت صدى قوياً في تجربته الدينية الأساسية ، ويمكننا أن نحس باعترافه الذاتي من خلال كتابه «الديوان»

هكذا يجب أن نرى الحق

تماماً كما فعل محمد (ﷺ)

فعندما نشر معنى الوحدانية

استطاع غزو العالم أجمع .

إيقاعات السلم الموسيقي الغربي

نموذج يحتذى

ينبغي علينا أن لا ننسى أن شعر الحب الذي كتبه فالترفون دير فوجل ڤايدي أو فولفرام في "بارتسيفال" و " تيتوريل" مستلهماً الشعر العربي ، لم يكن يرتل ولكنه كان يُغنى . وهكذا أصبحت الدروب الشعرية الآتية من الأندلس ذات الألحان والإيقاعات حيث لم تكن الموسيقى مجرد "غذاء" ولكن أيضاً "دواء" عبر البروفانس وفرنسا إلى ألمانيا بمنزلة دروب تعبر عليها الموسيقي أيضاً .

بلى ، ألم يكن في وسع الشعب الذي أعطى الغناء مثل تلك المكانة العالية التي لم يعطها له شعب آخر في ذلك الزمان أن يفيض من ثرائه المتدفق على الجيران الأقل خبرة بالمغنى ؟ لقد كان الفرسان العرب قبل الإسلام بعدة قرون ينشدون قصائد الحب والمديح والشكوى حتى إن فارس وبيزنطة أخذتا في تقليدهم ، نعم . . فلقد كانت لدى العرب طبقة المنشدين الذين كانوا ينشدون القصائد ذات الأشكال الفنية في شعر الغزل والموسيقى الشعرية المتقدمة للغاية .

كذلك فإن غناءهم المنفرد المقسم إلى أنغام حيث كانت الآلة المصاحبة تتبع الصوت وتعطيه النغمة المطلوبة لم يكن يعرف شيئاً عن النغمة الفردية الغريبة على أسماعنا والتي كان المنغوليون أول من أدخلها كما أن نظم البيتاجوريا المعروفة لنا - والتي ترجع إلى أصل سامٍ - اكتسبت جمال تلك النغمات الموسيقية .

ولقد أصبحت مكة أول مكان يتعهد فن الغناء بالرعاية . وخلال العصر العباسي أصبحت البصرة تقف معها جنباً إلى جنب ، وفقدت إشبلية في الغرب مكانتها ، وقد جاءت من هناك أشهر المغنيات اللاتي كن تؤدين أيضاً دوراً اجتماعياً مهمًا . وذلك أنه كما أن الموسيقى كان تصحب الإنسان العربي خلال

يومه واحتفالاته، فإن المغنية كانت من مقتنياته كما يمثل الراديو أو جهاز الجراموفون حالياً بالنسبة إلينا. ولقد كانت هناك وفرة كبيرة في الشعراء ومؤلفي الموسيقى، لدرجة أن كتاب الأغاني للأصفهاني الضخم ذكر أغاني هذا العصر الشهيرة وحدها في ٢١ مجلداً. وبينما كانت الموسيقى الشعبية المصاحبة تسود، كانت هناك مقاطع كاملة تؤدي فيها الآلات المقدمة واللوازم الشعبية الأندلسية التي تؤديها فرقة كاملة من المغنيات والمغنين الشعبيين في قصور شمال إسبانيا والبروفانس، وأكويثانيا. لم يكن عجيباً أن تجد لها مريدين متحمسين. وفوق ذلك فإنها كانت تمثل النموذج المباشر لأشكال الغناء الفنية ذات المقاطع مثل الروندو والفيرلاي والملحمة والمدريجال الذي تم التدرب عليه في إيطاليا بعدة طبقات من الأصوات.

ومن ناحية أخرى فإن علومنا ونظريتنا الموسيقية تستند على أسس العلوم العربية الموسيقية المتطورة. فما يمكن ملاحظته أيضاً أن التعبيرات العربية المتخصصة التي صاحبت الموسيقى، والتي يتم استخدامها في كل مكان رافقتها تعبيرات ساذجة كذلك أخذ الغرب الذي كان في ذلك الحين لا يعرف سوى النغمة المتدفقة على وتيرة واحدة كنغمة فردية في موسيقاه الكورالية، أخذ من العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر موسيقى الإيقاعات (المسافات - القياسات التي هي أساس النوتة) وارتفاع نغماتها ودرجاتها وأسلوب كتابتها والتي كانت موجودة لديهم منذ القرن السابع ووصفها الكندي بأنها تلك الموسيقى المقسمة إلى امتدادات نغمية متباينة، وفي وحدات زمنية متكررة ذات إيقاعات ونغمات متسّقة، والتي أصبحت أساساً لكتابة النوتة الموسيقية بداية من شوتس وحتى موتسارت ومن ڤاغز وحتى ريفر. وتؤدي مدرسة فارنكوفون

كولون دوراً أساسياً في تلقي الموسيقى المكتوبة التي تعتبر أهم ميراث أخذ عن العرب في مجال الموسيقى. وقد استخدم فرانكوفي كلمةالمسمى كانتوس مفيسورابيلتس الرموز العربية التي أطلق عليها أسماء من أصل عربي.

العود العربي وأنواعه

وعلى الطريق نفسه الذي جاءت منه إلينا أغاني الحب، جاءت أيضاً آلات الموسيقى العربية، والتي أظهر العرب من خلال ابتكارها أنهم ذوو خيال خصب ومتنوع، وحتى اليوم ما زال الكثير منها تفصح بأسمائها العربية عن أصحابها الأصليين، وما زالت تلك الآلات ذات الصفات الفنية المتقنة والمتطورة موسيقياً تصدح بأنغامها حتى اليوم في صالات الموسيقى حيث تعزف عليها مقطوعات عصور الباروك والكلاسيك والعصر الحديث.

وهناك مثلاً العود (من اللفظة العربية العود، أي عود الخشب) الذي زوده الموسيقيون العرب بخمسة أوتار، ومقبض، حيث احتفظ الاسم الألماني بأداة التعريف العربية (ال)، وفي بلاط القياصرة وجد العود -كآلة مصاحبة- مدخلاً إلى الموسيقى الشعبية. إلا أنه استخدم أيضاً في القرن ١٧ لإحداث نغمات متعددة ينطلق بمجموعة أصوات متعاقبة في الموسيقى الفنية. كما أن (باخ) كتب بعض الأعمال تُعزف على العود العربي حتى تم استبداله بالبيانو في القرن الثامن عشر. كما أن أسلوب العود كان هو أول أسلوب آلي مدرب حقاً يؤثر بشكل حاسم على تطور أسلوب البيانو. الآلة المفضلة لدى السيدات العربيات وكذا الطنبور الصغير أي الطبلة التي تشبه الإناء، كذلك فإنه في وسعنا أن نتذكر أن تلك الطبلة قد أخذت من الرقصات العربية كثيراً من الإيحاءات على مر الزمن، بل إن آثارها عادت للظهور من جديد في رقصات الباروك.

وأياً كانت المكانة الكبيرة التي حظي بها الشعر والموسيقى والرقص في حياة العرب، فإن ذلك الشعب المرح المحب للهو ظلت لديه فسحة من أساليب قضاء وقت الفراغ، والتي استقى الغرب منها بعض الألوان الزاهية المثيرة من أجل بعث الحياة في معشيته الاجتماعية.

ومن أجل معرفة من سيبدأ لعبة الشطرنج ذات المربعات ٨×٨ والمعروف أن كل أربعة من الأمراء الهنود كانوا يقذفون النرد فيما بينهم، وكانت للعرب علاقات تجارية في القدم مع الهند احتل العرب كل مقاطعة السند على نهر الهندوس عام ٧١٢ وكانوا قد طوروا بطريقتهم الخاصة أشكال اللعب المعروفة لنا الآن، وكذا رموز الأعداد الهندية التي أصبحت معروفة أيضاً كي تكون المعركة بين جيشين يخوضها ملكان مع وزيريهما وأبراج القتال والأفيال والمشاة حتى يموت أحد الملكين، أي ينهزم، وهذا يعني: أن الشاه مات؟ وبعد أن أدخل العرب تلك اللعبة في القرن الثامن إلى إسبانيا وصقلية، وأدخلوها إلى القارة الأوروبية انطلاقاً من هناك (حوالي عام ١٢٠٠) أصبح ذلك يعني التنافس (كش ومات) كما أنها أصبحت تسمى كذلك منذ كونراد.

كذلك قدم لنا العرب قبل العود من آلاتهم التي لا تحصى والتي استخدموا منها العديد من الأشكال والأحجام (والتي ربما تكون قد وصلت أولاً إلى إيطاليا) آلة الماندولا والتي وجدت أختها الصغرى، وهي الماندولين مكاناً لها في أوركسترات فيفالدي وموتسارت وبيتهوفن وفيردي وماهلر وشونبرج. وكانت ثالث آلة وترية تصل هذه المرة عبر إسبانيا هي الجيتار، أو الكيثارون ذات الرقبة

الأطول، التي تميزت بالجسم المسطح المفرود عند الأجنحة، وكانت كل تلك الآلات تستخدم بواسطة اليد، أو باستخدام ريشة على عكس الربابة العربية (ريبيك) وهي أشبه بالكمان، ذات رقبة، ولها وتر أو اثنان، ويتم العزف عليها بقوس دائري.

إلا أنه في المقابل أصبحت الآلات الوترية العربية ذات أهمية بالغة بالنسبة إلينا، فالريبيك بها جسم ممدود بواسطة الجلد ذوي أجنحة مضمومة تتناسب مع لمسة قوس خفيفة. وتعتبر هذه الآلة حلقة الوصل التي قادت إلى الكمان الذي نعرفه الآن وكذا إلى الآلات الوترية الحالية. وإذا أضفنا إلى ذلك آلات القرع والإيقاع والنفخ المتعددة في موسيقى الميدان العربية والتي تشمل أيضاً الآلات الوترية المفتوحة مثل القانون، الذي اخترعه الفارابي حوالي عام ١٠٠٠، والذي أصبح فيما بعد يسمى لدينا السمبالو فإننا نجد أن الآلات التي تطورت عن آلات الموسيقى العربية، تمثل الجزء الأكبر من الأوركسترا الحديثة لدينا.

وكان الكمان البسيط يعزف عند الرقص مع التامبورين، وهي قد بدأ فيها كونرادفون أمن هاوزن حوالي عام ١٣٣٧ في كتابه عن الشطرنج: "شاخمات وهو الأمر الذي حفز لوثر إلى أن يشتق منها فعل شاخماتن وتعني الانبهار الذي تثيره لعبة الشطرنج وقد جاء ذكر ذلك عام ١٠٥٠ في أشعار راودليب حتى قبل الحملة الصيليبية الأولى.

أما كلمة «الوزير» فإنها تحولت عبر إسبانيا والبروفانس إلى «فيرس» وتحولت بدورها في فرنسا إلى فيرج التي تعني العذراء، ثم تحولت لدينا إلى "السيدة" (القطعة التي تمثل الوزير في الشطرنج)، كذلك يبدو أن كلمة "الفيل" العربية أسيء فهمها وأصبح وقعها جميلاً عندما تنطق التفيل والتي استخدمت في

التأريخ السكسوني لكي تصبح ألتيه (العجوز - الكبير) ثم تتحول في النهاية إلى كلمة "لويفر" (التي تمثل قطعة الفيل في الشطرنج).

وقد قام الفرسان العرب ذوو الخيال الإبداعي، باستبدال الأحجار الـ ٣٢ بعدد ٣٢ كارت - وذلك حتى لا يثقلوا جيوب سروجهم بلوحة الشطرنج والأحجار، وقاموا بتقسيمها إلى أربعة ألوان حسب التقسيم الرباعي الهندي للشطرنج: الكأس الأحمر، الذي يرمز إلى واجب الضيافة وهي "القلب" لدينا، ثم السيف العربي المقوس على شكل «البيك» لدينا ثم العصى المتقاطعة التي ترمز إلى العدالة «الصليب» لدينا، ثم عملة حمراء وهي «الكارو». وقد ظلت أوراق اللعب هذه والتي كانت قبل اختراع الطباعة أول ما تم إنتاجه بشكل وفير يتفاوت كلياً بواسطة لوحات الطباعة العربية، ظلت باقية لوقت طويل ليس فقط في إسبانيا وصقلية، ولكنها أيضاً في مقاطعة شلزين وغيرها من المناطق الألمانية حيث كانت تسمى "كروت الأبوليرا" حيث ظلت الألوان العربية الأربعة دون تغيير: "كوبيه= الكأس الأحمر، إسباتي" = السيوف، باستوني =العصى، والديناري = العملات.

ومنذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر بدأ طبع تلك الأوراق في ألمانيا بواسطة مطبعة كابسة من أجل الوفاء بالطلب الكبير عليها في كافة المدن.

ولقد كانت هناك لعبة عربية أخرى تجرى على لوحة، بدأت تلقى ترحيباً كبيراً لدى أفراد الطبقة الثرية؛ تلك هي لعبة النرد التي استخدمت فيها أحجار لعب ثمينة من العاج، حيث كان يجري الرهان في اللعب على النقود. وعلى الرغم من أن الكنيسة في عام ١٢٥٠ حذرت من التمادي في هذه الألعاب لأن فيها إضاعة للنفس، إلاّ أن تكوينات لعبة التريك كانت ترسم حتى على نوافذ

الكنيسة، ولم يتعلم المرء في ألمانيا إلا في القرن السابع عشر اللعبة العربية المعقدة المسماة لاأمبرية التي جلبها معه الملك فرانز الأول ملك فرنسا نفسه حين كان أسيراً في إسبانيا وهي كلمة تعني «الإنسان».

ولقد حاول بيرنارد فون كليرفو تحذير الفرسان من ذلك الإغراء العربي يتحدث الفرسان أنهم يستنكرون ألعاب الشطرنج والنرد ويحتقرون الهزليين بل ويكرهون القنص، بل "إنهم لا يبتهجون من رياضة الصقور" وحتى من يقومون بتمضية أوقات الفراغ في الخدمة كانت لديهم قدوتهم العربية، ذلك أن (أبو العبر) مهرج البلاط ذو الدم الملكي كان يلقي في بلاط الخليفة المتوكل -أحد أحفاد هارون الرشيد- نكاته وطرائفه بجدية بالغة وبمهارة في الإشارة إلى الخليفة. وكان أشهر من قلدوه في ألمانيا هو "مهرج بالك" للملك ماكسيمليان الأول" المسمى "كونس فون دير دوزيمة" والذي لم يكن يتقن فقط فن الطرائف ولكنه استطاع أيضاً أن يحظى بثقة القيصر واحترامه بصفته ناجحاً وذكياً من طرف خفي.

وكانت الألعاب في جمالها وروعها (ومنذ أيام الخلافة الأولى) تضيء السماء فوق نهر دجلة بالقرب من بغداد وهي تنطلق في الجو. ومثّلت نوافير المياه أثناء النهار قمة الابتكار العربي على مدى السنين.

وأخيراً فقد كانت متعة الصيد من أكثر المتع المألوفة - وهو الأمر الذي أدركه جيداً الآب القلق في كليرفو - ، وحين كان الصيد لا يهدف إلى الحصول على غذاء، أو الدفاع ضد الضواري ، وإنما لمجرد اللهو، فقد كانت تصحبه أيضاً الآلات الموسيقية والأبواق والطبول من أجل إخراج الوحش من مكمنه، وقد حافظ الصيد على مكانه الثابت اجتماعياً في تمضية أوقات الفراغ لدى طبقة

البلاط وحدها بناء على أصول عربية، حيث أصبح فناً يجب تعلمه وحيث يسير وفق قواعد ثابتة منذ وقت طويل كما أصبح واحداً من أفضل متع الفرسان .

ولقد كان يتم بشكل خاص صيد الوحوش الكاسرة، مثل الأسود والحمُر الوحشية باستخدام الفهود المروضة، والصقور المدربة، التي تطلق على البط البري، والطيور القانصة، أو الغزلان، والحيوانات الصغيرة التي يمكن اصطيادها . وحين كان المرء يعود من الحروب الصليبية، كما فعل هايزيش قلب الأسد وفريدريك الثاني ، محملين بالحيوانات التي صاداها، أو أهديت إليهما فقد أصبحت حدائق الحيوانات صرعة تشبه ما لدى العرب، الأمر الذي أدى إلى ظهور الحماس لجمع الحيوانات الغريبة .

أما عادة إطلاق الصقور العربية بشكل خاص، على الحيوانات ذات الريش، أو الشعر فقد أصبحت الهواية الجديدة لرجال وسيدات البلاط . وذلك لأن تدريب الطيور سواء على الكلام أو القنص، كان أمراً غير معتاد على الإطلاق . كذلك تعلم رجال الحروب الصليبية من العرب تربية الحمام الزاجل واستخدامه في المراسلات العسكرية، حيث كان العرب قد أقاموا في القرن الثامن بالفعل هيئة بريد من الحمام غطت كل أنحاء الخلافة في ذلك الحين . ولقد ظلت أجهزة التجسس تستخدم الحمام في الرسائل حتى الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثامن

الفلسفة العربية والفلسفة الألمانية

العلوم الألمانية تقتفي أثر أفضل المدارس العربية

قام العرب بتأليف كتب تعليمية ، خاصة بالأساليب المثلى للصيد وتدريب الصقور ، وقد أمر القيصر فريدريك الثاني – الذي كان من أكبر محبي الصيد بالصقور– بجمع تلك الكتابات وترجمتها ، كما أنه جلب إلى بلاطه مدربين من سوريا من أجل تدريب الصقور ومن أجل دراسته الخاصة للطيور وكيفية التعامل معها . كما أننا نعرف كتابه الخاص المسمى "حول فن الصيد بواسطة الصقور" والذي يستند إلى ملاحظات وتجارب شخصية عديدة للقيصر حيث يكمن خلف ذلك العنوان الخاص جداً علم كامل خاص بالطيور والذي يعتبر عملاً علمياً ليس فقط لأول شخص ألماني وإنما بالنسبة إلى الغرب برّمته .

ولقد امتدح القيصر الألماني مزهوّاً تجاربه الشخصية خلافاً لأرسطو ، الذي ابتعد عن طبيعة بعض الطيور لأنه لم يمارس الصيد نفسه اطلاقاً أحببنا الطيور دائماً ، وتمرسنا على التعامل معها وكانت تكمن خلف ذلك الرغبة في التفوق على ذلك اليوناني ، الذي أراد شرح الطبيعة ، استناداً إلى النظرية والتكهن فقط ، وكذلك التفوق على المعرفة المجردة السائدة المأخوذة من الكتب .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا القيصر المثقف الذي كان قارئاً نهماً لم يثق بالحروف تماماً ، في حين أنه اعتمد كلية على ملاحظاته الخاصة فقد قال : لا يمكن للإنسان أن يثق بشكل أكيد من السماع فقط . لذا فقد كرَّس القيصرُ جهده للكثير من الملاحظات الفردية والتجارب على الحيوانات هذه الملاحظات التي تعتمد

على المشاهدة العينية والسماع المباشر لكي يصور الأشياء الموجودة على حقيقتها وفقاً لما قاله.

ولكن هل كان ذلك شيئاً غير عادي ؟ ألم يكن هم كل إنسان أن يرى الحقائق كما هي؟ كلا، ذلك أنه في إطار التطلع إلى ذلك العالم الأحادي النظر فإن المثقفين الأوربيين في ذلك الحين لم يكونوا مهتمين بالنظر إلى الأمور الطبيعية، كما أنهم لم يعطوا أهمية للطبيعة الحية حولهم إلا عندما ترتبط بالله، والروح أي كرمز للأمور الغيبية وتشبيهها بالإنسان الذي خُلِق كل شيء من أجله، بدءاً بالحيوان وحتى الأعشاب، ولكنه لم يهتم بها في حد ذاتها في حين أن الطبيعة وحدها أعطت مجالاً للتأمل انطلاقاً من الكتاب المقدس وكتابات وشروحات الإنجيل.

إن ذلك الإمبراطور الذي كان العرب يسمونه أفضل شخص في ملاحظة ما تدركه الأبصار، كان يريد أن يعرف كنه ظواهر الطبيعة، ولماذا تعرف على هذا النحو. كما أن ذلك الرجل المتعطش إلى المعرفة، والذي ظلّت كلُ علوم الغرب النائمة في أحضان اللاهوت، مدينة له بالإجابة عن كل تساؤل، الرجل الذي تأثر وجدانه منذ نعومة أظفاره بالعالم القائم في باليرمو، والذي كان لا يزال خاضعاً للتأثيرات العربية حيث أنه كان محاطاً بالخدم، والرفاق والمدرسين العرب وغيرهم ويتحدث العربية بطلاقة، كان يهتم بالقراءة، والحساب وقرض الشعر. ومن ثم فقد كان يتوجه بأسئلته في أمور العلوم الطبيعية، والرياضية مباشرة إلى العلماء العرب، وهي تساؤلات كان الغرب لا يزال بعيداً عن مناقشتها حتى ذلك الحين، وما كانت لتخطر مطلقاً على بال علمائه. وكان يسعى عن طريق تلك التساؤلات إلى كسب صداقة السلطان الكامل ومشاركته العقلية له وإلى إقامة صلات سياسية معه.

ومن أمثلة تلك التساؤلات : لماذا يبدو المجراف والرمح وكافة الأجسام الغاطسة في الماء منكسرة في الجزء الموجود فوق سطح الماء ولماذا يبدو السهل عند بدايته أكبر من منتهاه على الرغم من عدم وجود رطوبة في اتجاه الجنوب؟

لماذا يرى من تثور حدته وتغيم عيناه، بقعاً سوداء مثل الذباب والبعوض خارج عينيه على الرغم من عدم وجود شيء خارج العين وإن الشخص المعني في كامل وعيه .

إنها أسئلة تطرح بدافع من تجربة المرء، وتتطلب من ثم اختباراً فيزيائياً، ونفسياً بلا خلفية سابقة ، بما يتفق مع العلوم العربية المتقدمة، وكان ذلك أشبه بالاعتراف بالكفاءة العالية المؤكدة للعلوم العربية، التي كانت سائدة في كافة مجالات العلوم : في الرياضة، والميكانيكا، والبصريات ، والفلك، والجيولوجيا، والنباتات والكيمياء، والصيدلة والطب (كما أوضحنا في كتاب شمس الله تسطع على الغرب) بفضل تكوينها الواعي الذي ميزها في أيّ من هذه المجالات . ولقد كانت رعاية الفلسفة الطبيعية اليونانية والروح اليونانية المتمثلة في عالم الحقائق، عن طريق إرادة عبقرية حيث يؤدي الحماس الشديد من أجل النقاء إلى التوصل إلى الحقائق، العامة والإدراك الكامل للفكرة . وكان هذا هو الأسلوب الذي سار عليه العرب على ذلك الدرب الشاق، درب الملاحظة والتجربة التي كانت تضع نصب عينها الشخص الفرد في كينونته .

ولقد اهتدى العرب إلى الأسلوب التجريبي في العلوم الطبيعية عن طريق التكرار والجَلَد المنظم للحقيقة نفسها في ظل ظروف مختلفة . وبهذه الطريقة الخاصة في التفكير والتي تمكنوا من خلالها إتقان علوم جديدة كاملة، كانت لاتزال غير معروفة لدى الإغريق واستطاعوا من خلالها تحقيق تقدم حقيقي في

المعرفة تفوقوا فيه على الإغريق.

كما لم يقتصر فضل العرب على استكشاف الميراث الإغريقي الذي طواه النسيان، بالفعل، وعلى جمعه، وترجمته في مجلدات ضخمة بشكل منهجي، ويقول النبي (ﷺ) في معنى حديثه : "إن من يسعى إلى العلم يكون كمن يتعبد".

وكما حثّ الناس على نهل العلم من أي منبع، حتى ولو أخذوه من شفتي كافر، وأدى ذلك إلى عدم استعباد روحهم أو إشباعها بأية حال، وذلك أن استقبال المعارف الغريبة وتطويعها كان يتناسب تماماً مع جهود إيقاظ تلك الروح الوثابّة وتدريبها وتقويتها.

وفي خضّم ذلك كله خرج شخص بتلك الكلمة المدهشة:

"إن الشك هو الشرط الأساسي للمعرفة" وعن طريق هذه الجملة الجريئة استطاع زعيم المعتزلة "إبراهيم النظام حوالي عام ٨٠٠ أن يمهد الطريق لحركة إسلامية واسعة التأثير أمام الازدهار العظيم للعلوم العربية الذي بدأ مبكراً واستمر حتى القرن الرابع عشر.

لقد كانت الأفكار القادمة من التعاليم الزرادشتية والمثنوية في إيران تهدد بالتسلل إلى داخل العقيدة الإسلامية بشكل متزايد. مما استوجب ظهور قوى مدافعة عن الإسلام من أبنائه مثل مدرسة المعتزلة النشطة التي كانت البصرة مركزها الروحي. ولقد كانت هناك روابط وثيقة تتسم بالود تربطها مع الخليفة العباسي الثاني المنصور امتدت إلى كافة خلفائه باستثناء ابنه هارون الرشيد، كما أن حفيده المأمون الذي بدأت في عهده انطلاقة العلوم الواضحة. قد أعلن عام ٨٢٧ هـ عقيدة المعتزلة ضمن تعاليم الدولة ؛ أي الإيمان بوحدة الله، ونقاء جوهر العقل الإلهي، والإيمان بأن الله ليس شبيهاً بالإنسان، وأنه لا يمكن تجسيده، فهو موجود في كل مكان وفي الوقت نفسه فهل كان ذلك يوفي الربط بين الإدراك الإنساني وبين الإدراك الإلهي معناه أن الرشد النابع من التكرار لم يكن هو الدافع وراء تلك المقولة. وهذا الأمر كان يهتم به المعتزلة دائماً، ولأن المطلوب هو العمل على أن يؤدي الإدراك والمعرفة إلى إنارة طريق الإيمان، ولذلك قال النبي (ﷺ) في معنى حديثه : " إن الدراسة تبلغ مرتبة الصيام، أما العلوم فإنها ترقى إلى مرتبة الصلاة» ، ولقد وجههم (ﷺ) إلى الطبيعة، وإلى الأرض الرحبة " أينما فثمة وجه الله " الأمر الذي جعل الصوفي بن عربي يقول : "إننا نراه في كل شيء تقع عليه أبصارنا، من دون أن يحيد نظرنا لحظة واحدة" وهكذا أيضاً فإن أبا حنيفة أجاب على أحد المعتزلة في منتصف القرن الثامن تساءل عن مركز الأرض بقوله : (إنه يوجد حيث تجلس) إلا أنه حسبما ذكر القسام مراراً تكراراً ، وهو الذي مهد الدّرب أمام المعتزلة وأحاط بكل الأمور، فإن الشيء الوحيد الذي يكون صحيحاً هو ما تدركه الأبصار والآذان والذي يثبت العقل غير

المقيد أنه صحيح . ولقد نظر كثير من الباحثين بجدية تامة إلى ذلك المطلب مثلما فعل الطبيب ابن النفيس الذي صرح في القاهرة بقوله : "مع كل احترامنا لجالين " ، فإننا نقدر أكثر ما نراه بأعيننا " .

لذلك كان ابن النفيس هو أول من اكتشف ووصف الدورة الدموية بدلاً من الفكرة التي كانت سائدة عن وجود ثقوب في الجدار الفاصل للقلب ، تسمح بمرور الدم . ثم هناك أيضاً عالم النبات العظيم ابن البيطار من الأندلس ، ا الذي كان على استعداد تام – حسب ما ذكره في مقدمة كتابه الأهم لأن ينقل فقط عن المؤلفين القدامى والمحدثين "ما أجده صحيحاً عن طريق الملاحظة والتجربة الشخصية وأن أدع مالا أستطيع إثبات صحته أو ما يتضح أنه يتعارض مع الواقع " .

وتلك كانت هي روح ولغة هؤلاء القوم التي كانت تتفق مع روح ولغة القيصر الباحث فريدريك الثاني ، والتي كانت أيضاً غريبة عن روح الغرب الرسمية التي تسمح بها الكنيسة والتي كانت تقيد كلَّ أوجه الفكرة في خزانة سلطان الإنجيل ، والقساوسة ، والذي أخمد كل نشاط عقلي مستقل يبدأ في التحرك في أي مجال ويضطهده متهماً إياه بالهرطقة ، ومجبراً على التزام الصمت . وهي أمور يمكن للإنجليزي ابتلهارت فونبات أن يروي عنها الكثير حيث صدم في موطنه بسبب حجب كافة المعارف الطبيعية بعد أن كان قد تنفس حرية الحياة الفكرية في الدول العربية التي كان قد عاد منها لتوه فقال :

"إذا أغفلنا التعّرف على ذلك الجمال الرائع ، والعاقل للكون الذي نعيش فيه ، فسوف نكون جديرين بأن نطرد منه ، كما يحدث لضيف لا يستطيع احترام المنزل الذي يستضيفه» .

ولقد تعلمت من المعلمين العرب أهمية تولي العقل لقيادة أمورك في حين

أنك تسير وفق سلطة موجهة أشبه بالسجين في زنزانته . وإذا ما سيق حيوان إلى مكان ما فإنه لا يستطيع تمييز الاتجاه أو السبب ، وإنما هو يسير مع القطيع ، وهكذا أيضاً تقود سيطرة كتابات كثير منكم بمن هم مقيدين بسبب ترفهم الحيواني غير المروض .

ولقد كان مقدراً على الرغم من ذلك أن تزرع بذرة العلوم التجريبية العربية ، وعلوم الطبيعة التجريبية في أرض البلاد الألمانية ، وأوربا الغربية على وجه الخصوص ، لتجد تربة خصبة لاستقبالها ، مما جعلها تثمر محصولاً غنياً لا يزال العالم كله يعيش عليه حتى اليوم لم تسقط هذه البذرة في تربة بيزنطة ، أو التربة اليونانية التي كانت خصبة ذات يوم ، كذلك لم تسقط في شرق أوربا وروسيا أو الهند أو الصين .

وهناك سؤال يحظى بأهمية بالغة يطرح نفسه : ما هو السبب في أن الشرارة التي أدخلها العرب في العلوم الطبيعية الدقيقة قد اشتعلت هنا فقط لكي تلقى بعد ذلك انبعاثاً من أوروبا ، وضوءاً يسطع على كل شيء ، هو ضوء العلم في كافة مجالات تطبيقه كالتكنولوجيا التي سيطرت على العالم بأكمله؟ وكيف كان ذلك ممكناً؟ هل كانت هناك رغم كافة الاختلافات ، أوجه تشابه ، أو شيء ما فتح المجال أمام الاستعداد للفهم والتلقي ؟

في الحقيقة أنه قبل أن تشتهر أولى المخطوطات العربية بوقت طويل ، وقبل أن يقوم الدارسون الأوروبيون في أشهر الجامعات العربية ، التي كانت نماذج تحتذى في الغرب ، بجلب العلوم والأساليب العلمية للعرب إلى الغرب ، كان الاحتجاج على الوصاية الروحية والعقلية قد بدأ هنا بالفعل وقبل مدة طويلة من اشتهار الكتابات العربية وقبل أن يستجلب الدارسون الأوربيون معرفة وطرائق العرب العلمية من الجامعات العربيةالشهيرة بدأ الاحتجاج هنا والنابع من

الضـرورة الجرهرية والفكرية الداخليـة على الوصـاية الفكرية ، لا بل ذهب ذلك الاحتجاج إلى مدى أبعد حيث توجه ضد إعادة التربية الفكرية المزدوجة والغربية والتي تشوه الأشياء والعالم ، كما هم عليه في حالتهم الراهنة .

نعم ، في نفس الوقت تقريباً الذي قام فيه إبراهيم النظام في خلافة المأمون "بتمهيد الطريق" أمام المعتزلة ، فإن الإسكتلندي أريجونيا كتب في بلاط القيصر ، كارل الأصلع كتاباً "حول تجزئة الطبيعة" ، حيث اعترف في البداية دون لبس بأولوية الفكر ، المستقل على ماعداه من سلطات ، وأعطى تلاميذه الكلمة التي يعشقها هو نفسه : "لا يجب إذن أن تردعك أية سلطة عما يعلمه لك العقل استناداً إلى الإدراك السليم" .

وهكذا كان كل شيء داخله يقاوم ازدواجية الأساليب ، كالمسيحية والأفلاطونية الجديدة وضد انكساف واحتقار عالم المادة الخاطئ. والذي لا يبدو كونه عائقاً مزعجاً بين الإنسان الهابط وجلال الإله في عرشه المتسامي عن العالم . إلا أن البوابة قد انفتحت ، وأصبحت النفس الإنسانية تجد في الطبيعة مجالاً جديداً لكي تدرك معنى ذاتها ، عن طريق إدراك جوهر وطبيعة الألوهية ذاته ، وهذا هو الدافع الدفين لعلم لا يزال في بدايته . وطبيعة الأشياء هي نفسها التي تنير لنا طريق معرفة الكيفية التي بني بها هذا الكون ، حسبما ذكره التلميذ الألماني لاريوجنياس في بداية القرن الثاني عشر ، وهو هونوريوس فون تريجنسبورج . وليس هناك ما يلقى ضوءاً كاشفاً على مبعث فلسفة عالمية جديدة على الرغم من قدمها أكثر من الإجابة التي جاءت على لسان فون كرنشس النورماندي ، وذلك حين ذكر رجال الدين أنه قد حصل على المعلومات عن نشأة الإنسان من الإنجيل حيث قالوا : "إن البحث عن جوهر الأشياء وعن قوانين نشأتها إنما هي أكبر مهمة

ملقاة على عاتق الإنسان المؤمن، وهي المهمة التي يجب علينا الوفاء بها عن طريق تعاوننا الأخوي للإيفاء بفضولنا. وحين يظهر إجماع يسلم سانت فيكتور شخصيته من جراء تزايد الفضول تجاه شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، ومواقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح وحياة النباتات، والديدان، فإننا نجد أن فيلهلم قد أظهر غضبه قائلاً : " إن من لا يدركون قوى الطبيعة وإدانة العالم القائم على المادية الآثمة التي لا تخرج عن كونها عقبة كأداء تحول عرش فوق عوالم عدة والذي يختلف كلية . .

وبالنسبة إلى أريوجنيا - الذي كان خلافاً للنظام، ناسكاً- وحيداً يشق طريقه بشجاعة والذي سيتبعه فيما بعد عدد لا يحصى من النساك الهراطقة الملعونين- كانت الطبيعة والإنسان داخلها شكلاً من أشكال الألوهية، وعدداً لا نهاية له من الوحي الذاتي والتطور الذاتي للألوهية غير المحدودة. إلا أن تلك الألوهية المتمثلة في كل شيء وتعد جوهر كل شيء تتحول في الإنسان إلى الوعي بذاته إلى الحد الذي يجعل الوجود الإلهي يلتقي داخل العقل الإنساني بالقدرة على الإدراك والمعرفة، الأمر الذي يتيح إدراك مدلولات الأشياء وبذلك سيتوحد داخل الإنسان الإدارك الإلهي مع الشيء . ولكن في حين أن النظام لم تكن به حاجة إلى أن يترك ساحة الإسلام نجد أن أريوجنيا يتخذ موقفاً متناقضاً مع العقيدة السائدة، ولهذا السبب فقد تعرض مع العديد من تلاميذه لملاحقة واضحة وشكاوى وخطر بل وأسوأ من ذلك.

«يريدون أن يربطونا بجهلهم حين ينازعونا الحق في أن نبحث عن الأسباب ثم يدينوننا بأننا نتمسك بعقيدتنا بشكل عنيد كما تفعل الحيوانات، ذلك أنهم عندما يعرفون أن هناك من يبحث عن المعرفة فإنهم يرفعون عقيرتهم متهمينه بالزندقة . . "

ونظراً لوجود توافق أخوي مع فضولنا والذي سيبدأ منه العالم الإسلامي المعرفي، بل وسيعتمد عليه، على حين ظلت الكنيسة حتى عهد كوبريتكس وجيوردانو برونو وجاليليو وبعدهم تعاقب بشكل قاس على عملية " البحث عن المصادر " أو " قوانين الطبيعة " ، وهو الأمر الذي كاًن من شأنه أن يؤدي إلى حدوث تطورات مخيفة للغاية.

فهل كان من الممكن أن تنشأ علوم (الطبيعة) حقيقة على هذا الأساس الوعر للازدواجية التي تقوم عليها الفلسفة المسيحية والإغريقية؟

وهل كان ذلك متاحًا بصورة غير التي تحدث عن طريق إرادة الله التي تخلق المعجزات، أو تفيض بالرحمة أو تفرض العقاب، أو عن طريق تجسيد تلك الإرادة في الإنسان وعن طريق الأسرار، أو تتجسد في العالم البغيض المناقض له والذي تسيطر عليه الأرواح الشريرة.

ثم هل كان في وسع العلم الحقيقي أن يتطور استناداً إلى الازدواجية في فلسفة أفلاطون وأرسطو؟

وبالصورة التي كان الفكر الصوفي مسيطراً فيها خلال ذلك العصر وهي الازدواجية التي هيمنت عليها ظاهريا المبادئ والشكلية للمادة (الميتة) حيث عملت مسببات ما وراء الكونية والمحرك الأول الذي يعتريه الزوال والتي تتدرج مرحلياً من أعلى إلى أسفل على التسبب في إضعاف السببية ككل وكل حالة تفيد المادة السلبية الخالصة بشكل متجدد دائماً؟ وهكذا كان المفهوم السائد آنذاك! فهل كان متاحاً أن يتطور علم طبيعي تجريبي دقيق حيث تتغير القوانين السائدة كما تتغير الأمزجة وذلك بدلاً من أن تصبح سارية بشكل عام، كأن تتغير قوانين

الحاضر ولا تصبح هي نفسها قوانين الغير وأن يحدث ذلك حيث أوجد، وليس هناك حيث توجد في ذلك المجال أجسام سماوية تختلف عما يوجد في المجال الإلهي الأرضي الحقيقي.

ولم يكن متاحاً التوصل إلى علم حقيقي على أساس المفهوم الديني للطبيعة والمفهوم الأولي للمادة، وهو ما يسري تماماً بالنسبة إلى المفهوم العربي، والذي كان كامناً كذلك في أوروبا، وهي المادة التي لا يعتريها نقص. كما هو الحال بالنسبة إلى توماس فون أكونيان - فإنه مفهوم واقعي نحو الإدراك الملموس لله الذي تشمل وحدته كل ما هو عظيم أو صغير وتفرض عليه التوحد. كما أن الوحدة الداخلية للكينونة كلها، وقوانينها السارية، التي تسيطر على كل مكان في الكون !! تماماً كما أن "مركز العالم" يوجد في كل مكان، وكذا المرونة المعرفية التي تعتبر الفهم المطلق والسبيل إلى معرفة كافة نواحي الإدراك بالنسبة إلى العلوم.

المياه العربية تدير الطواحين الألمانية

عملت قوى عديدة سوية من أجل تعميق الأخاديد بغرض إتاحة الفرصة لزرع البذور. وقد ساعدت الحروب الصليبية على شحذ ملكة الإدراك وإمكانية تقييم الأشياء كما جعلت الروح أكثر تسامياً، وأكثر حركة. كذلك أدت إلى توسيع الأفق الفكرى مكانياً، وجماعياً كما ساعدت المقارنة على زيادة القدرة الانتقادية. وكلما طالت فترة الحروب الصليبية وأصبحت ثمار جهودها غير الإنسانية موضع شك، ساعد ذلك على نمو حالة التبرعم كما نمى الإدراك بعدم مصداقية الاختصاصات الكنسية. وإذا كانت الظروف غير الطبيعية قد ألقت في البداية بستائرها الكثيفة على الأشياء، والناس فقد تمزقت الآن تلك الأستار. وبدأت العين تكتشف العالم على حقيقته الأرضية الظاهرة التي لا تنأى عن الله

وإنما تهدي إليه . ولقد تساءل فريدريش فورن زونينبورج في نبرة تحد قائلاً : "لو لم يكن العالم موجوداً فكيف نستطيع إدراك الله؟"

لقد بدأت العين تكتشف الطبيعة مثلما فعل هيلدييجارد فون بينجن ، وألبرت فون بولسترث ، أو ألبرتوس مجنوس . وتراها على أنها كل منظم يشمل كل شيء ، أي على أنه "الكون" ، وهكذا بدت في ساليرنو ، وصقلية وفي إسبانيا بشكل خاص بمساعدة اليهود من كافة الدول الأوروبية عملية ترجمة هائلة لفيض من الكتب العربية إلى اللاتينية ، والتي شملت الترجمات العربية للمؤلفين الإغريق وكذا أعمال العلماء العرب . كما قام فريدريك بارباوسا الأول بإرسال جيرهارد فون جريمونا إلى أكاديمية المترجمين في طليطلة والتي أسهم في عملها أيضاً آيتلهارت فون بات وميخائيل سكوتس ، ومعلم البلاط لدى فريدريك الثاني . وهكذا تم جلب أولى الكتابات عن الطب العربي من سارنو عبر جبال الألب ، وكذلك العديد من الإنتاج المفيد والمرغوب من روح الابتكار الفني لدى العرب ، والتي اهتم بها هيرمان كونتر كونتراكتوس في رايشناو . ومن أمثلة تلك المبتكرات الساعات وأجهزة القياس بكافة أنواعها وأدوات الرفع ومولدات الطاقة والعدسات وغيرها من الأجهزة البصرية والفلكية والطبية ومعدات الكيمياء العملية .

ثم تلا ذلك في صورة دفعات متزايدة الشدة ، هبوب رياح ثرية لا يمكن إغفالها من أدوات البحث ، والنتائج والأساليب ، والتي ساعدت جزئياً على إعطاء دفعات نابضة ومباشرة والتي بدأ بعضها يبرعم بشكل تدريجي وذلك لأن الرياح الكنسية واللاهوتية الحرفية كانت قوية للغاية مما جعل التعامل مع النبضات الجديدة يمثل خطورة بالغة وتأرجح ذلك الوضع مئات السنين وعلى الرغم من ذلك فقد حاول البعض في أوروبا بين الحين والآخر النفاذ إلى تلك الروح : رجال من أمثال روجر باكون الذي اضطر لأن يبقى عشرة أعوام في المنفى وخمسة

عشر عاماً في السجن ثمناً لاهتمامه النظري والعلمي بإنجازات الحسن بن الهيثم في البصريات وبالكيمياء والميكانيكا وعلوم الحرب.

وهناك أيضا زيجرفون برايانت الذي استبدل المذهب الازدواجي لأرسطو عن المادة بالمذهب التوحيدي لابن رشد المسمى أفيروس، الأمر الذي أدى إلى خنقه في سجن البلاط الباباوي. وكذلك الإسباني أرنالد لدوي فيلافون الذي اضطهدته محاكم التفتيش. بسبب ترجمته واستخدامه للكتب العربية حول الطب. وكذلك مواطنه الأصغر سناً، ميخائيل سيرفيت، الذي روج لفكرة ابن النفيس عن الدورة الدموية الصغرى حيث نفي بسبب عقيدته التوحيدية المستمدة من الإسلام. وهناك أخيراً القيصر فريدريك الثاني، الذي عزله البابا بنفسه في مجلس ليون عام ١٢٤٥ بسبب ميوله وهواياته العربية وغيرها من أعمال "الهرطقة". كما خلعه من كرسيه وكافة أشكال التكريم وأعلن أنه خان قسمه بالولاء.

ولم تكن تلك سوى البداية لسلسلة لا نهاية لها من العقوبات الكنسية بسبب الارتباط الروحي والفكري بين العرب والأوروبيين والألمان، وهو الارتباط الذي أتى بثمار مباركة غير محدودة بالنسبة إلى تطور الفكر الأوروبي والألماني على الرغم من تلك العقوبات.

وإذا كنا اليوم على العكس من ذلك ومن خلال التعاون قد أصبحنا الطرف الذي يعطي التعاون الثنائي وإذا كان الجانب العربي هو الذي يأخذ عنا اليوم العلوم الحديثة المتطورة والتكنولوجيا القائمة عليها، فإن ذلك أمراً ممكناً ويحمل في ثناياه تطورات المستقبل لأن الإسلام بعد قرون من الجمود الشديد والتغريب الاستعماري، وفرض الوصاية عليه أصبح يشهد اليوم ميلاداً ثانياً يعمل على تنقيته وتجديده وأصبح يقابل بتفهم واستعداد طبيعيين لتلقي العلوم التي أدت العبقرية العربية إلى وضع بذرتها لدينا حين أغرقت المياه العربية حقول ثقافتنا.

الختام

أمور مشتركة تربط العرب وأوروبا

تميزت اللقاءات بين العرب والألمان طوال اثني عشر قرناً بنوع غريب من التعاطف. ولهذا أسبابه فقد كان هناك قبل ذلك التلاقي لفترة طويلة وخلال العصر " الوثني " ، صفات معينة تميز كلاً من العرب والألمان أخرجت إلى الوجود تناسقاً وارتباطاً فريداً ، رغم كافة الاختلافات في العنصرين وهو الأمر الذي افتقرت إليه العلاقات مع العديد من الدول الأخرى ، وما زالت تلك المميزات المشتركة قائمة حتى اليوم . وبدون أن ننكر الأساليب المعرفية والبنى الفكرية لكلا العرقين أو نحاول طمسها ، فإننا نلاحظ أن كلا الشعبين قاما استناداً إلى جوهر كلي ، وبصفة مستقلة عن الآخر ، بتطوير نماذج فكرية وسلوكية متشابهة ، ليست بأية حال نفس الصفات التي تتميز بها كافة شعوب أوروبا والشرق ، وذلك بغض النظر عن تلك النظرة الإنسانية الشاملة للطرفين ، ويتجلى ذلك في إدراك معنى البطولة . إذا كنا نعني تحت هذا المفهوم السائد اليوم من جانب واحد الذي يدينه الجميع والمتمثل في ضرورة أن لا يكون الإنسان أنانياً وعلى استعداد شخصي لخدمة الإنسان ، وفي أن يكون ذلك يمثل قيمة ما ويجري فهمه من منطلق الإخلاص للذات ، وأن يكون لديهم إدراك لمعنى إكرام الضيف الذي يتطلب الالتزام بالمسؤولية ، وتوفير الحماية حتى للخصم إضافةإلى إدراك معنى الفروسية ، التي تعترف بأن العدو هو خصم كفء ومن ثم تحترم سلوكه ، عدا عن أنه مفهوم واضح لمعنى التسامح ، والذي يحترم العقائد الأخرى ، ويعترف لذوي العقيدة المخالفة بحقهم في الوجود والحرية وتركهم يعيشون داخل الوطن نفسه كشريك يقف على قدم المساواة .

إلا أن هناك أيضاً أساساً فكرياً لذلك التعاطف بين الشعبين جعل من الممكن أن تتم عملية التفاهم والازدهار الفكري بينهما ، وهذا أيضاً بدوره يميز الطرفين بصورة أساسية عن الشعوب الأخرى . وذلك لأن الشعوب - طالما أنها ليست مجبرة بتأثير القوة - تأخذ فقط ما يقع في نطاق إدراكها وفهمها لكي تعبر عنه بأسلوبها الخاص ، وبقواها الذاتية تعبيراً سليماً حقيقياً . كما أن هذين الشعبين يقومان باستبعاد ما لا يتفق معهما إما عن طريق الرفض ، أوالاحتجاج أو المقاومة . وعلى الرغم من أن مفهوم كل العرب والألمان عن العالم والله غير متطابق على الإطلاق من ناحية الجذور ، إلا أنهم حين يعيشون في ظل الحرية يجمعهم فكر واحد يعمل على إيجاد تناسق بين الدنيا والدين ، وبين الحياة في عمومها ، الأمر الذي يجعل الإقبال على الحياة والترحيب ، بالعالم يمثل وحدة فكرية طبيعية غير متناقضة من خلال إحياء وجود ديني راسخ .

وينتمي إلى تلك القاعدة المشتركة في الإدراك وعي بالواقع لديهم فقط كما يحدث في أجزاء كبيرة من أوروبا ولكن ليس في أي مكان آخر في العالم ، وذلك نتيجة لنظرتهم الواحدة للكون مما جعلها مهداً للعلوم الطبيعية الدينية ، وبوتقة ومهداً لها ، وهنا فكر واحد مشترك ليس من شأنه أن ينزلق إلى خطر العقلانية أو المادية - وهي أمراض×٢٦٣ الازدواجية العقائدية والفكرية- على الرغم من إعمالهم العقل بصورة كاملة ، وهو الفكر الذي يقدر على الجمع بين العمل الإدراكي الواضح المنطقي مع العودة إلى أعماق الوجود . فنجد أن كبار الصوفة العرب من أمثال الغزالي وابن عربي يقفون هنا أمام المعلم ايكهارت ومع كثير من تلاميذه خاصة في ألمانيا ومن الأمور المفاجئة هو ذلك القرب بين أفكارهم

جميعاً، فهل كان هناك اتصال غير مباشر بينهم؟ وهل يكون ايكهارت قد استمد أفكاره وأسلوبه من "الانعزال" من كتاب "أكسير السعادة" للغزالي، تماماً كما تأثر معاصره دانتي فأفكار البعث للمحبوب الموصل إلى الله من أفكار الصوفي ابن عربي.

لهذه الأسباب التي لم تكن صدفة، طالب الكثيرون ممن يسيرون وفق الفكر الألماني الديني الموحد - مثل نيكولاوس فون كويس، وسيباستيان فرانك، وليسنج، وهيردر وجوته - طالبوا جميعاً بمساواة الإسلام مع الديانات الأخرى. وذلك لأن الله موجود لدى جميع الشعوب، ولأن الناس يمتلكون نتيجة لوحدة أساس الوجود الإلهي لديهم حرية الوجود والعقيدة بالصورة التي تسعى بها تلك الحرية إلى فرض النظام السلمي الذي يربطها جميعاً، أو كما نقول بعبارة فولفرام فون إيشنباخ: "لأن الناس جميعاً عباد الله" لهذا السبب فإن الموريسكو المطرود من إسبانيا "ريكوتا" قد بحث عن موطن جديد له في ألمانيا، لأنه حسبما قاله لسانشو مانزا: "إن المرء يعيش في حرية عقيدية في الجزء الأكبر من ألمانيا.

ولا يزال من الأمور التي تثير دهشتنا وخجلنا أن نقرر أنه على الرغم من العيش طوال ١٢٠٠ عام في حيرة ورغم اللقاءات والتبادل الفكري مع شعب يعيش على أبواب أوروبا مباشرة جنباً إلى جنب معنا فإن جهلنا بطبيعته وفكره لا يزال شائعاً. ونحن الألمان على وجه الخصوص الذين لم يكن لدينا أي علاقة استعمارية مع الشعوب العربية لا نعرف سوى القليل جداً عن الفردية، أو عن لقاءاتنا وعلاقاتنا الودية السابقة أو تكون معلوماتنا في معظمها خاطئة.

إن ما يريد هذا الكتاب تحقيقه هو: أن نحاول أخيراً إيجاد قاعدة عريضة

للفهم المتبادل لتعايشنا في الحاضر والمستقبل مع العالم العربي ومن أجل اللقاءات والأحاديث مع ساستنا وعلمائنا ورجال الاقتصاد لدينا ومهندسينا وصحفيينا وكذلك بالنسبة إلى حركة التجوال الكبرى للسياح ، بل بالنسبة للعرب والألمان بصفتهم شركاء مستقبل في السياسة الدولية .

قائمة بالكتب والمراجع العربية
والأجنبية المستخدمة في الترجمة

١ - أبو عبيدة : جغرافية أوربا من كتاب المسالك والممالك - طبعة بيروت (الخريطة المنشورة في الكتاب) .

٢ - أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون بالقاهرة ١٩٥١ - القسم الثاني ، الطبعة الأولى (ص ٨٣٠) .

٣ - زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧م .

٤ - زكي نجيب محمود : الأهرام القاهرية في ٤/ ٥/ ١٩٧٩م

٥ - عبدالباقي : معجم ألفاظ القرآن - طبعة الشعب .

٦ - عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية - الجزء الثاني - القاهرة .

٧ - فؤاد حسن علي : ترجمة كتاب شمس الله على الغرب - دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨ - د. مصطفى ماهر : ألمانيا والعالم العربي - بيروت ١٩٧٤ .

قائمة بأسماء البلاد والمدن والأنهار

وترجمتها بالعربية

Akkon	عكا
Almeria	ألمرية
Antiochia	أنطاكية
Aquitenia	أكويتانيا
Barbastro	حسن باريشتر
Caesave	القيصرية
Cilicion	قلقيلية
Genezareth	بحيرة طبرية
Gordoba	قرطبة
Granada	غرناطة
Guad Alquivir	الوادي الكبير
Hermon	جبل الشيخ
Lonium	فونيا
Ifrikija	افريقية
Karthage	قرطاجة
Jastilien	قسطلة
Navarra	يافارا
Nazareth	الناصرة
Niniveer	نينوى
Provence	البروفانس
Pyenaen	جبال البرانس
Ramleh	الرملة
Saleph	نهر الساف
Saragossa	سرقسطة
Sevilla	أشبيلية
Sizilien	صقلية
Tyrus	صور